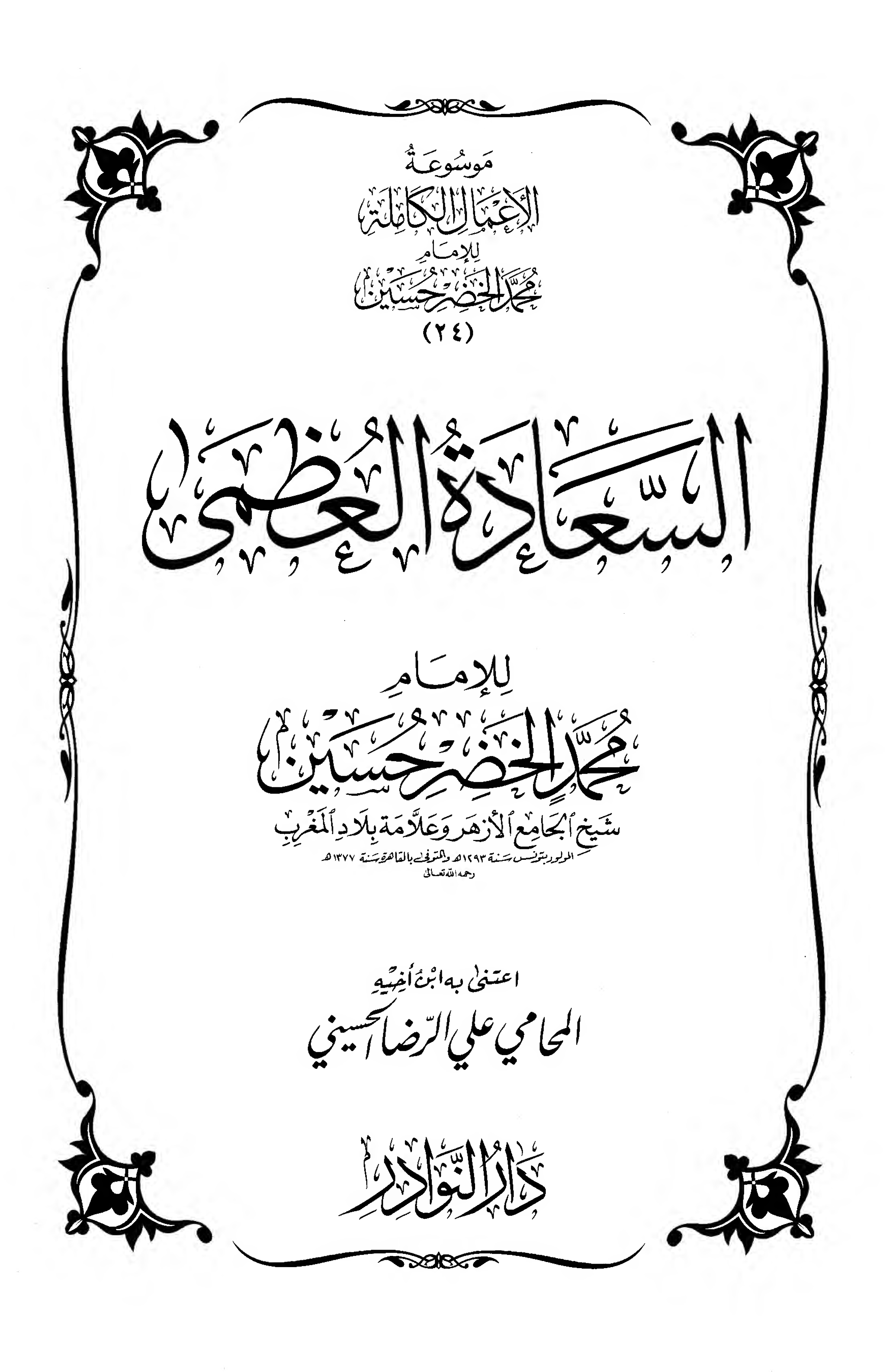


موسوعة
الأعمال الكاملة
للإمام
محمد الخضر حسين
(٢٤)

السعادة العظمى

للإمام
محمد الخضر حسين
شيخ الجامع الأزهر وعلامة بلاد المغرب
المولود بتونس سنة ١٢٩٣ هـ والمتوفى بالقاهرة سنة ١٣٧٧ هـ
رحمه الله تعالى

اعتنى به ابن أخيه
المحامي علي الرضا الحسيني

دار النوادر



ٱلطَّبْعَةُ ٱلأُولَىٰ
١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

ردمك : ٨ - ٧٤ - ٤١٨ - ٩٩٣٣ - ٩٧٨ : ISBN

9789933418748

دار النوادر

سورية - لبنان - الكويت

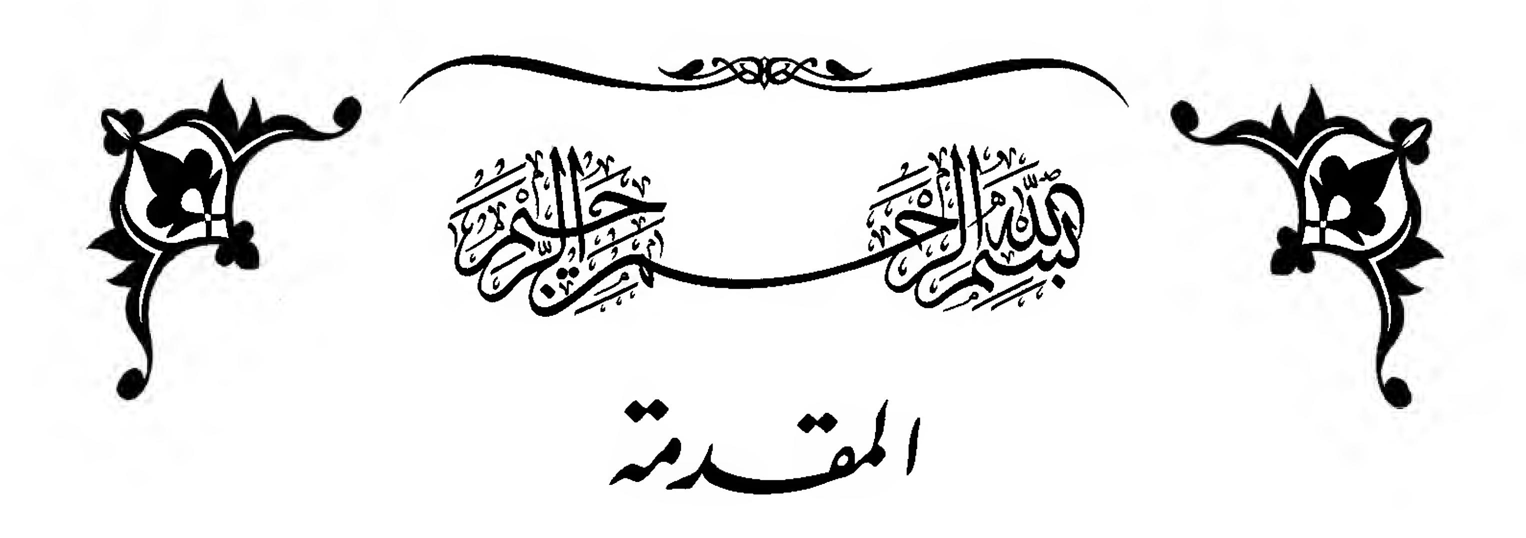
مُؤَسَّسَة دَارُ ٱلنَّوَادِر م. ف - سُورِيَة * شَرِكَة دَارُ ٱلنَّوَادِرِ ٱللُّبْنَانِيَّة ش. م. م - لُبْنَان * شَرِكَة دَارُ ٱلنَّوَادِرِ ٱلكُوَيْتِيَّة - ذ. م. م - ٱلكُوَيْت

سورية - دمشق - ص. ب : ٣٤٣٠٦ - هاتف : ٢٢٢٧٠٠١ - فاكس : ٢٢٢٧٠١١ (٠٠٩٦٣١١)

لبنان - بيروت - ص. ب : ١٤/٥١٨٠ - هاتف : ٦٥٢٥٢٨ - فاكس : ٦٥٢٥٢٩ (٠٠٩٦١١)

الكويت - حولي - ص. ب : ٣٢٠٤٦ - هاتف : ٢٢٦٣٠٢٢٣ - فاكس : ٢٢٦٣٠٢٢٧ (٠٠٩٦٥)

أَسَّسَهَا سَنَة : ٢٠٠٦م
نُورُ ٱلدِّين طَالِب
ٱلمُدِير ٱلعَام وَٱلرَّئِيس ٱلتَّنفِيذِي



المقدمة

لعل من أندر التراث الفكري الإسلامي للإمام الأكبر المرحوم محمد الخضر حسين، هو ما فاض به بحره في أول ميدان صال فيه وجال، ونعني به المجلة الإسلامية الكبرى «السعادة العظمى» التي كان لها شأن، وأي شأن في صدق الدعوة وإخلاصها لله سبحانه وتعالى.

وقد عثرت في صيف عام ١٩٧٢م عندما زرت تونس، ومن خلال بقايا مكتبة العم اللغوي المرحوم محمد المكي بن الحسين على مجموعة فريدة من كامل الأعداد التي صدرت من المجلة، وكان قد أعياني البحث عنها في مختلف المكتبات العربية ـ العامة منها والخاصة ـ سواء في دمشق أو بيروت أو القاهرة، ولكن دون جدوى حتى وقعت على هذه المجموعة النادرة، وإنها مشيئة الله أن يبقى هذا الأثر في حفظ حتى ينشر بين الناس، وأن لا يضيع هذا الجهد الإسلامي العظيم مع الأيام.

وثمـة مجموعـة من مجلة «السـعادة العظمى» طالعتها في دار الكتب الوطنية بتونس، غير أن أعدادها ناقصة.

وإني أرى من الواجب أن أشير إلى مجلة «السعادة العظمى» إشارات خاطفة؛ وفاء للشيخ أولاً، وللتاريخ من بعد، وإن هي إلا كلمة موجزة:

صدر العدد الأول من مجلة «السعادة العظمى» في ١٦ محرم من عام

١٣٢٢ هجري بِقطْع من الورق الجيد، مقياس ١٧ ـ ٢٤سم، وبعدد من الصفحات لا تتعدى ١٦ صفحـة، وقد جـاء تحت عنوان المجلـة ما يلـي: «مجلة علمية، أدبية، إسلامية تصدر في غرة كل شهر عربي، وفي سادس عشره».

ما إن صدرت المجلة حتى استقبلها أهل العلم والأدب بحفاوة تتناسب والمكانة العلمية المرموقة التي يتمتع بها صاحبها لدى كافة الأوساط الفكرية، سواء في العالم الإسلامي، أو في مكان صدورها تونس، وخاصة في جامع الزيتونة أكبر معهد إسلامي في المغرب العربي، وكيف لا يحتفل بها الزيتونيون؟ وصاحب المجلة طود من أطواد تلك القلعة الإسلامية الخالدة التي تخرَّج منها الثائرون على الاستعمار الفرنسي، والذين قادوا الحركات الاستقلالية في تونس والجزائر والمغرب.

ولا أدل على صـدق الصـورة التي خرجت فيها المجلة إلى النـور من التقاريض التي يطالعها القارئ في مقدمة هذا الكتاب، والتي أثبتناها بنصوصها الكاملة؛ حفاظاً على قيمتها الأدبية، ومن أهم التقاريض التي وردت إلى المجلة، ما بعث به العلامة القدوة الشيخ سيدي محمد المكي بن عزّوز ـ وهو خال الإمام ـ ومما جاء في التقريض قوله:

«وبالجملة فتلك مفخرة للخضراء[1] بين الممالك، ويفهم من آثار أهلها اعترافهم بذلك، وأبلغكم ـ لتحمدوا الله ـ أن كل من رآها هنا في الآستانة العلية أُعجب بها، وتحقق بمجموع ما احتـوت عليـه نموَّ العلم في تونـس ونشاط طالبيه، وأن سـوق التفنن بجامع الزيتونة معمور، وهذا مما يعم به

(١) تونس، ويقال تونس الخضراء.

في العالم الإسلامي السرور، والمظنون أن سيكون لها شأن يعتبره المشرقان والمغربان. . . ».

ولا أطيل الحديث عن التقريض، فهذا مما يطالعه القارئ في هذا الكتاب، كما لا أطيل الكلام على نهج المجلة وأبوابها، فإن مقدمة الإمام في هذا الأثر هي مقدمة مجلة «السعادة العظمى» بالنص الكامل، وإن دراسة المقدمة توضِّح سياسة المجلة في شتى العلوم والفنون، وأنها وزعت على أبواب، باب يشمل الافتتاح بمقالة تتخذ مظهراً تقتضيها المحافظة على حياة مجدنا القديم، وباب تعده معرضاً لعيون مباحث علمية، وباب للآداب، وباب رابع للأخلاق، وباب آخر للأسئلة والاقتراحات، ثم خاتمة في مسائل شتى.

ولئن قوبلت المجلة بالترحاب، وملأت فراغاً كبيراً في ميدان الثقافة الإسلامية في تونس، فإنها كانت وخزاً للمستعمر الفرنسي الذي دأب منذ صدورها على محاربتها، وملاحقة صاحبها، ومضايقته بشتى الطرق، حتى تم له إغلاقها ولم يمض عام على صدورها، وكان عددها الأخير يحمل عدد ٢١ غرة ذي القعدة ١٣٢٢هـ.

وقد حدثني سيدي الوالد الشيخ زين العابدين ـ رحمه الله ـ: أن العم الإمام كان يصدر المجلة من داره في العاصمة تونس «نهج رحبة الغنم»، وكانت داره منتدى إسلامياً كبيراً يؤمه رجال العلم والأدب من تونسيين وعرب، وهذا هو السبب الذي دفع الاستعمار الفرنسي للتضييق على الشيخ مما أدى به الأمر إلى مغادرة البلاد تحت وطأة الاضطهاد، يتابعه حكم بالإعدام يحول بينه وبين العودة إلى الوطن.

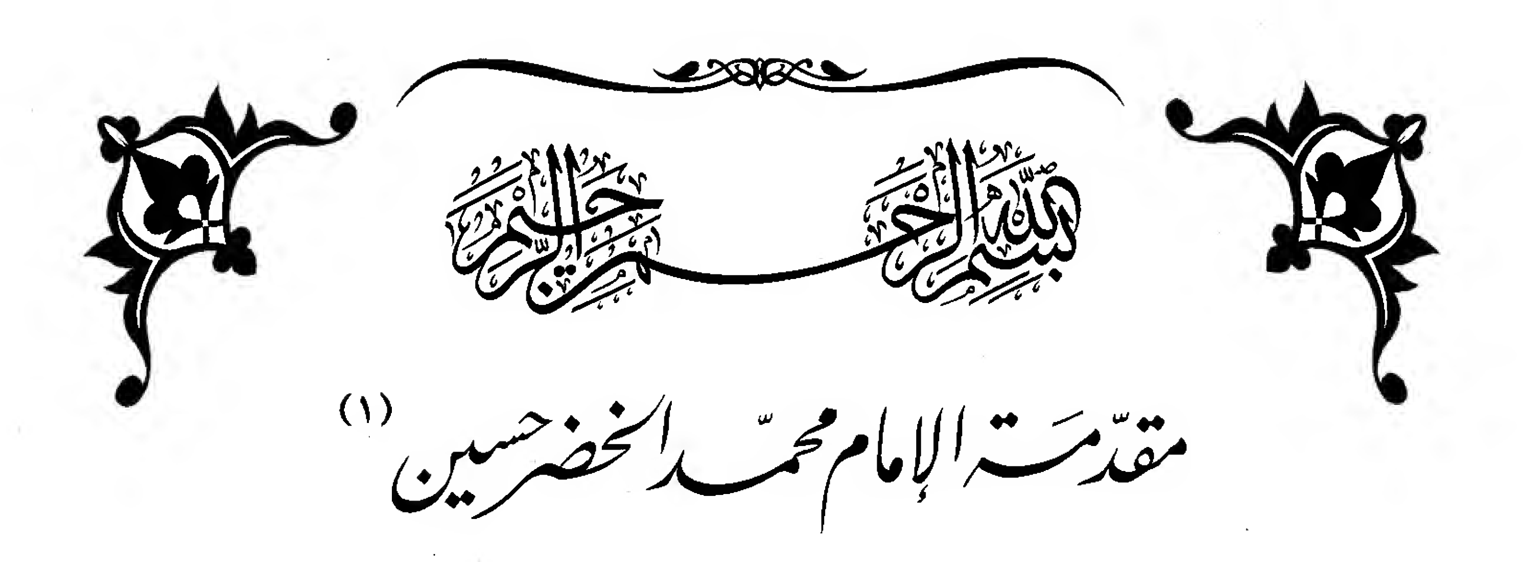
وقد عمدت عند تحقيق هذه المجلة، وإعداد مباحثها التي كتبها الإمام الأكبر فقط للطبع، إلى جعل مقدمة المجلة مقدمة لهذا الكتاب الذي له نفس اسم المجلة «السعادة العظمى»، ومن ثم أوردت التقاريض حسب تسلسل نشرها في مختلف الأعداد، ومن بعد يطالع القارئ آثار الإمام التي نشرها في المجلة، وقد رتبتها بثلاثة فصول: يضم الفصل الأول المباحث العلمية، والفصل الثاني المباحث الأدبية، وأخيراً الأسئلة والأجوبة[1].

والله سبحانه وتعالى نسأل السداد والتوفيق.

علي الرّضا الحسيني

❒ ❒ ❒

(١) ملاحظة: حذفنا من الكتاب المقالين: «النهضة للرحلة» و«الرحلة الجزائرية» لسبق نشرهما في كتاب «الرحلات» للإمام.



مقدمة الإمام محمد الخضر حسين[1]

نتحرى باسمك اللهم أسلوباً حكيماً، ونضع لعارضة اليراع قسطاطاً مستقيماً، ونستفتح خزائن النعم، ونستمنح لطائف الحكم، بحمد تنفث فيه الأفئدة روح الاخلاص، وتسلك بصيغته الألسنة مسلك الاختصاص، ونصلِّي على مبدأ عقد الرسل ومنتهاه، وواسطته الذي لم يتمخض الكون بمثل محيَّاه، وعلى آله وأصحابه، القابضين على سننه وآدابه، وننشر بيد الاستعطاف ألوية الرضا، على من له في فهم مقاصد الشريعة اليد البيضا، أما من انفرد بمضيق في بنيّات الطريق، فزاغ بالكلم عن مدلولها، وانتزع الفروع من غير أصولها، فإليك إيابه، وعليك حسابه.

أمّا بعد:

فإن العلم أساس ترفع عليه قواعد السعادة، ولا تنفتح كنوزه إلا بتدقيق النظر ممن تصدى للإفادة أو الاستفادة، وهاته مقدمة لا يؤود اللسان حفظها، ولا يكبر على صدف المسامع لفظها.

أما العقل الذي يقدر الأشياء حق قدرها، ويسير بمعيار التدبر والانصاف

(١) المقدمة التي افتتح بها الإمام مجلة «السعادة العظمى»، وقد استوفت جميع صفحات العددين الأول والثاني الصادرين بتاريخ ١٦ محرم ١٣٢٢ هـ.

بعد غورها، فلا ينسج إلا على منوالها، ولا يرسم حركاته إلا على أشكالها، وباستفراغ الوسع بالسعي وراء نتائجها العظام، دبَّر أبناء نشأتنا الأولى شؤون العالم بأبدع نظام، انفلق أمامهم صبح المعارف والهداية، فاستنقذوا من عماية الجهالة وظلمات الغواية، ونبذت مداركهم الوقوف مع الظواهر ظهرياً، ونشبت بلبابها فاقتطفته من أفنانه غضاً طرياً، ولم تستفزهم نزعات الكسل إلى البطالة والخمول، أو تجمد بهم عن التصرف فيما أضافه الشارع إلى المعقول، ولم تطرقهم ـ وهم الأشداء ـ نكبات الضعف، ولم يساموا وهم الأعزة بسوء الهوان والخسف، واستنكفوا من أن تكون ألسنتهم مركزاً للهذيان، واشمأزوا من أن تصبحَ سرائرهم مغمزاً لأصابع الشيطان، وما برحوا يعملون على هاته الشاكلة، متعاضدين على تأييدها بالاتحاد والمشاكلة، إلى أن استحوذ الفشل على بعض النفوس المستضعفة، وانخدعت بدسائس ما زيَّنه من الأباطيل وزَخرفه، ومدَّ يده «رماها الله بالشلل»؛ لنقض شيء من عرى ذلك الاستحكام وقد فعل.

ومن ثم أزمع أبناء النشأة الآخرة، علاج تلك العلة الفاقرة، ومما تنافسوا في اتخاذه ذريعة لنجاح الأمنية، وتسابقوا إلى انتضاء غاربه فكان أسرع مطية، تدوين المجلات والجرائد، وترصيع عقودها بنفائس الفرائد.

وكثيراً ما ترصدنا فترة من العوائق لمسايرتهم بتحرير مجلة علمية أدبية، توفية ببعض حقوق دينية، ولم تهب رياح القدر مسعفة بفصالها إلا في هذا الإبان، فخطرت بأمر مليكنا الأسمى، ومطلع السعادة العظمى، من أحيا بشباب ملكه مجدَ الأمة، ورفع سمك ترقيها بأكمل تبصر وأفخم همة، وانشرح به صدر الإسلام، وابتهجت بطالعه الأسعد ثغور الأيام، حضرة مولانا وسيدنا

«محمد الهادي باشا باي» أطال الله أمد حياته كما أطال له برود الإسعاد، وفاضت على يد تدبيره ينابيع الصلاح والسداد، ولا برحت حدائق آماله مثمرة، ورياض أنسه بأنجاله الأكرمين مزهرة.

ولنتجاوز إثر هذا إلى صوغ سبيكة، تتجلى في مرآتها الأغراض التي تناط بها إرادة هاته المجلة فنقول:

تفاتح مطالعيها بمقالة تتخذ مظهراً لبعض مطالب تقتضيها المحافظة على حياة مجدنا القديم، ويتلوها باب نعده معرضاً لعيون مباحث علمية، ولا نريد إلا انتظامها في أسلاك ما هو التحقيق بما يتخللها من الأفكار السامية، ويقفوهما باب ثالث تُنشر فيه من الآداب ما يكون مرقاة للتقدم في صناعتي الشعر والكتابة لا ليتمتع بها عند المسامرة، ثم ترفض كأضغاث أحلام، ونقصُّ في هذا الباب من التاريخ أحسن القصص، وإن في ذلك لعبرة لأولي الألباب، ويتصل بذلك باب رابع يبحث فيه عن الأخلاق كيف ينحرف مزاجها، وبماذا يستقيم اعوجاجها، ويندرج تحت عنوانه الاستشراف إلى العوائد من خلال الشريعة، ويليها باب آخر للأسئلة والاقتراحات، ثم خاتمة عنوانها مسائل شتى.

ولنعطف عنان القلم قبل نشوبه بأطراف المقاصد إلى الإفصاح عن ثلاث تلويحات، يزداد بها المنهج الذي نصرف إليه الوجهة اكتشافاً:

التلويح الأول: لا ينازع في شرف العلم إلا جاهل لم يضرب له مع أهله بسهم، ولكن ذلك الشرف لا يثبت له بشهادة الشارع إلا من جهة أنه يفيد عملاً مكلفاً به، وهذا منتزع من عدة مواضع من الشريعة، كالإعراض عن إجابة المسائل التي لا يتعلق بها تكليف، والنهي عن كثرة السؤال؛ لأنه

مظنة السؤال عما لا يفيد، وبهذا تقيد النصوص المطلقة الواردة في فضله، كقوله ﷺ: «من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً، سهل الله له طريقاً إلى الجنة».

وصرَّح بعض الكاتبين بأنه شريف لذاته، واستند في ذلك إلى أنه لذيذ في نفسه، إذ هو نوع من الاستيلاء على المعلوم، ومحبة الاستيلاء قد جُبلت عليها النفوس فيطلب لذاته، وهاته شبهة، والذي ينفض قتامها أن مجرد الاشتمال على اللذة لا يقتضي شرفاً من قبل أن تقام عليه شهادة من الشارع، وكأين من لذة تقع من الإنسان موقع الطيبات، والأحكام الشرعية تريه أنها من أفرد الخبائث، كالزنا وشرب الخمر وسائر وجوه الفسوق والمعاصي، ولا ينتقض ما عقدناه بأنَّا نجد من العلوم ما هو فضيلة مثاب عليها، كالعلم ببعض الأحكام التي لم يحدث في الخارج ما تنطبق عليه، لأنه مظنة الانتفاع عندما يوجد محله.

ويتفرع من هذا الأصل أن الخوض في المسائل التي لا يستنتج منها فائدة أو يستعان بها على ذلك الاستنتاج، ضرب من اللاغية وتعطيل للوقت النفيس من حلية الأعمال النافعة، ويلتحق بها في السقوط عن درجة الاعتبار الخلافات التي لا تنشق عن ثمرة، كاختلاف الأصوليين في مسألة هل كان عليه الصلاة والسلام قبل النبوءة متعبداً بشرع أم لا؟ ومسألة الإباحة هل هي تكليف أم لا؟ ومسألة أمر المعدوم، وكاختلاف أهل العربية في مسألة اللهم، ومسألة أشياء، ومسألة اشتقاق الفعل من المصدر وغير ذلك.

ويجتنى من هذا الفرع أن هاته المجلة لا تنثر من كنانتها إلا ما يشمله نظر الشارع بعنايته.

ومن ههنا نتخلص بطريق وجيز إلى خلاصة العلوم التي تنطق هاته الصحائف ببدائها، وهو **التلويح الثاني**:

تتنوع هاته العلوم إلى نوعين:

الأول: ما دونه أهل الإسلام، وهو إما لبيان ألفاظ القرآن فعلم التفسير، أو ألفاظ السنّة فعلم الحديث، أو لإثبات ما يستفاد منها وهو: إما عن الأحكام الأصلية الاعتقادية فعلم الكلام، أو عن أحوال النفس فعلم الأخلاق، أو عن الأحكام الفرعية فعلم الفقه. ثم لا بد في استنباط هذه الأحكام من أصولها من وجه قانوني يفيد العلم بكيفية هذا الاستنباط وهو أصول الفقه، أو ما دوّن لمدخليته في استخراج تلك المعاني من الكتاب والسنّة وهو علم الأدب، وينقسم على ما صرح به الأئمة إلى اثنى عشر علماً، منها أصول ومنها فروع، أما الأصول فالبحث فيها إما عن المفردات من حيث جواهرها وموادها وهو علم متن اللغة، أو من حيث صور هيئاتها وهو الصرف، أو من حيث انتساب بعضها إلى بعض بالأصالة والفرعية وهو علم الاشتقاق، وإما عن المركبات على الإطلاق فإما باعتبار هيئاتها التركيبية وتأديتها لمعانيها الأصلية وهو النحو، أو باعتبار إفادتها معاني متغايرة الأصل وهو علم المعاني، أو باعتبار كيفية تلك الإفادة في مراتب الوضوح فعلم البيان، وإما عن المركبات الموزونة، فإما من حيث وزنها فعلم العروض، أو من حيث أواخر بقيتها فعلم القوافي، وأما الفروع فالبحث فيها إما أن يتعلق بنقوش الكتابة وهو علم الخط، أو يختص بالمنظوم وهو العلم المسمى بقرض الشعر، أو بالمنثور وهو علم الإنشاء النثري من الرسائل والخطب، أو لا يختص بشيء منها وهو علم التاريخ والمحاضرات، وأما البديع فقد

جعلوه ذيلاً لعلم البلاغة.

النوع الثاني: ما دوّنه الفلاسفة كعلم المنطق والهندسة والعدد والطبيعة والطب والهيئة.

ولنلمع بعد أن انضبطت هاته العلوم بوجه إجمالي إلى استطلاعات يتطرق بها إلى أبوابها، وهي **التلويح الثالث**:

ـ الاستطلاع الأول:

لما استيقن الصحابة أن فهم القرآن مرتقى صعب لا يتسنمه كل نظر، انتهضوا يفتتحون باب تفسيره وتأويله، والعلماء بعدهم على آثارهم مقتدون؛ رعاية لجانب من لا يهتدي إلى ذلك سبيلا، أما من تبحر في أصول الشريعة وفروعها، وبرع في الصناعة العربية بأنواعها، وتوفر له بذلك وجدان يدرك به كنه الإعجاز، فما كان ينبغي له الإقامة تحت قيد الحجر عالة على غيره، وروي عن ابن عباس أنه قال: «إن في القرآن علماً لا يسع أحداً جهله، علماً تعرفه العرب، وعلماً تعرفه العلماء، وعلماً لا يعرفه إلا الله».

وهذا تقسيم للقرآن بحسب انقسام الناس فيه، فمنهم المقصر الذي لا يعلم إلا البيِّن، ومنهم الفصيح الذي لا يخفى عليه قصد المتكلم من تفسير الألفاظ ومقاطع الكلام، فيختص بمعاني خفية دون الأول:

ولكنْ تأخذ الأفهامُ منه على حسب القرائح والفهومِ

وحديث «من تكلم في القرآن بغير علم فقد أخطأ وإن أصاب»، معناه صحيح، وإن لم يصح سنده، وذلك بتخريجه على من تكلم في المشكل وهو لا يجد إليه سبيلاً مما يرجع إليه في تفسير ألفاظه.

ويشترط لفهمه أن يكون مطابقاً لما تقتضيه قوانين اللغة العربية انطباقاً محكماً لورود القرآن على أساليبها، بحيث لا يقتبس من مشكاة أنواره إلا ما يفهمه بلغاء العرب الذين نزل في عصرهم، ولا يكن في صدرك حرج من أن الصحابة كانوا على علو كعبهم في الفصاحة، وذلك كثيراً ما يرجعون إليه عليه الصلاة والسلام بالسؤال عن أشياء لم تصل إليها أفهامهم، بل ربما التبس عليهم الحال ففهموا غير المراد، كما وقع لبعضهم في الخيط الأبيض والأسود، لأن عدم توصلهم لفهم تلك الآيات، لم يكن ناشئاً عن استعمالها في غير المعاني المعهودة عندهم، أو على غير النمط المتداول بينهم، وإنما منشؤه الإبهام أو العموم أو الإطلاق، وهاته الطرق يرتكبها فصحاء العرب، فتحتاج إلى بيان أو تخصيص أو تقييد، وأما الاشتباه الذي وقع لعدي بن حاتم فلعدم اهتدائه لقرينة ذلك المجاز، يشهد لذلك ما أجابه به عليه الصلاة والسلام.

وقد انجر الغلو ببعضهم في تفهم قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾[الأنعام: ٣٨] ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾[النحل: ٨٩]، فأضافوا إليه كل علم للمتقدمين أو المتأخرين، حتى أهل المعمى والألغاز لم يتركوا حظهم، فقالوا في قوله تعالى: ﴿وَمَا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذٌۢ بِنَاصِيَتِهَآ﴾[هود: ٥٦] ما يمجه السمع ويتبرأ منه العقل، سبحانك هذا بهتان عظيم.

والمراد بالشيء في الآيتين على ما قاله المحققون، ما يتعلق بحال التكليف، وحمل الكتاب في الآية الأولى على اللوح المحفوظ وما هو من سياق الآية ببعيد.

وإذا تحقق هذا الأصل الأصيل، فإنا نجعله مركزاً لدائرة هذا الفن،

فلا نتقدم للخوض في عبابه إلا بعد الاعتصام به.

ـ الاستطلاع الثاني:

كان للسابقين الأولين توفر رغبة في رواية حديثه عليه الصلاة والسلام، حتى كان أحدهم لشدة اعتنائه بذلك يقطع المراحل الشاسعة، ويجوز المفاوز المتسعة، غير مكترث مما يتجشمه من العناء في طلب حديث واحد يسمعه من روايه:

وكنتُ إذا ما جئتُ سـعدى أزورهـا　　　أرى الأرض تُطوى لي ويدنو بعيدها

ولما قلَّ الضبط والتحـري من الرواة «وما آفـة الأخبـار إلا رواتهـا» اشـتدت الحاجة إلى تدوينه محافظة على ما فيه منافـع للناس، من أهمها تبيينه لهم ما أنزل إليهم، واختلف أول ما صنف في الإسلام، قيل: «كتاب ابن جريج»، وقيل: «موطأ مالك بن أنس»، وقيل: إنّ أول من صنف وبوَّب، الربيع بن صبيح بالبصرة.

ومن أهل هذا الشأن من قصر همته على تدوين الحديث مطلقاً؛ ليحفظ لفظه، ويفهم معناه، كما فعل «عبدالله بن موسى الضبي» وغيره، ومنهم من أثبت الأحاديث من مسانيد رواتها، فيذكر مسند أبي بكر الصديق ﷺ ويثبت فيه كل ما رووه عنه، ثم يذكر الصحابة واحداً بعد واحد على هذا النسق، وهاته طريق «أحمد بن حنبل» وجماعة اقتفوا أثره في ذلك، ومنهم من يثبت الأحاديث في الأماكن التي هي دليل عليها، فيضعون لكل حديث باباً يختص به، فإن كان في معنى الصلاة ذكروه في باب الصلاة، وإن كان في معنى الزكـاة ذكروه فيها، كما فعـل «مالك بن أنـس» في «الموطأ» ثم اقتـدى من بعده.

ـ الاستطلاع الثالث:

كانت العقائد في صدر الإسلام متمكنة تمكناً لا تزلزله الشبهات، كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء، إلى أن خرجت طائفة من المبتدعة الضالين يبتغون الفتنة باتباع المتشابهات، وقام في وجوههم العلماء الراسخون يعلمونهم تأويلها، وكلما أوقدوا ناراً للفتنة أطفؤوها بأفواه الحجج القاطعة، ولما لم ينقطع ما في قلوبهم من الزيغ الذي هو مثار تلك الفتن، دوَّن أولئك العلماء علماً يُقتدر به على إثبات العقائد، وهاته العقائد يجب أن تؤخذ من الشرع ليُعتد بها.

ومما يوجد في طوالع الكتب المؤلفة في هذا الفن، أنَّ أرفع العلوم الدينية ورئيسها علم الكلام، ووجهه أن المفسّر إنما يبحث عن معنى كلام الله تعالى، وذلك فرع على وجود الصانع المختار المتكلم، وأما المحدِّث فإنما يبحث عن كلام رسول الله وذلك فرع التوحيد والنبوة، إلا أنه مرؤوس لعلم التفسير من جهة أخرى، وهو ما أشرنا إليه من أن تلك العقائد لا يُعتد بها إلا إذا أخذت من الشرع الذي أصله الكتاب، وعلى هذا صنيع القاضي البيضاوي حيث قال: «علم التفسير رئيس العلوم الدينية ورأسها».

ـ الاستطلاع الرابع:

كانت العرب على جانب من التعلق بمكارم الأخلاق، ولعقلائهم عناية كبرى بالشجاعة والوفاء بالعهد والكرم، ومن طالع أشعارهم الحماسية، وتردد في بيوتها ينخل من معظمها إلى هاته الأوصاف الثلاثة، إلا أنهم أُشربوا في قلوبهم غِلظة وفي ألسنتهم فظاظة، وكلٌ يسعى وراء داعية هواه، ولذلك كانت الحروب بينهم ناشبة أظفارها، حاملة على الدوام والاستمرار أوزارها، ولما

تنفس صبح الشريعة المحمدية، أخذت تنزع من نفوسهم ما استغلظ فيها من الرذائل، وتطبع فيها ما تتحلى به من الفضائل، وذلك أول ما خوطبوا به، وأكثر ما تجده في السور المكية، كقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾[النحل: ٩٠] الآية. وقوله: ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ۖ أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾[الأنعام: ١٥١]. وقوله: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَـٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ﴾[الأعراف: ٣٢]. وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾[الأعراف: ٣٣] إلى غير ذلك من الآيات، وابتدئت المخاطبة في هذا النوع بما كان مألوفاً عندهم قريباً لعقولهم، حتى تمكنوا منه ورسخوا فيه، ثم خاطبهم بما كانوا يظنونه صلاحاً ولا يُعقل معناه من أول وهلة، كتحريم الخمر والميسر والربا وهو من آخر ما حُرِّم، والحكمة الغرّاء في ابتداهم بهذا النوع، إيناسهم بما يعهدونه في الجملة ويتمدحون به وهو من بديع السياسة، ولأن الأعمال الصالحة لا تقام إلا على تزكية النفس وطهارتها، يحقق لنا هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلْبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ﴾[الأعراف: ٥٨]، كما أن أضدادها لا تصدر إلا عن خبث ضربت عليه السريرة ﴿وَٱلَّذِى خَبُثَ لَا يَخْرُجُ إِلَّا نَكِدًا﴾[الأعراف: ٥٨].

وإذا كان في الأنابيب حيف وقع الطيش في صدور الصعاد

وإذا نظر الإنسان نظرة أخرى، يجد ملاك الفضائل كلها إنما هو إشراق العقل، ويقع التفاوت فيها بحسب ذلك قوة وضعفاً، والذي يستوقده التعليم ينبئنا على هذا تقديمه على التزكية في قوله تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾[البقرة: ١٢٩]، ومن أعار هذا الموضوع نظرة ثالثة استقبل منه

ما استدبر على غيره، وهو أن الأخلاق ليست كلها طبيعية، ولو كانت كذلك لرُفضت السياسـات، وتُرك الناس همجاً، ولتُـرك الأحـداث والصبيان إلى ما تُلقيهم إليه قذفات الصدفة، ولعلنا نزيد هذا المبحث بسطة فيما يستقبل، والنظر إلى هذا المطلب من خلال الشـريعة أقرب للإصـابة لأنها مما أتقنت صنعه، وأحكمت بيانه.

ـ الاستطلاع الخامس:

القصد من التشريع إقامة المصالح الأخروية والدنيوية على وجه يستقيم به نظامها، وهذا يستدعي إرشاد المكلفين إلى حكم كل ما عسى أن يُعرض لهم من الوقائع، ومن ثم أخذت الشريعة بالاحتياط الكافي لتعميم الأحكام، فنصت على بعض الجزئيات؛ ليقاس عليها ما يشـاركها في علل أحكامها، وأفصحت عن كليات يدخل تحت ظلها سـائر ما لم يُفصَّل حكمه تفصيلاً، ولوَّحت بذلك إلى أنظار المجتهدين، فبذلوا أقصى ما عندهم من الاستطاعة في استخراج الفروع من أدلتها، وأفردوها بالتدوين، وعلقوا عليها اسم الفقه؛ ليسهل تناولها على من لم يصل إلى درجة الاجتهاد، أما من استكمل شروطه المقررة في الأصول، فلا يسوغ له المقام في حوزة التقليد، ودعوى أن باب الاجتهاد مغلق لا تُسمع إلا بدليل ينسخ الأدلة التي انفتح بها أولاً.

ـ الاستطلاع السادس:

بعد أن قضى العلماء حق الاسـتدلال عن الأحكـام الفرعيـة بأدلتهـا، الكتاب، والسـنّة، والإجماع، والقياس، استأنفوا الالتفات إلى كيفية ذلك الاسـتدلال، فانكشـفت قضايا كلية تتعلق بكيفيـة الاسـتدلال، فدوّنوها وأضافوا إليه من اللواحق وسـمّوا العلم المتعلق بها أصول الفقه، وأول من

صنف فيه الامام الشافعي.

ـ الاستطلاع السابع:

من العلل التي طرأت على الألفاظ العربية استعمالها في غير ما وضعت، وهو من أتعس الذرائع للجهل بالقرآن والحديث، ولما انتبه لذلك عظماء الإسلام صرفوا هممهم في استيعاب الموضوعات اللغوية، وواصلوا فيها الدواوين، وهي موضوعة على أسلوبين، لأن من الناس من يذهب من جانب اللفظ إلى المعنى بأن يسمع لفظاً ويطلب معناه، ومنهم من يذهب من جانب المعنى إلى اللفظ، ولكل من الطريقين وضعوا كتباً ليصل كل إلى مبتغاه، فمن وضع بالاعتبار الأول فطريقه ترتيب حروف التهجي، إما باعتبار أواخرها أبواباً وأوائلها فصولاً، كما اختاره «الجوهري في الصحاح»، و«مجد الدين في القاموس»، وإما بالعكس، كما اختاره «ابن فارس في المجمل»، ومن وضع بالاعتبار الثاني فطريقه أن يجمع الأجناس بحسب المعاني، ويجعل لكل جنس باباً، كما اختاره «الزمخشري في قسم الأسماء من مقدمة الأدب».

وقد اطلع أرباب هاته الصناعة على مأخذ عزيز، وهو أنهم وجدوا بعض الألفاظ عامة باعتبار وضعها خاصة بحسب استعمالها، ومعرفة الوضع في هذا النوع غير كافية، بل لا بدَّ من العلم بموارد الاستعمال، فتتبعوا ما كان من الألفاظ بهاته المثابة وأفردوها بالتدوين، وهو المسمّى «بفقه اللغة»، وهو من أكد ما يحيط به الكاتب والشاعر خبراً كي لا يُحرِّف الكلم عن مواضع استعماله.

ـ الاستطلاع الثامن:

كانت اللغة العربية في صدر الإسلام آخذة من الاعتدال والاستقامة

هيئتها الأولى، وفي آخر عهد الصحابة ألمَّ بمزاجها بعض انحراف نشأ من دورانها على ألسنة لم تتعودها منذ النشأة، فأوجسوا خيفة من سريان تلك العلة إلى جميع الألسنة، فتجتث اللغة من أصولها، وتنغلق عند ذلك أبواب فهم الكتاب والسّنة، فدونوا علم النحو، ولهذا السبب نفسه دونوا علم الصرف أيضاً، وما روي من قول سيدنا عثمان أن في القرآن لحناً وستقيّمه العرب بألسنتها فغير ثابت نقلاً، ومستحيل عقلاً وشرعاً، والدليل على ما نقوله أن الاشتمال على اللحن إن ادعي أنه ثابت للقرآن حال نزوله، طعن في نحر هذه الدعوى قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾[يوسف: ٢]، وإن ادعي أن بعض القارئين لم يتله حق تلاوته، رد بأن الصحابة لا يقع منهم اللحن في الكلام فضلاً عن القرآن، وعلى فرض وقوعه فكيف يُظن بعثمان عدم تغييره؟ وكيف يتركه لتقيّمه العرب؟ وأصل الرواية لمَّا فرغ من المصحف أتى به عثمان فنظر فيه فقال: «أحسنتم وأجملتم، أرى شيئاً سنقيّمه بألسنتنا»، وهذا لا إشكال فيه لأنه عُرض عليه عقب الفراغ من كتابته فرأى في رسمه ما لا ينطبق على التلفظ به.

ـ الاستطلاع التاسع:

لما تحصحص بالبرهان الفصل أن القرآن معجز، أخذ العلماء يتفحصون الجهة التي وقع بها الاعجاز، والذي تخلص للجمهور أن عجز العرب عن معارضته لبلوغه الغاية القصوى في البلاغة، وحيث كان الكشف عن ماهيتها وتلخيص فروعها من أصولها لا يهتدي إليه كل عارف بأوضاع اللغة، أنشأت طائفة من ذوي الفِطَر السليمة تدقق النظر في كل كلام توسمت فيه أمارات البلاغة، حتى استثارت بذلك دقائق عجيبة ولطائف بديعة، انتظمت منها

أصول يُدرك العارف بها أن الكتاب العزيز له السابقية في هاته الحلبة، وصارت بهاته الجهة من العلوم الدينية، واشتغل بها طائفة من أهل هذا الشأن، وأولهم: «الشيخ عبد القاهر»، وبحسب اختلاف جهات البحث رتبوها على ثلاثة فنون:

فن يبحث عن المركَّبات من حيث تختلف صورها لاختلاف الأغراض منها، وسمّوه فن المعاني، وفن يبحث عن الألفاظ من حيث كونها مستعملة في معانيها التي وضعت لها، أو فيما يناسبها اعتماداً على المناسبات، وسموه فن البيان، وفن يبحث عن أحوال تُعرض للكلام فتكسبه حسناً، وسموه البديع، ولغموض مسائل العلمين الأولين، عظمت العناية بهما عندنا بالحاضرة دون الفن الثالث؛ لسهولة مأخذه، عكس ما كان عليه أهل المغرب لعهد «ابن خلدون».

ـ الاستطلاع العاشر:

ينقسم الكلام العربي إلى نوعين:

الأول النثر: وهو ضربان: سجع وهو الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، ولا يستحسن إيراده في مثل المخاطبات الإدارية والتحريرات العلمية إلا إذا أرسلته المَلَكة إرسالاً من غير تعسف، ومُرسَل وهو ما يطلق فيه الكلام إطلاقاً من غير تقييد بقافية. والعلم بصياغة هذين الضربين يسمّى بفن الكتابة وصناعة الإنشاء، ومما ينبهنا على شرفها، ما ناله أهلها من الرفعة ونباهة الذكر، «كالربيع والفضل ابنه»، و«بني برمك يحيى وابناه الفضل وجعفر»، و«بني الفرات» وغيرهم في الدولة العباسية، والأستاذ «ابن العميد»، و«الصاحب بن عباد»، وغيرهما في سلطنة بني بويه،

و«عبد الرحيم المشهور بالقاضي الفاضل»، و«العماد الأصبهاني» في سلطنة بني أيوب، و«ابن زيدون ولسان الدين بالمغرب»، و«عبد الحميد بن يحيى» كاتب مروان آخر ملوك دولة بني أمية، إلا أنه أطال النفس في الكلام، وزاد في المقاصد زيادة يخرج الكلام عن حد الإفادة، بحيث إذا ورد الكتاب على مأمور ينفذه، قال لكاتبه: «خذ هذا الكتاب واقرأه، وتأمل ما فيه، واستخرج لي غرضه»، فيتعب الكاتب في ذلك حتى يلخص عبارة وجيزة تتضمن المقصود، وتكون هي روح الكتاب، ويكون الباقي بمنزلة اللغو، وينقل عن «جعفر بن يحيى» أنه كان يقول لكتّابه: «إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا»، والتوقيع هو ما يكتبه الكاتب عن السلطان فمن دونه من أولي الأمر في أواخر الكتاب مما يريد المكتوب عنه إجراءه، ويكون ذلك بعبارات مختصرة، وافية بالغرض، متمكنة في باب البلاغة، وكان الناس يطلبون توقيعات «جعفر بن يحيى»، حتى قيل: «إن الورقة من كتبه ربما اشتريت بدينار».

ـ الاستطلاع الحادي عشر:

النوع الثاني الشعر، وهو كلام مفصل قِطَعاً متساوية في الوزن، متحدة في الحرف الأخير، وله مباحث شتى، وليس من الغرض الآن الانطلاق إليها، فإن ظلها لغرة هذه المجلة غير ظليل، وخلاصة ما نقوله الآن: إن دراسة شعر العرب يُتَذرع بها إلى فهم نظم القرآن وأقوال النبي عليه الصلاة والسلام، فعدُّها من الدين ضربة لازب، وأما إنشاؤه فمع إحكام وضعه وانتفاء مواده التي يجب نحته منها فحلية للعلماء وزينة للأدباء، ومن تعاطاه لفضيلته لم يوحشه كساده.

ـ الاستطلاع الثاني عشر:

لما انتهت الخلافة إلى بني العباس، كان أول من عُني منهم بالعلوم «الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور»، فبعث إلى ملك الروم أن يبعث إليه بكتب التعليم مترجمة، فبعث إليه بكتاب إقليدس وبعض كتب الطبيعيات، ولما أفضت الخلافة إلى السابع «عبدالله المأمون»، تمم ما بدأ به جدُّه، فداخل ملوك الروم وسألهم وصله ما لديهم من كتب الفلاسفة، فأرسلوا إليه ما حضرهم من كتب «أفلاطون» و«أرسطو» و«بقراط» و«جليانوس» و«إقليدس» و«بطليموس» وغيرهم، وأحضر مهرة المترجمين فترجموا له على غاية ما أمكن، ثم كلف الناس قراءتها ابتغاء الانتفاع بها من حيث العلم والعمل.

ومن فروعها علم الطبيعة والمنطق والهيئة والطب والهندسة والعدد، ولقد بالغ بعض المفسرين في نسبته الجهل للعرب بهذا العلم الأخير، حتى ذكره نكتة للتصريح بالعشرة في قوله تعالى: ﴿تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ﴾[البقرة: ١٩٦]، وسنأتي على ما يخص هاته العلوم الفلسفية في فصل يستقل بها، نتصدى فيه لبيان فوائدها مع تحرير المقدار الذي يجب الانتهاء إليه. هذا ونقدم لحضرة كل عالم نحرير، أو ألمعي مهذب، أو أديب بارع، ممن كتب على نفسه مراقبة أحوال جنسه العمومية، أن هاته المجلة مستعدة لقبول كل ما يرد عليها من الرسائل المنقحة، التي تنطبق على المنهج الذي كنا بصدد تسويته، ولا أخاله إلا صراطاً سوياً، ونؤمِّل من عواطف هؤلاء الفضلاء، أن ينظروا إلى ما تنطوي عليه صحائف هاته المجلة كيفما صدرت نظر بحث وانتقاد، وإن عثروا على نوع ما من الخلل جاهرونا به، ولا نتلقاه إلا بفساحة الصدر وغاية الارتياح،

بل ربما استدللنا بذلك على نجاح المسعى، ومن انسدت أمامه طرق الاذعان إلى الحق عميت عليه أنباء التحقيق.

*** استدراك:**

من مقاصد هاته المجلة التعرض لما تتداوله الألسنة وتتناقله الأقلام من الأحاديث الموضوعة، قال أبو بكر بن العربي: «إن ناقلها عن غير ثقة من غير أن يبين وضعها، يشمله وعيد قوله عليه الصلاة والسلام: «من كذَّب عليَّ. . .» الحديث. وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

محمد الخضر حسين

١٦ محرم ١٣٢٢هـ





التّقاريض

العلامة الشيخ محمد النخلي ـ العالم الشيخ عبد العزيز المسعودي ـ العلامة المحقق الشيخ محمد الطاهر بن عاشور ـ العلامة الشيخ محمد الصادق المحرزي ـ العالم محمد الحشايشي الشريف ـ الأديب السيد محمد الكامل ابن عزّوز ـ العالم الشيخ إدريس بن محفوظ الشريف ـ الأديب صالح سويسي ـ الشيخ محمد شاكر ـ العالم الشيخ محمد العروسي السهيلي الشريف ـ العلامة الشيخ محمد بن سالم الأكودي ـ العالم الشيخ علي بن رمضان ـ العالم الشيخ علي السنوسي ـ السيد محسن زكرياء ـ السيد محمد العزيز الشيخ ـ الشيخ الأمين بوعلاّق ـ الأديب السيد محمد المذكور بن الصادق ـ الأديب الشيخ العربي الكبّادي ـ العالم الشيخ محمد بن مصطفى زروق ـ السيد محمد الطاهر بودربالة ـ العلامة القدوة الشيخ محمد المكي بن عزّوز ـ الشيخ عبد الحفيظ القاري ـ الشيخ صالح صفر ـ السيد أحمد بن سليمان.

ـ منها ما صاغه العلامة، الفهامة، الماجد، الشيخ السيد محمد النخلي، أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

أيها الفاضل البارع، النازع بهمته السامية إلى أرقى المنازع، بعد تحية

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

يعبق من نشرها الورد، بما انطوى في ردنها من الود، فقد جاءتني ونعم المجيء، جاءت سعادتكم العظمى، التي هي سعادتنا العظمى، وما شاء الله فقد رميت وأبعدت المرمى، سبحان الله ما أسبك ذلك التحرير، وما أبرع ذلك التقرير، فقد وجب أن يكتب بالنضير، على ورق الحرير، وقصارى ما أقول، كثَّر الله من أمثال حضرتك، وأبدر هلال مجلتك:

مجلتكم جلَّت وأسعدها السعدُ ... وحازتْ فخار العلم والشاهد النقد

ومنيتنا القصوى ابتدار هلالها ... إلى قنة الإبدار كي يكمل القصد

إذا شرَّف الموضوع مقصد عاقل ... فذي بعلوم الدين تشريفها يبدو

وخاتمة الدعوى نجاح مقاصد ... لفاتحة الأعمال يا أيها الود

ـ ومنها ما جادت به قريحة العالم الأبرع، الماجد الشيخ السيد عبد العزيز المسعودي، أحد الكتبة بالوزارة الكبرى، ونصه[1]:

الصديق الأعز منشىء «السعادة العظمى» الشيخ السيد محمد الخضر ابن الحسين.

سنا بارق الإقبال في أفق القطر ... يعنون عن معنى كمال ذوي العصرِ

ولستَ ترى غير الصحائف آية ... تُقام على صدق المقال لذي فكر

ولا سيما إن شخصت في مسارح ... من القول تحقيقاً يبين لمن يدري

تشير لأسباب التقدم في الورى ... وتبعث روح الفخر في الرجل الحرِّ

وتضرب في الإبداع ما إن تنوعت ... وفي كل ما تبديه مُستجلِب الشكر

---

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢ .

فـإنْ رفـع الأسـتار فيهـا ممثِـلٌ ... لشيء من الأخبار كنتَ على خبـر
وإن ذُكـرت فيهـا التـراجم ربمـا ... رأيتَ وجوه القوم تبدو من السطر
وخُيِّلتَ أن اللفـظ ينطـق بعـد مـا ... فنى موجد الإفصاح وهو من النشر
وإن جاب ميـدان الفنـون مـديرها ... وقام بذكر العلم حدِّث عن البحـر
وأنـت أيـا منـشي الـسعادة بيننـا ... ويا رائد الإسعاد والنجح والظفـر
دريـتَ دواء الجهـل غـبَّ تبـصر ... فجئتَ به للقوم فـي مظهـر الـذكر
وخبرتَ ماهم والنصيحة إن جرت ... وحالهم في العلم والذوق والفكر
فـأبرزتَ مـرآة الـصحيفة هاديـاً ... ليرقى مريدُ الخير في مرتقى الفخر
فللـه أنـتَ مـن علـيم سَـمَيْدَعٍ ... ولله أنـتَ مـن أديـب ومـن حـرٍّ
ولا فُضَّ فو تلك المجلة بعـد مـا ... تبسم عن مثـل العقـود مـن الـدر
ولا زال منـشيها العزيـز مؤيـداً ... يقابَـل بالإقبـال مـع سـعة العمـر

ـ ومنها ما حرره العلامة المحقق، صفوة الخير، الشيخ السيد محمد الطاهر ابن عاشور، أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم[1]:

إلى العلامة النحرير، صديقي السيد منشيء مجلة «السعادة العظمى» أيده الله تعالى، سلام وتحية وإجلال، كما يليق بذي قلم سعى بصريره في تقويم الأمة، وتأييد شرعة الحق، وأطلع لأهل لغتنا العربية شمساً طالما حجبها دونهم سحاب مركوم، وأعقب نهارها ليل عطَّل سماءه أفول البدر وإدبار النجوم.

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

أما بعد:

ما سكنت هواجسي، ولا اختلف إدراكي، بأن كنه حياة الأمم ونفثة روح استفاقتها من سنة الجهالة وفساد الأخلاق، ليس غير بث الفضيلة وإيقاظ العيون إلى الواجبات والحاجات الأولية بعد حيرتها في ظلمات الشبهات التي غشيت أبصارها، وخيلت لها جميع ما يحيط بمركزها مهاوي تتوقع السقوط إلى قعرها، فلا ريبة أنها إن أشرقت عليها أنوار التيقظ أضاءت لها الأرجاء، فتقدمت نحو غايتها بخطى واسعة فما وصولها إليها بعد بعزيز.

أما إن ذهبتُ أفكر كيف يكون إيصال هذا المعنى إلى أمة كاملة، وأي لسان يُسمعها إن ناداها، وهي تملأ من الكون فضاء رحباً، وتختلف في الشرب الخلاف الذي صيَّر جميعها صعباً، فإني لا أجيد خليقاً بذلك غير لسانين: لسان التعليم (وإنه للسان حكيم)، لكنه يشتمل على عقدة ربما لا تجعله نافعاً في ذكرى الذاهلين وعظة المسرفين، ولسان النشرات العلمية التهذيبية تموج صدى صوته تجاويف حروف الطبع، فيخترق آذاناً طالما تصاممت عن عظة الواعظين، ويبلغ إلى قلوب غرق بها منام الحالمين، فلا تسل بعد عنها، وقد أشرقت عليها أنوار المعارف، كيف تنهض إلى سماء حقائق الأشياء فتصافح أفلاكها، فإن عجزت عن إدارتها لا تعدم نقد حركاتها.

ثم ما زلت راجياً أن أرى منّا ناهضاً يحيي لهاته الأمة فخاراً، ويقول لأهلها: ﴿ٱمۡكُثُوٓاْ إِنِّيٓ ءَانَسۡتُ نَارٗا﴾[القصص: ٢٩]، فهذا رجائي قد أسفر عن مجلتكم العظمى، وعسى أن يقارنها من تعضيد المؤازرين ما تحقق به الآمال،

وسيكون إن شاء الله من اسمها للأمة أصدق فال. لكنك ستجد في صنيعك هذا ألسناً شاجرة، وصدوراً ثائرة، وعيوناً متغامزة، كما وجد الناهضون من قبلك، فإن استطعت أن لا تزيدك أراجيفهم إلا معرفة بكبر نفسك، وتصميماً على غاية فكرك، ولهواً عن قولهم، فإنهم حاسدون، ويأساً من نصرتهم فأولئك هم الخاذلون، ولتكن استعانتك وتوكلك على من كفل الهداية إلى الصراط المستقيم، فسيكفيهم الله وهو السميع العليم، وإليك تحية صديق مخلص، ونصير مؤازر.

ـ ومنها ما أنشأه العلامة الدرّاكة، الماجد، الشيخ السيد محمد الصادق المحرزي، أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

يـــا صـــاحب القلـــم الـــذي	فَــصْلُ الخطــاب غــدا مــداده
وافتنـــــي منــــك مجلـــــة	جـــاءت علــــى وفـــق الإرادة
علميـــــــــة أدبيـــــــــة	تختـــال فـــي حلـــل الإفـــادة
فعـــــسى توشـــــحها بمـــــا	فـــي نـــشره نيـــل الـــسعادة
فيحـــــق قـــــول مـــــؤرخ	هـــي الـــسعادة فـــي الـــسعادة

ـ ومنها ما سبك نظامه الفاضل، العالم، الماجد، الشيخ السيد محمد الحشايشي الشريف، متفقد خزائن الكتب بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

تشرفتُ باستطلاع فكركم الأسمى	ومـا ذاك إلا الـدر ترسـمه رسـما
تطوقت الأعناق من سـمط نظمـه	فأكرِمْ به ذخراً، وأعظـم بـه علمـا

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

وقد شنّف الأَسماع منا وقـد غـدا ... يزيل عن الألباب من نوره الرسما

إليك (أبـا عبـد الالـه)[1] محمـداً ... شهادة عبـد قاصـر صـاغها نظمـا

مجلـتكم روض مـن العلـم يـانع ... سترقى بفضل الله أغصانه النجمـا

ومـاذا أقـول فـي مجلـة فاضـل ... حوت من صنوف العلم ما نوَّر الفهما

وقد خلصت من كـل بدعـة زائـغ ... فحقاً بأن تُدعى سـعادتنا العظمـى

ومن لم يشارك في السعادة قاصـر ... على نيلها فاسعد ودم جهبذاً قرما

ـ ومنها ما أنشأه الأديب، البارع، الماجد، السيد محمد الكامل بن عزّوز، ونصه[2]:

بـدت تختـال فـي بُـرْد الـسعادة ... وزفــت والقبــول لهــا قــلادة

مجلـــة بـــارع فهـــدى ســـناها ... يـضيء الفكـر إذ يـوري زنـاده

رَقَتْ في دوحـة العليـا فأضـحت ... يُقِــرُّ بفــضلها أهــل المجــادة

فيـابن الأكـرمين أصبت مرمـى ... وحـزت الـسبق فـي تلـك الإرادة

كمـال جنابـك الـسامي حـريٌّ ... بـأن يجـري بحلبتهـا جيـاده

وخـضتَ بهـا علومـاً لا تُجـارى ... فكـان بهـا عظـيم الاسـتفادة

وإنـك قـد زرعـت خـصال خيـر ... لما ستنال فـي الأخـرى حـصاده

خـدمتَ بهـا بنـي الـوطن المعـلاَّ ... ليجنـــي مـــن تفننهـــا إفـــادة

وأقـرب مـا يكـون الـنجح يومـاً ... إذا مـا العلـم أصـبح فـي زيـادة

---

(١) أبو عبدالله: لقب الإمام محمد الخضر حسين.

(٢) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

ولمـا أشـرقت فـي الكـون أرِّخ بـدا فـي تـونس نهـج الـسعادة

ـ ومنها ما جادت به همة الهمام الأمجد، الأبرع، الأعز، السيد محمد بوسن، رئيس مجلس عدلية الكاف، ونصه[1]:

أتشرف بأن أنهي لمجادتكم أيها الجهبذ المفضال كامل التهاني الودية، الصادرة عن إحساسات خالصة قلبية، ببزوغ شمس مجلتكم «السعادة العظمى» الفيحاء البهية، في أفق سماء حاضرتنا المحمية، والشمس عن مدح المادح غنية، ولعمر الحق إنها مجلة جلَّت عن النظير، وتجلت بوجه مشرق نضير، فقوبلت من الخاص والعام، بما يليق بحسنها وبهائها من جزيل التبجيل والإكرام، مرموقة من جميعهم بأعين الإجلال والإعظام، والمسؤول من فيض نوال الملك العلاَّم، أن ينيل من فوائدها ومباحثها المهمة المسلمين والإسلام، بحق نبيه عليه أفضل الصلاة والسلام.

ـ ومنها ما تفضل به العالم الدرّاكة، الماجد، الشيخ السيد إدريس بن محفوظ الشريف، أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم[1]:

زهر المعـارف بالريـاض المزهـر قد لاح يخطو في الجمال الأفخـرِ

يُجلى بدست مجلـة قـد أسـفرت تفتـرُّ عـن ثغـر عقيـق جـوهر

تـزري بكـل مليحـة فـي حـسنها سـحرت عقـولاً بالبـديع المبهـر

بـرزتْ مجـلات بنعـت فـائق عظمـى سـعادتها لنيـل المفخـر

جمعت فوائدَ مـن فنـونِ عـوارفٍ قد رامها مَنْ خـاض كـل الأبحـر

---

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

وحوتْ من الـدُّر النفـيس لطائفـاً ومـن المعـاني رائـق المـستندر
خفقـتْ لهـا رايـات فـضلٍ نفعهـا يعلو على رغـم الحـسود المنكـر
يا فوز من أضحى سـمير حـديثها يـشفى بلطـف فـي مـذاق الـسكر
من ذا الذي يحكي نسيج برودهـا فاقـت طـراز الـسندسي العبقـري
لله مـــا أســـنى مقاصـــدها التـــي جـرّت ذيـول محاسـن المتبختـر
كـلاّ فمـا تلـك المقاصـد رامهـا غيـر العلـيم الأوحـد المتبـصر
ذاك الجليل «محمد الخضر» الذي من أشرف البيت الكـريم المعـشر
نجل الحسين العارف الأسمى ومن هـو منهـل أحيـا طريـق الأزهـر
شـهم ترقـى فـي معـارج مجـده كـل الفـضائل نالهـا بـالأوفر
أمـــا شـــمائله ونفحـــة علمـــه بـين الحديقـة والغمـام الممطـر
أكـرِمْ بـه حَـسَباً زكـا وبأصـله نـسباً شـريفاً مثـل صـبح مقمـر
من بـضعة المختـار أكـرم مرسَـل فبكل مكرمـة فـذاك هـو الحـري
صـلى عليـه الله مـا دام الحجـا متأنقـاً فـي روض وشـي الأسـطر
والآل والأصحاب ما هـبَّ الـصبا وتـرنم القُمـري بغـصن مثمـر

ـ ومنها ما صاغته قريحة الفاضل، البارع، المهذب، السيد صالح سويسي، أحد الأدباء بالقيروان، ونصها[1]:

نـور «الـسعادة» لاح فـي الآفـاق وسـناء فجـر الرشـد فـي إشـراق
وكـؤوس راح العلـم دارت بيننـا من غير مهل، فاسقني يـا سـاقي

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

قم عاطني لا خير فيمن قد صحا   عن خمرة العرفان والأذواق

من لم يذق من دنِّها باع العلا   وغدا بنار الجهل في إحراق

فمن المؤكد صاح أن تسعى لها   أهل النُّهى سعياً على الأحداق

بادر بنا فالوقت راق لذي الحجا   وفيالق الإنكاد في إخفاق

أو ما ترى نادي «السعادة» قد زها   والقلب طار له من الأشواق

كل السعادة في «السعادة» أُدرجت   فانهض إلى باكورة الإطراق

لله حسن مجلة أبدت لنا   ما فيه تبصرة لفكر راقي

ومديرها ذاك الغيور من اكتسى   حلل المحامد والثناء الباقي

قد قام يوقظ قومه بمواعظ   من نومة التأخير والإغراق

دفعته للإرشاد غيرة حازم   قد حركته عوامل الإشفاق

يا أهل تونس عاضدوا مشروعه   فلكم جميل مكارم الأخلاق

وتجملوا بمحامد من نصحه   فالنصح للإسلام نعم الواقي

فالعبد يرجو من صميم فؤاده   حسن النجاح له من الخلاّق

ـ ومنها ما صاغه الفاضل، الدرّاكة، الأبرع، الشيخ السيد محمد شاكر، أحد أعيان العلماء بصفاقس، ونصه[1]:

هناءً لهذا القطر بالمأمل الأسمى   وبشراه إذ لاحت سعادته العظمى

مجلة علم طالما استشرفت لها   نفوس ذوي الآداب ممن حوى العلما

تجلتْ ونور الرشد من أفقها أضا   وعرف الفلاح الصرف من روضها شما

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢ .

ســتثمر إن شـاء الكـريم تقـدماً تُبـاهي بـه الخـضرا مواليـة بـسما
وتخفـق للإسـلام رايـات مجـده ويعلو بها العلم المفيد ذرى شـما
وتنفـث فـي روع المطـالع رشـده وتؤتيه من آياتها العلـم والحكمـا
ولا غـرو إذ كـان المرصـع درهـا فتى مثله في العصر ما خلتـه ثمـا
فتى جامع بـين المعـارف والتقـى وفي كرم الأخلاق حاز المدى الأسمى
هو الخضر الحبر الأريـب محمـد سـليل ولـي الله مَـنْ سِـرُّه عمّـا
دعــا ذلــك النحريـر أمتـه إلـى سعادتها العظمى فأعظم بها غنْمـا
فهل يرتضي شهم فـوات اقتنائهـا فرائد في سلك الهدى نظِّمت نظما
لعمــرك إن كانــت لأنفـس قنيـة ينافس فيها كل مـن لـبس الحزمـا
فمدوا أولي الألباب أيدي جـدكم عسى أن نرى الإسعاد للقوم قد تما

ـ ومنها ما كتبه الفاضل، العالم، الثقة، الشيخ، السيد محمد العروسي السهيلي الشريف، أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم[1]:

نحمدك يا من منحت كل مخلوق ما تيسر له، وهديت للخير من أسعدته فقام به وأحسن عمله، ونصلي ونسلم على من أرسلته بالحكم النافعة، وأيدته بالبراهين الساطعة، وخصصته بالكلم الجامعة، وعلى آله الطيبين وأصحابه الهداة الأقطاب، ما توشحت الصحف بثمار المعارف والآداب.

أما بعد:

فإن العلم أبهى مطلب، وأسنى مأرب، وأنفع غنيمة، وأرفع من كل

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢.

شيء قيمة، وفق الله رجالاً هجروا في تحصيله المنام، وقاموا ببثه نصيحة للأنام، فألَّفوا التآليف المفيدة، وحلوا مشكلات المسائل بما امتازوا به من الآراء السديدة، ومن أجلِّ محبراتها مجلة «السعادة العظمى» التي ظهرت في عالم الطباعة، تجر ذيل تيه البلاغة والبراعة، ولقد أسعدنا الحظ بمطالعتها، فنزهنا الفكر في رياض آدابها، وكرعنا من عذب عبابها، فألفيناها وأيمن الحق حديقة آداب، وروضة فخر مفتحة الأبواب، طافحة بالمسائل العلمية، مطرزة بالفوائد الأدبية، والنصائح الدينية، فقراتها بحور زاخرة، وبدور سافرة، ودراري زاهرة، على غاية ما يمكن من الوشي والتحبير، ونهاية رقة السبك والتحرير، كيف لا وهي تنضيد من استمدت من نوره السعادة، ونسيج من أضحى في جبين الدهر غرة الإفادة، لا زال ناشراً لواء العلم، لابساً حلل الكرم والحلم، فقد جاد فيها بما دلَّ على تضلُّعه في المعارف والآداب، وفتح بها للصواب أقرب باب، فجاءت رقيقة المعاني، متينة المباني، نسأل الله لها الدوام في عالم الإقبال والتبجيل، ولصاحبها النجاح والجزاء الجميل، على هذا الأثر الجليل.

ـ ومنها ما حرره العلامة الهمام، الماجد، الشيخ، السيد محمد بن سالم الأكودي، القاضي ببنزرت، ونصه[1]:

راية السعادة التي افتخرت بها يمين المعارف، وآياتها الباهرة وظل عزها الوارف، العلامة الصهميم[2] والخل الحميم، منشئ مجلة «السعادة العظمى» أدامه الله ولواء سعادته خافق منشور، وحديث فضله على

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢.

(٢) الصهميم: السيد الشريف.

صفحات الأيام مسطور.

بعد تحية يعبق شذاها، ويشرف بكم محياها، فقد وصلتني مجلة «السعادة العظمى» التي يسطع نورها، وينصع نَوْرها، وتجر ذيول الفخر على سحبان وائل، وتصدع بكم ترك للأواخر الأوائل، فما شئت من معان حرة، وبلاغة مدت أطنابها على المجرة، تخرق بأشعتها حجب الألفاظ، وتسفر عن فتكات مراض اللحاظ، وألفاظ تميس في حلل إبداعها، ويشدو طير البيان على أفنان يراعها، ونثر تحسبه على الورق، حصباء در على أرض من الوَرْق، ونظم لا للجواهر، بل للنجوم الزواهر، وتلك الفضائل لا تلمع بروقها إلا من السحب التي لم تزل يتفيأ ظلها، وأنتم أحق بها وأهلها، فجازاكم الله عنا أحسن الجزاء، وجعل أطناب سعادتكم منوطة بمناكب الجوزاء، فلا يرتاب أن صنيعك هذا تهز به أعطاف الفخر، وتدخر فيه عند الله أعظم ذخر، فالله عزَّ اسمه يُكثِّر من أمثالك، ويهدي القلوب بأقوالك وأعمالك.

ـ ومنها ما كتبه العالم، البارع، الشيخ، السيد علي بن رمضان، أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

إن أفصح كلام سمع وأعجزه، وأوضح نظام جمع وأوجزه، حمد الله الذي أحاط بكل شيء علماً، وخصص من شاء بما شاء رحمة منه وفضلاً وحلماً، والصلاة والسلام على نبينا سيدنا محمد صاحب السعادة العظمى، وعلى آله وصحبه وكل من كان لحزبهم منضماً.

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢.

5844

أما بعد:

فقد اطلعت ـ أعزك الله ـ على فاتحة سعادتكم العظمى، وذخركم الأسمى، فوجدتها روضة حكم قطوفها بالفضائل دانية، ودرة طلاب بجواهر المحاسن سامية، تحلت بها لشقيقتها الأخرى نحور، وتجلت لها منها حور، كأنهن الياقوت والمرجان، لم يطمثهن إنس قبلهم ولا جان، فأزرَتْ محاسنها بالبدر اللياح، وسرت فضائلها سرى الرياح، وتشوقت لعلاها الأقطار؛ ووكفت تحكي نداها الأمطار، ونالت بها الأمة الأرب، وأتنها تنسل من كل حدب:

عروس جلاها مطلع الفكر فانثنت ... إليهـا النجـوم الزاهـرات تطلـع

زففـتُ بهـا بكـراً تَـضوَّع طيبهـا ... ومـا طيبهـا إلا الثنـاء المـضّوع

لها من طراز الحسن وشي مهلـل ... ومن صنعة الإحسان تـاج مرصـع

فلله من سعادة امتزجت بعقولنا أنوار محاسنها امتزاج الماء بالراح، وتعلقت بها تعلق الأرواح بالأشباح، حتى أهـدت معانيها لمعانيها زهو الشقيق على الأقداح، وسمت مبانيها على يد بانيها سمو الصبا في الصباح، ولعمري ما هو في الفضل بدخيل، ولا يعزى إليه المجد بقيل، فلو تسابق مع فرسان البلاغة لقال: جاء الكل بعدي، أو سُئل عن الفصل لقال: الماء ماء أبي وجدي، وبالجملة فليس القول في كمالات مشروعكم ذا حصر، إذ لو مددتُ باع مدحي له لوجدته ذا قصر، ولو تكلفتُ أن أصف جميله لخرجت عن الطاقة، واعترفت بأني ذو فاقـة، وكيف أعدّ من المحاسـن ما لا يُعدُّ؟ أو كيف أحصر من الفضائل ما لا يقف عند حد؟ وها أنا قد عجزت فأوجزت، وقصَّرت فاقتصرت.

ـ ومنها ما كتبه العالم، البارع، الماجد، الشيخ، السيد علي السنوسي، أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

أيها العالم النحرير، الموشي حلة الفصاحة بتحبير التحرير، مدير «السعادة العظمى»، والبالغ من قنن الآداب المرتبة القصوى، أتم الله سراج عملك، وقرن بالسعادة خلاصة أملك، وحرس دينك ودنياك، وأدام تمكينك وعلياك، وبعد سلام تستنير في سماء الود أنواره، وتزهو في حدائق الصداقة أنواره، فقد تشرفت بمزيد السرور، ووقفت موقف الحامد الشكور، بالثمرة الشهية، والدرة النقية، التي بزغ في أفق السعادة هلالها وبدا جمالها، ومن أجله أفل القمر وبدا نقصه بعد أن ظهر كماله، فياحبذا طالع الجمال، الذي كان في غرتها كبراعة الاستهلال، قارنه العمر المزيد، للأمد البعيد، حتى يصان من الأفول هلالها، ويصير بدراً نيراً لنرى كمالها.

ولما أرسلت رائد الفكر في حياضها، وسرحت بريد النظر في رياضها، وجدتها جنة العلوم، مزهرة بأنواع من منثور ومنظوم، نشرت النسائم زواهر أغصانها؛ وباحت حمائمها بترديد سجعاتها وترنمت بأعذب الأساليب فنون ألحانها، بالدر طرزت ألفاظها، وبالفرات فاضت حياضها، ففاقت بحسن نظامها على عقود اللآل، ولم يتقدم لنا نظيرها في العصر الخوال، جامعة لعوارف المعارف، وطريف اللطائف، من كل الأرجاء، وكل الصيد في جوف الفراء، فهي آية للألباب وذكرى، وإن من البيان لسحرا، فحق للقطر أن يفتخر بمجلة حافلة بالمزايا، كافلة باستخراج الفرائد من خبايا الزوايا، فمطالعها تتسع دائرة إطلاعه، ويمتد إلى المعالي طويل باعه، ويجتني

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢.

الآداب، من حدائقها الرحاب، فإنها جهينة الأفكار، وخزينة الآثار، والأصل في الصلاح، والمرشد إلى سبيل النجاح، أنبتها الله نباتاً حسناً، ومنحها سناء وسنى.

ـ منها ما صاغه الماجد، الأبرع، الأعز، السيد محسن زكرياء، ونصه[1]:

إلى صفوة الأخيار العلاّمة صاحب «السعادة العظمى».

حمداً لمن بسط علينا جناح العلم، لإزاحة ظلمات الجهل والوهم، وأحيانا بعد الممات، للنهضة وإدارك ما فات، ونصلي ونسلم على من زرع فينا روح السعادة العظمى، وعلى آله نور الهداية، من بسيوف علمهم قطعوا كل ضلالة وغواية، ومهّدوا بأعظم عناية، طرق الرواية والدراية.

أما بعد:

تقديم تحيتي المعطرة بالهناء والوداد، لحضرتكم أيها العالم الخبير، والدراكة النحرير، أشكركم حيث أدخلتموني في زمرتكم أهل العلم والأدب، بدليل إرسال مجلتكم العلمية بديعة الطرز، لأشارككم في الإفادة والاستفادة، فبعد فك ختامها، سرَّحت نظري في ساحة رياضها، واستنشقت نسيم أزهارها وذقت سلسبيل حياضها، وجدتها غادة فريدة أم لؤلؤ منثور، أم عقد درّ في نحور الحور، أم عروس الأزهار تجلى بين غروس الأشجار؟ ترنمت بمعرب ألحانها، وطربت بذلاقة لسان أغصانها، فناهيك بها من خريدة فازت في حلية الكتابة والتأليف، وحازت قصب السبق باشتمالها على حسن الترصيع والترصيف، مشحونة بفوائد لطيفة، واستطلاعات ظريفة، ألفاظها رائقة

---

(١) العدد السادس ـ الصادر في ١٦ ربيع الأنور ١٣٢٢.

فسيحة، وأبحاثها من مثل وتاريخ صحيحة، يعترف المنصف لها بالصواب، ويذعن الحسود لفضلها فلا ينبسر للرد عليها ولو بجواب، لله مجلة سمت في الحاضرة، لما حوت من علوم وآداب يانعة ناضرة، يمتد لها أعناق ذوي الهمم من كل جانب، ويشخص أبصار ذوي الفضائل من المشارق والمغارب، سترد الأمة بصيرة، لما تقدم لها به من إرشاد ونصيحة، فما أعظمه حظاً قمتم به في مجتمع الإنسان الضروري ليجتني مصالحه المتوقفة على التعاون، الذي لا يحصل إلا إذا كانت الأمة قلباً واحداً.

ولما وجدت حزمتها منحلة، أردت جمع ما تشتت منها وربطها بكلمة الدين، أعانك الله على ذلك الجمع تحت الكتاب والسنّة، وعلى محو البدع والضلالات المشينة للدين اللاتي دسهن أناس أرادوا بنا هبوطاً إلى ما نحن عليه من الإنصرام، صرّم الله حبال جمعهم، وفرّق شملهم وكلمتهم، فبهمتكم من حثكم على الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق الذي هو أمر أولي هيولي، لا بد منه لأن كل ما سواه ثانوي، ولأن الوقت يوجب على كل من فيه أدنى شعور، الالتحام مع أخوته، ثم على العلم والعمل، وأن يعمل الإنسان للدنيا كما يعمل للآخرة، كما جاء به صريح نص السنّة، تستيقظ الأمة من سنتها.

فلا شك أن هذا غاية تأسيسكم لهاته الوسيلة السامية في برد العلم والفضل، وهي أقرب وأسهل طرق الإفادة، وتنبيه أمة استهواها شيطان الغفلة والكسل وتسيطرت عليها الشهوة، وإن كان الله تعالى نوّرها بالبصيرة التي من شأنها تقودها إلى الخير وتصدها عن الشر، إلا أن تلك الشهوة والأغراض النفسانية التي تهبط بالأمم إلى الذل والخسران «أعاذنا الله وإياكم» تخالف تلك البصيرة عما تراه، فتريد سلوكه من حميد الخصال، والإقبال على صالح

الأعمال، فبخالص نصحكم تعمل لما فيه خيرها، والله يوفر أجركم على سلوككم هذا المسلك الحسن والسلام.

ـ منها ما نظمه الفاضل، البارع، المجيد، السيد محمد العزيز الشيخ، ونصه[1]:

بدت كما شاء أهل العلم والبصر ... تزري ببدائعها بالأنجم الزهر

وافت وفي طيها نشر العلوم وتحـ ... ـقيق الفهوم بما تحويه من غرر

مجلة نظمتْ شمل المحاسن إذ ... جاءت بأنفس في الأسماط من درر

زُفّت إلينا، وعين الحظ تلحظها ... واللطف يبرزها في المنظر النضر

تختال في حلل التحرير قائلة: ... بي أيها العصر، فاسحب ذيل مفتخر

فهي السعادة في نيل السعادة قد ... أضحت بطلعتها الخضراء في وطر

عن نفسها كتبتْ أن لا يفوز بها ... إلا الذي صدره خال من الوجر

دلتْ على فضل منشئها وغيرته ... كالسيف دلَّ على التأثير والأثر

لو لم تكن خدمة الإسلام نيتها ... لما بها حف إقبال من البشر

وهي الغريبة في الإبداع قد تركت ... من راح ألفاظها الأرواح في سكر

وكيف لا وهي من إنشاء نادرة الـ ... ـعصر الكريم «أبا محمد الخضر»

أستاذنا الأبرع النحرير من كُتبتْ ... حقاً مناقبه في صفحة القمر

في كل فن له الباع الطويل يرى ... وزند فكرته في المشكلات وري

لله درك من حبر نهضت لإر ... شاد العباد نهوض الحازم الخبر

فأطربت من له فهم مقاصدكم ... ففاض يثني عليكم بالثنا العطر

---

(١) العدد السابع ـ الصادر في غرة ربيع الثاني ١٣٢٢.

تالله يا صاحب المجد الأثيل لقد نظرت فيما صنعت موقع النظر
فدم عزيزاً قرير العين مرتقياً أسنى المراتب محفوظاً من الغير

- ومنها ما كتبه الفاضل، الأمجد، الأبرع، الشيخ، السيد الأمين بوعلاق، أحد علماء توزر[1]:

أخاطب سعادة عزيزي الحسيب، الفذ الأريب، والجنان يهاب محيط علومه، ويحبر مناخ معلومه، كيف لا ويراعه يشن الإغارات المتوالية على ثغور المعاني، ويتولى من منثورها على القاصي والداني، معززاً بجنود البيان، لدى فرسخ التبيان، فأعجز ببراعته ذوي البلاغة والعرفان، وبسبقه لم يفته فارس رهان، ولم يجاره فخر همذان، أعني الندس الأبرع، العلامة الأورع، الشيخ «سيدي محمد الخضر بن الحسين الشريف»، لا زال كل فضل لديه منيف.

أما بعد:

إهداء تحية زكية، يتضوع أينما حللت رياها، ويعطرك أين توجهت شذاها، فقد تشرفت بنميقتكم العلمية المعنونة «بالسعادة العظمى» رافلة في مطارف الجمال، تعلن بأنها روضة حدائقها الكمال، فقبلتها وقبّلتها، وعظّمتها وجلّلتها، بيد أنها وحياتكم ذكّرني لطفها عهد تلك الدروس بالجريد، زبرجد الصحراء الفريد، المقول فيه:

قطر كبغداد غدا في خطه تصفو به الأفهام والأفكار
والعلم يشحث فيه طبعاً مثل ما يهمى من السيف الصقيل غزار

(١) العدد العاشر - الصادر في ١٦ جمادى الأولى ١٣٢٢.

وعلم الله أنه لآثر بأن يقرَّ بكم عيناً، وينافس بكم ديناً ودنيا، هذا وإني أرفع لسعادة أبناء وطني خالص التهاني، بما أدرتموه في كؤوس الألفاظ الجزلة من لطائف المعاني:

عــرِّج فــديتك واقــصدَنَّ بــلادي وأقــرأ ســلامي عــن ربــوع ودادي
وأنخ رحالك فـي حـدائقها وعـج إن كنــت طمآنــاً بــذاك الــوادي
وانظر بـديع رسـومه يغنيـك عـن غرناطــة، وعلـــى قــصور زيــاد
واغــنم رواحــاً بـين ظـل نخيلـه واطــرب لرنــات الهــزار الــشادي
وأسأل على نـزل الحـسين وأهلـه إن تبــغ علمــاً، أو طريــق رشــاد
وإذا سُـئلت عـن الـذين تولهـوا بالفضل، أو مَـنْ بـالفلاح ينـادي
فـــأنبئهم أن الهمـــام محمـــد نـشر الـسعادة فـي زمـان الهـادي
بمجلـــــة علميـــــة، أدبيـــــة تحيـي النفـوس، فيالهـا مـن زاد
ســطعت تنيــر بهمــة، ودرايــة طـرق الهداية مـن صـميم فـؤاد
تدعو الأنام إلى المكارم، والنهى وتزيـد فـي وسـع الحجـا بـسداد
حـرس الإلــه كمالهــا، وجمالهــا مــن أعــين الأضــداد، والحــساد
وانهــلَّ وِدقُ العلـم فـي أرجائنـا مــا جــاد غطريـف بحـسن مـراد

ـ ومنها ما نظمه البارع، الأديب، المهذب، السيد محمد المذكور بن الصادق، ونصه[1]:

وكأساً دهاقاً قد شربنا على الظمـا بكـف فتـاة زانهـا اللعـس واللمـا

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢.

لعوب كأن الوتق في ضرباتها ... يحاكي ثنايا ثغرها إذ تبسما
غزت قلبي المتبول باللحظ عنوة ... بروحي غزاة ما أتين محرَّما
جنى جنة العشاق في وجناتها ... على أن فاها بالعقيق تختما
تآلف جيش من شمائل حسنها ... ائتلاف بني اليابان في الحرب عندما
تسائلني: ماذا لقيت من الهوى؟ ... وقد علمت ما قد لقيت وإنما
فياخالها رفقاً ويا جيدها ارحمنْ ... ويا خصرها مهلاً على الصبِّ ريثما
ثنت عطف مختال وتاهت كأنها ... سعادتنا العظمى التي نفعها نما
سعادتنا العظمى مجلتنا التي ... تراءت إلى نيل السعادة سلّما
روت مُلَحَ الآداب في كل محفل ... عرائس أفكار لأشرف منتمى
هو الخضر الشهم الغيور محمد ... هو السند الفرد الحيي تكرما
حسيب، نسيب، أريحي، مهذب ... سني، سريٌّ حين تلقاه ضيغما
لأن شغلت هند ودعد وزينب ... أناساً فحاشا أن يرى ذاك مغنما
يَرى كل حظ ما سوى العلم ناقصاً ... وحظ الفتى من دهره ما تعلما
فعلت وما كل امرء قال فاعل ... وقلت وما كل امرء قال أحكما
ولا زلتَ في أوج السعادة نيِّراً ... تباهي بكَ الخضراء شوطاً تقدما
وخذها مهاة، ناهداً، بدوية ... فلا الطقس أضناها، ولا الضغط أسأما
وما مهرها إلا القبول فجد به ... عليها فدتك النفس يا حامي الحمى

ـ ومنها ما كتبه البارع، الأديب، الماجد، الشيخ، السيد العربي الكبّادي، أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم، ونصه بعد الديباجة[1]:

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢.

وما كان فضلك ليمنعني أن أشكره، ولا لينسيني الشيطان أن أذكره، لذلك تحركت مني للأدب صبوة نسجت عليها العناكب، وهبت عليها الصبا والجنائب فقلت:

سعادتكم فينا لقد طلعت شمسا فكلٌ لها أضحى مشوقاً كما أمسى
ولله ما خطْت يراعتك التي برقة ما تبديه تستملك النفسا
مجلة علم لم تجل في ضلالة ولكن جراحات الضلال بها تؤسى
تقول لقاريها مقالة مرشد سنقرئك الحق المبين فلا تنسى
فدمتم ودامت للأنام سعادة وأيدي العدا لا تستطيع لها مسّا

ـ ومنها ما صاغه الماجد، العالم، الأكتب، الشيخ، السيد محمد بن مصطفى زرّوق، أحد أعيان الكتبة بالوزارة السامية، ونصه[1]:

حمداً لمن أشرق شمس السعادة، وجعلها منبعاً للاستفادة والإفادة، وصلاة وسلاماً على نور الهدى، ونبراس الحق والاهتداء، إمام البررة العلماء، وخاتم المرسلين والأنبياء، وعلى آله الفائزين وصحابته المقربين.

هذا ويا أيها الفاضل النحرير، والعالم المحقق الشهير، رب الفصاحة والبراعة، والبلاغة واليراعة، لما أمعنا النظر في مجلتكم الغراء، التي هي كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء:

وإذا السعادة راقبتك عيونها نم فالمخاوف كلهن أمان

وجدناها درراً فاخرة، ومحاسن للعيان باهرة، زيادة على ما بها من

---

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

التحقيق والتدقيق، للمسائل العلمية بأبدع أسلوب رشيق، خصوصاً في إشهارها للحق، بلين القول وجميل الرفق، فهي إن شاء الله ستكون خادمة للوطن والدين، حتى يكون صاحبها حاملاً لراية العلم باليمين، ولاقتنائها فليتنافس المتنافسون، وللسير على إرشادها، فليعمل العاملون، والله سبحانه يبلغكم من كل ما تأملونه النجاح، ما حيعل المحيعل بحي على الفلاح.

ـ ومنها ما نظمه الأنجب، الأريب، المهذب، السيد محمد الطاهر بودربالة، أحد أعيان الأدباء بالجامع الأعظم[1]:

ذا زهر روض عاطر الأردان ... أعقود دُرٍّ في نحور غوان

أسلاف بكر عُتِّقت فاستحكمت ... وجرت كمجرى الروح في الإنسان

أبروق وصل سعادَ لاحت بعد ما ... ذاب الفؤاد بلوعة الهجران

أَم ذي السعادة للهدى قد أقبلت ... حيَّت فأحيت مجمع العرفان

عربية شهدت لها أترابها ... وغدت تحلِّيها بحسن بيان

قد صاغها علم العلوم «محمد» ... من دوحة الفضلاء والأعيان

العالم الكشّاف كلَّ عويصة ... بفصاحة تربو على سَحبان

فلتفتخر بك خطة الإنشاء، يا ... نجل «الحسين» العارف الرباني

أهنيك يا قمر الدجى بسعادة ... سحر ومعناها سلافة حان

تسبي العقول فصاحة ولطافة ... وظرافة تسمو على الأقران

لازلت ترفل في السعادة سابقاً ... في حلبة التحقيق والتبيان

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

ـ ومن أعزها ما تشـرفتُ به من قلم أسـتاذي الذي شبّت في طوق تعليمـه فكرتي، وتغذيت بلبان معارفه من أول نشأتي، العلامة الهمام، القدوة، خالنا الشيخ سيدي محمد المكي بن عزّوز أبقاه الله، ونصه[1]:

حفظ الله مقام الابن العزيز العالم النحرير، والبارع الخطير، الشيخ «سيدي محمد الخضر الشريف الحسني» دام للحق ناصراً، وللعلم والكمالات ناشراً، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته وبعد:

فإنَّا بمجلتكم الرائقة مبتهجون، ولتحريراتها السديدة شاكرون، وأنبئكم أنه لما أشرقت غرَّتها، وانبلجت ديباجتها، تصفحت درر عقودها، وتعمدت سبر عودها، لنعلم كيف نتيجة تربيتنا، وإلى أَي طور بلغ فرع دوحتنا، وبأي ثمرة تفتر أكمامـه، وعلى الوطن بأي صفة تهب أنسـامه، فألفيتها شريفة المقاصد، بصيرة المراصد، مشرئبة إلى المباحث العالية، ساعية إلى حصحصة الحق في المسائل القريبة والقاصية، واسعة العارضة، أفهمت أنها بكل عبء من المشكلات ناهضة، فحمدنا الله حيث أظهر ما كنا تفرسناه، وبالتأسيس تحريناه، غير أني نقمت منها علو تعبيرها، وإن كانت جليلة في بلاغتها وتحبيرها، فحالها إذ ذاك يقول: لا يستطيبني إلا عالم، أو أديب خبير بالمعالم، فتربصت ليتضح مسلكها، ويخلص مسبكها، ففي العدد الثالث وما بعده وجدتها تنازلت في تعبيراتها، واشترك أواسط الطلبة مع الأساتذة في اجتناء ثمراتها، واسـتمرت على تلك الخطة الحميدة، وصدق عنوانها بأن السـيرة المستضيئة بها سعيدة، وما أظن ذا ذوق وإنصاف يغض منها، أو يحيد عنها، كيف وقد أبرزت لميدان المذاكرة مباحث مهمة، وحررت جانباً وافراً من

---

(١) العدد الثالث عشر ـ الصادر في غرة رجب الأصب ١٣٢٢.

المسائل الملمة، وذبَّت عن الإسلام دواهي مدلهمة، تتبادل بها الأفكار، وتتمخض بها زبد الأنظار، أفادت العلماء تذكرة، والمستفيدين تبصرة، مراميها سامية، وقطوفها دانية، حتى ورقاتها من حسن الفال كأبواب الجنة ثمانية، وعلاوة على ذلك أعربت على كل من كتب فيها سطراً مبلغه من العلم والعقل ومقدار همته، ولامتياز الأخلاق منها نصيب وافر، فهي كالمرآة الصقيلة، وبملاحظة هذا المعنى تسابق قراؤها ومكاتبوها إلى اكتساب المعالي، وابتناء المجد العالي:

السباق السباق قولاً وفعلاً حذر النفس حسرة المسبوق

وبالجملة فتلك مفخرة للخضراء بين الممالك، ويفهم من آثار أهلها اعترافهم بذلك، وأبلغكم لتحمدوا الله أن كلَّ من رآها هنا في الآستانة العلية أعجب بها، وتحقق بمجموع ما احتوت عليه نمو العلم في تونس ونشاط طالبيه، وأن سوق التفنن بجامع الزيتونة معمور، وهذا مما يعم به في العالم الإسلامي السرور، والمظنون أن سيكون لها شأن يعتبره المشرقان والمغربان، فحافظوا على خطة الاعتدال، غير غافلين عن مقتضيات الأحوال، ودوموا على اعتناق السنَّة والكتاب، مستحضرين أنكم مسؤولون غداً، والله عنده حسن المآب، أدامكم الله لنفع الدين والوطن، ورزقكم العافية والتوفيق في السر والعلن.

ـ ومنها أنفسها ما تفضل به الهمام النحرير، الماجد، الأعز، الشيخ، السيد عبد الحفيظ القاري، أحد أعيان العلماء بمكة والطائف حرس الله كماله، ونصه[1]:

---

(١) العدد الرابع عشر ـ الصادر في ١٦ رجب الأصب ١٣٢٢.

حضرة مقام صاحب الفضيلة، والمآثر الجلية، مولانا السيد «محمد الخضر العلوي».

إن أشرق ما يجتنى به وداد الأفاضل، وأسنى ما يكتسب به توجه كل كريم كامل فاضل، مخاطبة العلماء بلسان اليراع، حيث لم يتيسر لهم الاجتماع، ويحصل للقلب سرور الوصل بالسماع، أخص أشرف من سما بهمته في هذا العصر، وقام بعزمٍ بعجز عن مثله الدهر، حيث وقف فقاوم الزمن وردَّ معاندة أهله، وساعدته سعادة الله العظمى حتى أظهرها بسعيه وفضله، منبع العلم ومنهل العرفان، نور حديقة الفضل بل نور حديقة الإنسان، ذو العلم الشامخ، والفضل الجليل الباذخ، الشيخ المصقع الحلاحل، محط رحال العلم وحلِّ المسائل، بهجة العلم والعلماء في المحافل، السيد الذي ذبَّ عن شريعة جَدِّه، بمقوله ومنقوله وجهده وجِدِّه، فرفع أعلام الدين بجيوش «السعادة العظمى»، وطارت بأجنحة الصدق فبلغت المقام الأسمى، فنرجو لصاحبها السلامة والابتهاج، وللسعادة الدوام والرواج:

آمين آمين لا أرضى بواحدةٍ حتى أضيف إليها ألف آمينا

وبعد إبلاغي جزيل التحية وأوفر الإكرام، أنهي إلى فضيلتكم أني بينما كنت أضرب أخماس الأسف، بأسداس الفكر، على ما دهى الإسلام من دجاجلة الزمان وبدر، إذا شمس أنوار السعادة بازغة، ولسراب الأهواء الزائغة دامغة، وبرزت على الأفكار الجديدة حجة الله البالغة، فشكر الله سعي منشئها وأدامه، وثبَّت على نصر الدين أقدامه.

ـ ومن ذلك ما صاغه الأمجد البارع، الأعز، الشيخ، السيد صالح صفر،

أحد أعيان المتطوعين بالجامع الأعظم، ونصه[1]:

نحمدك يا من أسست صنع العالم على أكمل قواعد الإبداع والإتقان، وأدمت بسعة فضلك استهلال غيوث الإنعام والإحسان، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي تخلصت ببعثته البرية من المهالك، وشربت من حياض كرامه كأساً ختامه مسك وفي ذلك، وعلى آله وأصحابه المحرزين قصبات السبق في مضمار البلاغة، أكمل صلاة وأشرف تسليم.

أيها الفاضل الجليل، والبارع الذي عزَّ أن يكون في هذا العصر له مثيل، حميد الأخلاق العذبة المذاق، ومظهر أسنى المناقب والكون في الانغلاق، مصدر حميد المآثر المنفرد بجمعه بين حسن البراعة والسكينة، والمشير بحسن براعته من خمائل الترسيل كمينه وثمينه، العالم المحقق الثبت ذو اللسانين، «الشيخ محمد الخضر بن الحسين»، زان الله تعالى دوائر المعارف بأمثال كماله، وكمال أمثاله.

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد:

فإن الله جلَّت قدرته قد اقتضت حكمته الصمدانية، أن ألبس هذا القطر المحروس ثوب الفخار، وأطلع في سمائه سعادتكم شمساً في رابعة النهار، ولقد أسعدنا الحظ برؤيتها، والكرع من عذب موردها، فألفيناها كما قيل وفوق ما قيل:

بدائع أبدتها محاسنك التي ... يكلُّ لساني أن يحيط بها وصفا

ثم لو حاول المحاول تمجيدها بصفة الإطناب أو الأخرى كفاه ثم

(1) العدد الخامس عشر - الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢.

كفاه أن من البيان سحرا.

- ومن ذلك ما كتبه الثقة الزكي، البارع، السيد أحمد بن سليمان، أحد العدول ببلد الصمعة، ونصه[1]:

الحمد لله الصمد العزيز الواحد، المثيب في مواقف القيامة على إخلاص النيات وحسن المقاصد، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الذي هدى الله الأنام بآياته، السيد الذي نالت أمته به السعد وبلغت من الفخر نهاياته، وعلى آله وأصحابه أولي الهمم العظيمة، والعقول الفياضة والأذواق السليمة.

أما بعد:

فيا بدر سماء المعارف، وشمس الفضائل والعوارف، ويا معدن السر المصون، ومن بلغ رتبة لا تنبغي لأحد من أهل عصرك أن تكون:

إمـام لـه قَـدْرٌ منيـفٌ ورفعـةٌ … وأغربُ مِـنْ ذا لـيس يوجـد مثلـه

من غدا في بحر المجادة يسبح بالباعين، أخونا الشيخ «سيدي محمد الخضر بن الحسين»، كيف لا وأنت المقتفي سبيل أسلافك العلماء الأعلام، وخلاصة أهل المجد الجهابذة الفخام، لا زالت معاليك الجامعة وأعلامك الخافقة عالية المرصاد، بين كل رائح وغاد من العباد. آمين آمين وأمناً للأمين، فقد أسعدنا الحظ برؤية ما شرفتم به ابننا من سعادتك العظمى، وكرعنا من عذب موردها الأحمى:

الله أكبـر إنهـا عربيـة … ختْمـت كمـا بـدئت بإسـماعيلِ

فألفيناها كما قيل وأعلى ما قيل، فقد أتيتَ فيها بمعاني فصل الخطاب،

---

(١) العدد السادس عشر - الصادر في شعبان الأكرم ١٣٢٢.

واستعرت لها قلائد الإعجاز من كرائم أم الكتاب، استدرت بها أخلاف العلوم، وحررت فيها رقائق المنطوق ودقائق الفهوم، ينزه ناظرها طرفه في روض من الفضل ظليل، ويرشف من عيون معانيها كوثراً ومن رحيق ألفاظها سلسبيل، درَّ سحاب تحقيقاتك فنقط الروض بالدرر، وابيضت شيات جياد مروياتك فكانت في جباه البلاغة غرر.

فحق أن تقتدي بك الأعلام ولا فخر، ويتصدع من مهابة صدعك بالحق الصخر، تبتهج بك القلوب والصدور مسرّة وانشراحاً، وتعلل بسلافك على مر الدهور اغتباقاً واصطباحا:

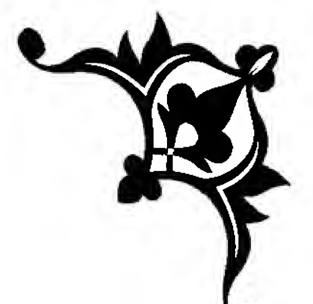
سلالةُ سادة سعدوا وجادوا ... ولم يلدوا امرءاً إلا نجيبا

وما ريح الرياض لها ولكن ... حباها منهمُ في الأرض طيبا

أبقاك الله مشرقاً للفضائل، سابقاً إلى تناولها من حاول نيلها من الأواخر والأوائل، وبارك فيك للعلوم والمعارف، وجعلك قرّة عين لكل عارف.

❐ ❐ ❐





المباحِث العلميّة

ـ الاعتصام بالشريعة .

ـ الأخذ بالقول الراجح .

ـ براءة القرآن من الشعر .

ـ العمل والبطالة .

ـ حياة الأمة .

ـ التربية .

ـ التقدم بالكتابة .

ـ مدنية الإسلام والعلوم العصرية .

ـ مدنية الإسلام والخطابة .

ـ كبر الهمة .

ـ التعاون والتعاضد .

ـ الديانة والحرية المطلقة .

ـ البدعة .

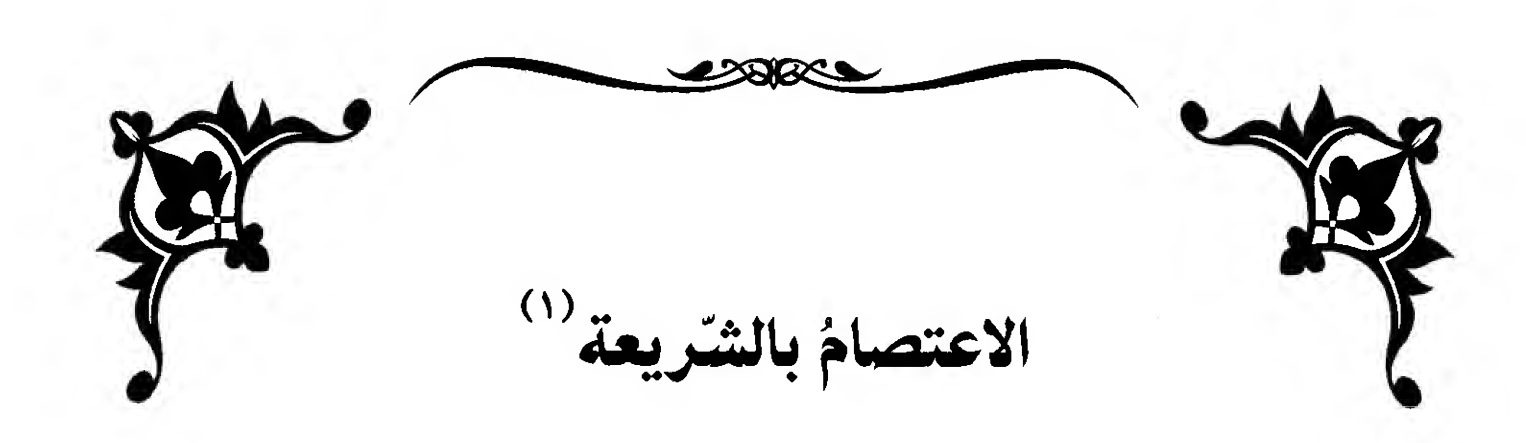
ـ الزمان والتربية .

ـ الصيام .

ـ الأحاديث الموضوعة .







الاعتصامُ بالشّريعة[1]

مما تكلفت المشاهدة ببيانه، أن الاسترسال مع الأهواء كلما دعت، ومحاذاة الأغراض أينما توجهت، يفضي إلى فوات المصالح الأُخروية والدنيوية، ويقضي بالتخبط في مضاجع الفساد، وأشدها وطأة قطع رابطة الأخوة بعد توكيدها.

ولذلك انعقد الإجماع بين جميع الشرائع على ذم كل من اتخذ إلهه هواه، بل تجد الأمة التي لا شريعة لها، ولكنها عنيت بإصلاح شؤونها الدنيوية، لا تألو جهداً في كبحها لجماح كل من تَعبَّدَه الهوى في نظر عقولهم، ويسمونه السياسة المدنية.

كما أن إيداع الأنفس في أسر الضغط وحرمانها من سائر حظوظها، يثبطها عن النهوض بأعباء ما يضرب عليها من التكاليف، فمن الحكمة أن يُتوخى بها طريق معتدل يكون بين ذلك قواماً.

ولما كان العقل وحده غير كاف لتحري ذلك الطريق، فأحياناً يهمل النظر، وآونة يهوي به الخطأ في مكان سحيق، جاءت الشريعة المحمدية في الاحتياط لدرء كل مفسدة، وجلب كل مصلحة بالحكمة البالغة، وما يعقلها

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

إلا العالمون. افتكت إرادة الأنفس من داعية الشهوات، ولم تحل بينها وبين التمتع بحظوظها جملة بشهادة كثير من الآيات البينات.

فمما يؤيد المعنى الأول قوله تعالى ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّ﴾[المؤمنون: ٧١]، ومما يعضد المعنى الثاني قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ﴾[المائدة: ٨٧]، وقوله: ﴿قُلۡ مَنۡ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِ﴾[الأعراف: ٣٢].

ومن استقرأ أحكامها، وكشف القناع عن أسرارها، أبصر معنى انطباقها على السياسة العادلة التي تتحاشى من الإفراط وتتبرأ من التفريط، وبذلك ألفتها العقول، فأنست بها أنس الطفل بثدي أمه، واستقرت تحت سلطتها قرار ذات الصدع، تحت ذات الرجع.

فالمضطلع بأصولها، المستشعر أنها تنزيل من حكيم حميد، نزل بها الروح الأمين على قلب أكمل الخليقة لنجعلها نوراً نمشي به في الناس، يتجنب مصارع الضلال، ولا يلم بشيء من التصورات الباطلة، إلا نسف غبارها نسفاً، فيستبين سبيل الحق الذي لا غبار عليه، ولمثل ذلك فليعمل العاملون.

ولا أقسم بالذي جعلها شريعة الحق الذي لا يعارض، والعدل الذي لا ينكسر قانونه، أنه لجدير بالمسلمين أن يتمسكوا بعهدها الوثيق، ويزكوا أنفسهم من الدسائس المثقفة لهم عن التقدم إلى حياة طيبة، فيجددوا إلى الأمة سالف مجدها، ولهم من الله فضل جزيل، ومن التاريخ ثناء جميل.



الأخذ بالقول الرّاجح[1][2]

يعتمد كل من انبسطت خطاه في سنن التحقيق، على أنه لا يسوغ لأحد

---

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

(٢) جاء في العدد الخامس من مجلة «السعادة العظمى» التعليق التالي للإمام:

يقول بعض من يتخافت بالانتقاد: أن صاحب هذه المجلة أخطأ في قوله لا يسوغ لأحد أن يعمل بمقتضى القول الضعيف في خاصية نفسه، أو يفتي به صديقه، بل العمل في مذهب مالك جرى على خلاف ذلك وهو الجواز، وما قاله هذا المنتقد ورام به الدخول في زمرة المتفقهين، يبطله ما حققه أئمة المذهب في الكتب العالية.

قال موضح أسرار الدين «أبو إسحاق الشاطبي» في «موافقاته»: «كما أن المجتهد لا يجوز في حقه اتباع الدليلين معاً، ولا اتباع أحدهما من غير اجتهاد ولا ترجيح كذلك لا يجوز للعامي اتباع المفتيين معاً، ولا اتباع أحدهما من غير ترجيح، وقول من قال: إذا تعارضا عليه تخير غير صحيح، لما تقدم من الأصل الشرعي وهو أن فائدة وضع الشريعة إخراج المكلف عن داعية هواه، وتخييره بين القولين نقض لذلك الأصل وهو غير جائز، فإن الشريعة قد ثبت أنها تشتمل على مصلحة جزئية في كل مسألة، وعلى مصلحة كلية في الجملة، أما الجزئية فما يعرب عنها دليل كل حكم وحكمته، وأما الكلية فهي أن يكون المكلف داخلاً تحت قانون معين من تكاليف الشرع في جميع تصرفاته اعتقاداً، وقولاً، وعملاً، فلا يكون متبعاً لهواه كالبهيمة المسيبة حتى يرتاض بلجام الشرع». إلى أن قال: «ليس للمقلد أن يتخير في الخلاف، كما إذا اختلف المجتهدون على قولين، فوردت كذلك =

= على المقلد فقد يعد بعض الناس القولين بالنسبة إليه مخيراً فيهما، كما يخير في خصال الكفارة، فيتبع هواه وما يوافق غرضه دون ما يخالفه، وربما استظهر على ذلك بكلام بعض المفتين المتأخرين، وقواه بما روي من قوله عليه السلام «أصحابي كالنجوم» وقد مر الجواب عنه، وأن صح فهو معمول به فيما إذا ذهب المقلد فاستفتى صحابياً أو غيره فقلده فيما أفتاه به فيما له أو عليه، وأما إذا تعارض عنده قولا مفتيين فالحق أن يقال: ليس بداخل تحت ظاهر الحديث، لأن كل واحد منهما متبع لدليل عنده يقتضي ضد ما يقتضيه دليل صاحبه، فهما صاحبا دليلين متضادين، فاتباع أحدهما اتباع للهوى، فليس إلا الترجيح بالأعلمية وغيرها، وأيضا فالمجتهدان بالنسبة إلى العامي كالدليلين بالنسبة إلى المجتهد، فكما يجب على المجتهد الترجيح أو التوقف كذلك المقلد، ولو جاز تحكيم التشهي والأغراض في مثل هذا، لجاز للحاكم وهو باطل بالإجماع، وأيضا فإن ذلك يفضي إلى تتبع رخص المذاهب من غير استناد إلى دليل شرعي، وقد حكى ابن حزم الإجماع على أن ذلك فسق لا يحل، وأيضا فإنه مؤد إلى إسقاط التكليف في كل حالة مختلف فيها، لأن حاصل الأمر مع القول بالتخيير أن للمكلف أن يفعل إن شاء ويترك إن شاء، وهو عين إسقاط التكليف، بخلاف ما إذا تقيد للترجيح، فإنه متبع للدليل، فلا يكون متبعاً للهوى ولا مسقطاً للتكليف» اهـ.

وقال القرافي: «إذا كان في المسألة قولان، أحدهما فيه تشديد، والآخر فيه تسهيل، فلا يفتى العامة بالتشديد، والخواص وولاة الامور بالتسهيل، وذلك قريب من الفسوق والخيانة، ودليل على فراغ القلب من تعظيم الله تعالى».

تأييد ما قاله هذان المحققان، أن الشريعة عامة بحسب المكلفين، لا يختص بأحكامها الطلبية بعض دون آخر، وهذا الأصل جار مجرى البديهيات، وهو يقتضي أن لا يعمل الإنسان إلا بالقول الراجح، كما أنه لا يفتي غيره إلا به، لأن ذلك هو حكم الشارع، فإذا تجاوزه إلى العمل بغيره، فقد انسلخ عما كلف به ودخل تحت العمل على مقتضى شهوة النفس، ومن ثم صرح الفقهاء بأن فائدة ذكر =

أن يعمل بمقتضى القول الضعيف في خاصية نفسه، أو يفتي به قريبه أو صديقه فضلاً عن التجاهر به للجمهور، طبقاً لما قرره المحققون من الأصوليين والفقهاء.

وسرُّ هذا الأصل، أن الأقوال الشاذة إما أن تكون مائلة إلى الشدة أو الانحلال، وكلاهما على خلاف مقصد الشارع حسبما مهدناه في المقالة الافتتاحية.

ومنهم من أغفل هذا الأصل، فتجده يورد الخلافات في صورة الاستدلال على الإباحة، حتى إذا سأل سائل عن حكم نازلة متطلباً لما هو الأصلح له في نظر الشرع الحكيم، رده على عقبه إلى ما كان عليه من التخيير المطلق، فقال له:

في مسألتك قولان، ويعني بذلك إفتاءه بالجواز من غير دليل يدل عليه سوى ما جرى في المسألة من الخلاف، وما علم أن للشارع حكماً مسمطاً ينزع بالمكلف من الانخفاض لسلطان الشهوة التي هي عين ذلك التخيير.

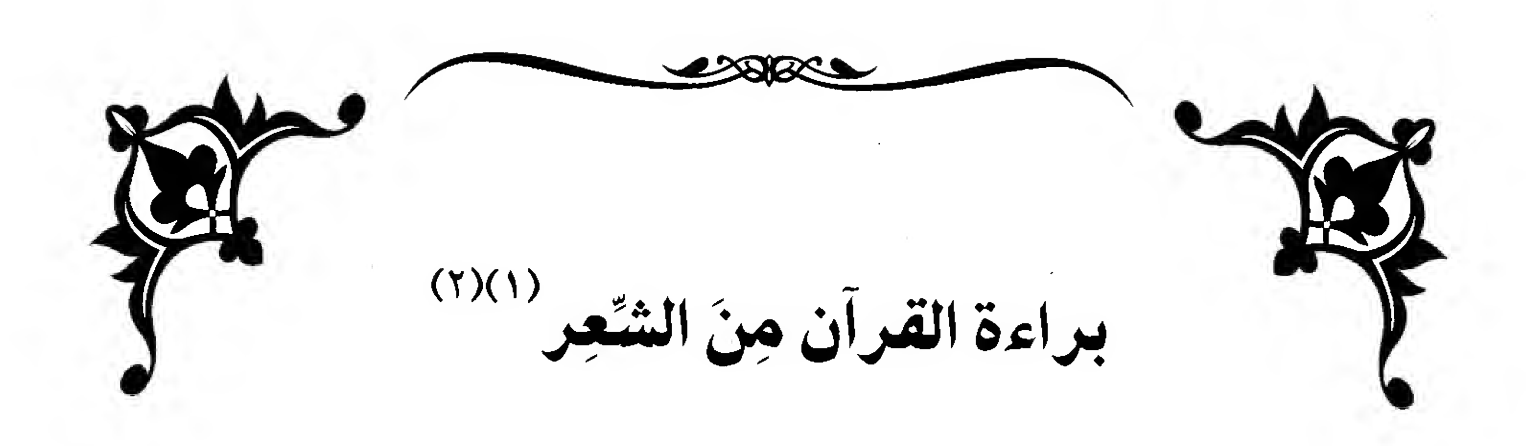
= الأقوال الضعيفة أمران: اتساع النظر ومعرفة مدارك الأقوال، وليعمل المكلف بالضعيف في خاصية نفسه إذا تحقق الضرورة، ولا يجوز للمفتي أن يفتي بغير الراجح خوف أن لا تكون الضرورة محققة.

ولعل هذا هو الذي اشتبه على المنتقد، ومن زاد النظر بسطة لم يجد العمل بالقول الضعيف عند تحقق الضرورة خروجاً عن القول الراجح، لأن القول الراجح إذا اقتضى المنع مثلاً كان المنع مقيداً بانتفاء الضرروة قطعاً، فكأن صاحبه يقول: يُمنع فعل كذا ما لم تدع إليه ضرورة فيفعل، وعليه فلا يكون في الفعل عند تحقق الضروة عدول عن القول الراجح أصلاً، ولا توفيق إلا بالله.

وبالجملة فإن مَنْ عدل عن الأقوال الراجحة لغير ضرورة شرعية فقد ضل ضلالاً بعيداً.

«قال أبو بكر بن العربي» عند قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[الإسراء: ٣٦] «إن المفتي إذا خالف نص الرواية في نص النازلة، وعدل عن قول من يقلده فإنه مذموم داخل في الآية، ومن قال من المقلدين هذه تخرج من قول مالك في موضع كذا فهو داخل في الآية»، فإن قيل: أنت تقول هذا وكثير من أهل المذهب يقولون هكذا: قلنا، نحن نقول هذا في ترجيح أحد القولين، لا على أنها فتوى نازلة يعمل عليها السائل، فاذا جاء السائل عُرضت على الدليل الأصلي لا على التخريج، فيقال: له الجواب كذا فاعمل عليه.

* * *



براءة القرآن مِنَ الشِّعر[1][2]

كان النبي ﷺ أفصح ولد آدم، ولكنه حجب عنه الشعر لما ادخره الله له في ضمير الغيب من جعل فصاحة القرآن معجزة له ودلالة على صدقه، بشهادة قوله تعالى: ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ﴾[الحاقة: ٤١] الآية. وقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشِّعْرَ وَمَا يَنبَغِي لَهُ﴾[يس: ٦٩].

وقد اعترض جماعة من فصحاء الملحدة في نظم القرآن بآيات يريدون بها التلبيس على الضعفة، منها قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ

(١) العدد الثالث ـ الصادر في صفر ١٣٢٢.

(٢) أورد الإمام في العدد الثالث من مجلة «السعادة العظمى» التعليق التالي:
ورد على ما حررناه في العدد الثاني من المجلة تحت عنوان: «براءة القرآن من الشعر»، أن قوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾[الحجر: ٤٩] كلام تام، وعليه فلا محيص من الرجوع إلى الجواب العام الذي هو مراعاة القصد الأولي، وجوابه أن الآية لا تكون على وزن شيء من الشعر إلا بإشباع الميم من قوله: ﴿الرَّحِيمُ﴾، وإذا أشبعت لم يكن قرآناً، هذا وقد أورد «الفخر الرازي» في تفسيره قوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا﴾[آل عمران: ٩٢] الآية، ولم يذكر إلا ذلك الجواب العام مع أنه لا يوافق وزن مجزوء الرمل الذي ادعوه إلا بحذف النون من قوله: ﴿تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢] أما قوله تعالى: ﴿وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ﴾[سبأ: ١٤] الآية، فجوابه أنه غير تام لتوقفه على ما قبله من جهة عطفه عليه.

عَلَيۡهِمۡۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ ﴾[المائدة: ١١٧] قالوا: «إن هذا من بحر المتقارب»، قلنا: «إنما يقول هذا من لا خلاق له في هاته الصناعة، لأن الذي ينطبق على وزن هذا البحر من الآية قوله: ﴿فَلَمَّا﴾ إلى قوله ﴿كُلِّ﴾، وإذا وقفنا عليه لم يستقم الكلام، وإذا أتممناه بقوله: ﴿كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾ خروج عن وزن الشعر».

ومنها قوله تعالى: ﴿وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴾[التوبة: ١٤] ادعوا أنه من بحر الوافر، قلنا: «هذه الدعوى على جانب عظيم من الفساد، لأنها إنما تكون على وزن هذا البحر، إذا زيدت فيها ألف بإشباع حركة النون، وأشبعت حركة الميم في قوله ﴿وَيُخۡزِهِمۡ ﴾، وإذا غُيِّر لم يكن قرآناً، وإذا قرأ على الأصل لم يكن شعراً».

ومنها قوله: ﴿وَجِفَانٖ كَٱلۡجَوَابِ وَقُدُورٖ رَّاسِيَٰتٍ﴾[سبأ: ١٣] زعموا أنه من مجزوء الرمل، وهذا باطل أيضاً، لأنه إنما يكون من هذا الوزن إذا زيدت فيه ياء بعد الباء في قوله ﴿كَٱلۡجَوَابِ﴾، وإذا حذفت فليس بكلام تام على وزن شيء.

ومنها قوله: ﴿قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوۡمٖ لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ عَنۡهُ سَاعَةٗ وَلَا تَسۡتَقۡدِمُونَ﴾[سبأ: ٣٠] قالوا: «هذه آية تامة على وزن بيت من الرمل»، وهذا غلط فاحش، لأنها إنما تكون من وزنه إذا حذف من قوله: ﴿لَّا تَسۡتَـٔۡخِرُونَ ﴾ لا النافية والياء والسين، وتوصل يوم بقولك تأخرون، وتقف على النون من قولك تأخرون، فتقول: تأخرونا بالألف، وإذا قرأناه كذلك لم نتبع قرآنه، ومتى قرآناه على أصله فما هو بقول شاعر.

ومنها قوله: ﴿وَدَانِيَةً عَلَيۡهِمۡ ظِلَٰلُهَا وَذُلِّلَتۡ قُطُوفُهَا تَذۡلِيلٗا﴾[الإنسان: ١٤] ادعوا

أنه من بحر الرجز، وهذه الدعوى من الطراز الأول، لأنه إن قرئ بإسكان الميم يكن على وزن فعول، وليس في بحر الرجز فعول، وإن أشبعت حركة الميم لم يكن من هذا البحر إلا بإسقاط الواو من ﴿وَدَانِيَةً﴾، وإذا حذفت الواو بطل الكلام.

ومنها قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ﴾[الماعون: ١ ـ ٢] زعموا أنه من الخفيف، قلنا: «زعمتم ولكنكم أخطأتم، لأنه لا يكون من هذا الوزن إلا بحذف اللام من قوله: ﴿فَذَٰلِكَ﴾، وبإشباع الميم من قوله: ﴿ٱلْيَتِيمَ﴾، فيكون اليتيما، والقراءة سنة متبعة لا مبتدعة».

ومنها قوله: ﴿إِنِّى وَجَدتُّ ٱمْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَىْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾[النمل: ٢٣] قالوا: «هذا من بحر الرجز»، وقلنا: «افتريتم على الله كذباً، لأن الذي يوافق هذا الوزن من الآية قوله، ﴿إِنِّى وَجَدتُّ﴾ إلى قوله: ﴿عَرْشٌ﴾، والكلام غير التام لا يكون شعراً»، فإن قالوا: «يقع قوله: ﴿عَرْشٌ عَظِيمٌ﴾ بعد ذلك إتماماً للكلام على معنى التضمين»، قلنا: «التضمين إنما يكون في بيت على تأسيس بيت قبله، وأما أن يكون التأسيس بيتاً والتضمين أقل من بيت فذلك ليس بشعر عنه أحد من العرب».

وخلاصة هذا المطلب، أنك لا تجد آية تامة أو كلاماً تاماً من القرآن على وزن بيت تام من الشعر.

وغالبهم يقتصر على جواب عام، وهو أخذ القصد الأولي قيداً في حقيقة الشعر.

* * *



العمل والبطالة[1]

لا يزال الذين ينظرون إلى ما أنزل الله بعيون حشوها التبصر، وقلوب ملؤها الاعتبار، يؤمنون بأنه لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من الإرشاد والتهذيب إلا حثَّ عليها، ولا رذيلة أو مفسدة إلا صدَّ عن سبيلها، وبذلك كان المعظِّمون لشأنه، المقيمون لشعائره في أعلى طبقة من أدب النفس وتربيتها على محاسن الشيم وتمرينها على الأعمال النافعة، وهذا مما يعرفه الذين آمنوا، كما يعرفون أبناءهم، ولكن للهمم خمود وللعزائم فترة لا يتقيظ من موتتها إلا من استفزته صروف الحوادث، وأرته كيف ترقى أمة إلى مكانة العز، وتنحط أخرى إلى وهدة السقوط، ولا تفعل ذلك إلا بمن أدركت منه رمق حياة لم يزل نبضها خافقاً. أما من سكنت إحساساته حتى التحق عند أولي البصائر ببهيمة الأنعام فلا يحس لها وجبة ولا يسمع لها ركزاً.

وإن تعجب فعجب ما يتخيله بعض من رُبِّي في مهد الجمود، من أن هذا الدين القيم لم يرشد إخوانه إلا إلى العبادات المحضة، وإنه حجاب مسدول بينهم وبين المدنية، وروَّج هذا التخيل الزائف على البسطاء وقوفهم عند ظواهر آيات وأحاديث واردة في ذم متاع الحياة الدنيا، ولو اتسعت

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢ .

خطواتهم في التدبر لأبصروا ما هو التحقيق، وإيضاحه أن الشارع يفعل بالمكلف فعل الطبيب الرفيق إذا أصابت المريض علة بانحراف بعض الأخلاط، قابله في معالجتها على مقتضى انحرافه في الجانب الآخر ليرجع إلى الاعتدال.

لما آمن الناس وظهر من بعضهم ما يقتضي الرغبة في الدنيا رغبة ربما أمالته عن الاعتدال في طلبها، قال عليه الصلاة والسلام: «إن مما أخاف عليكم ما يفتح لكم من زهرات الدنيا»، ولما لم يظهر ذلك منهم ولا مظنته، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾[الأعراف: ٣٢]، ولما ذمَّ الدنيا ومتاعها، همَّ جماعة من الصحابة رضوان الله عليهم أن يتبتلوا ويتركوا النساء واللذة والدنيا وينقطعوا إلى العبادة، فرد عليهم رسول الله ﷺ، ودعا لأناس بكثرة المال والولد بعد ما أنزل الله ﴿إِنَّمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَأَوْلَٰدُكُمْ فِتْنَةٌ﴾[التغابن: ١٥] وأقر الصحابة على جمع الدنيا والتمتع بالحلال منها، ولم يزهدهم ولا أمرهم بتركها إلا عند ظهور حرص أو وجود منع من حقه، وقد كان المتعبدون من قبل يترهبون بالتخلي عن أشغال الدنيا وترك ملاذها والعزلة عن أهلها وتعمد مشاقها، فنفاها النبي ﷺ ونهى المسلمين عنها فقال: «لا رهبانية في الإسلام»، ومن الآيات الشاهدة لهذا الغرض قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ﴾[القصص: ٧٧]، لما وقع الأمر بصرف المال إلى الآخرة في قوله: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[القصص: ٧٧] بيَّن الواعظ بعد بقوله: ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾ أنه لا بأس بالتمتع بالوجوه المباحة ما لم يكن صاحبها عن الواجبات في شغل شاغل، قال مادح عمر بن عبد العزيز:

فلا هو فـي الـدنيا مـضيع نـصيبه ولا عرض الدنيا عن الدين شاغله

وعلى نحو هذا جرى ذكر التجارة في معرض الحط من شأنها، حيث شغلت عن طاعة، في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْا تِجَارَةً أَوْ لَهْوًا﴾[الجمعة: ١١] الآية، ولما فقد ذلك المعنى العارض ذكرت، ولم يهضم من جانبها شيء، كما في قوله تعالى: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ﴾[النور: ٣٧]. فقد أثبت لهؤلاء الكمل أنهم تجار وباعة، ولكنها لم تشغلهم ضروب منافع التجارة عن فرائض الله، وهذا قول المحققين في الآية.

أما ما يقوله بعضهم من أنه نفى كونهم تجار أو باعة أصلاً، فخلاف ظاهر الآية، والسر في اختصاص الرجال بالذكر، أن النساء لسن من أهل التجارات والجماعات وما ينبغي لهن ذلك، كما أن تخصيص التجارة من بين سائر أسباب الملك، لكونها أغلب وقوعاً، وأوفق لذوي المروءات، ومما يزداد به هذا المقصد بياناً قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾[الأعراف: ٣١]، فقد بين بهاته الآية أن الزينة من علائق العبادة، وأنها غير منافية، وأن العبادة تستدعي الإعراض عن اللذات الحسية المعتدلة، وبالجملة فإن الآيات التي تحث على العمل والكسب كثيرة قال تعالى: ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[الجمعة: ١٠]. ﴿اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[الجاثية: ١٢]. ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾[المزمل: ٢٠].

فالحكيم الخبير من يقدِّر الوقت حق قدره، ولا يتخذه وعاء لأبخس الأشياء وأسخف الكلام، ويعلم أنه أجلُّ شيء يصان عن الإهمال والإضاعة،

ويقصره على المساعي الحميدة التي ترضي الله وتنفع الناس، وبذلك ينتشر العمران في أطراف البلاد، وتتوفر مواد الصلاح وتنقطع أسباب الفساد، وذلك هو معنى المدنية.

أما من كتب على نفسه البطالة، فقد رضي لها بأسوأ الحرف وأخسها، إذ لا صنع لهذا المحترف غالباً إلا التمضمض بكلمات التشنيع والتسخط على ما يفعله غيره، وإن غزرت فائدته، ولا تراه إلا متردداً على المجالس التي تساق إليها بضائع اللغو؛ ليكون أحد الحاملين لأسفارها، ومما يعجب منه أنك تجد الرجل يحسن القراءة، وحواليه كتب مفيدة يمكنه أن يقتبس منها فوائد يستضيء بها صدره من ظلمات الجهالة ولا يفعل، وتجد آخر يتقن صناعة، أو له استعداد لإتقانها، وليس له حركة إلا الانتشار في الطرق، كأنما أوجر على قيسها، ولا توفيق إلا بالله.

* * *



حياة الأمّة[1]

لتجدن أشد الناس فتوراً وأضعفهم عقدة في رابطة بني جنسه، من يرى أمة متمسكة بأذيال المدنية ساعية وراءها بحركات تبهر العيون وتدهش الألباب، ترفل في ملابس الرفاهية تحت ظلال عز مكين، ويشاهد أمة أخرى في أسوأ منظر من خشونة الحال وشظف العيش وجهومة المسكنة، ثم لا يسأل الناس إلحافاً عن الأسباب التي ترتفع بها قواعد العمران، والعلل التي تخرُّ بها على عروشها.

من الناس من لا يعرف للحياة معنى سوى ما يشاركه فيها أخس الحيوانات، حتى إذا نال طيباً في مطعمه، وليناً في مضجعه، قال: «على الدنيا العفاء»، وإن لم يكن آمناً في سربه. فلا وربك إن للأمم حياة وراء الصفة التي تقتضي الحس والحركة، وبها تقف في مصاف المستظلين بسُرادق السعادة.

حياة الأمة بتعاضد أفرادها على صيانة سياجها المدني من الاضمحلال، وتدعيم أصوله بيد الإتقان والاختراع. حياة الأمة بنهوض أبنائها إلى قرع أبواب التقدم جهد أنفسهم، رغماً عن أنوف الذين يئسوا منه، ورضوا بأن

---

(١) العدد السادس ـ الصادر في ١٦ ربيع الأنور ١٣٢٢.

يكونوا مع الخوالف، وطفقوا يدسون في كل مهجة سم الذل والخور، بعد استفراغها من نخوة العز والشهامة. حياة الأمة بانصراف وجهائها إلى توفية المصالح العامة حقها وإيثارها على مصالحهم الخاصة، وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله. حياة الأمة بتحمل كل طائفة منها حظاً عظيماً من وسائل لوازمها البدنية والعقلية، وسدِّ كل ثلمة من الحاجات ما تزايدت، ولنضرب لذلك مثلاً:

الفلاحة التي هي أقدم الصنائع وأجداها نفعاً، عبارة عن عمارة الأرض، باستصلاحها واستثمار نباتها، فإذا أمعنا في الأعمال التي تتألف منها هذه الصناعة، وهي إثارة الأرض، وازدراعها وعلاج النبات، وتعهده بالسقي والتنمية، إلى بلوغ غايته، ثم حصاده واستخراج حبه من غلافه، رأينا في مباشرتها ضروباً من المعاناة لا يهون على العملة اقتحام أخطارها إلا رجاؤهم لاستدرار خيراتها من بعد، فإذا استحدثت آلات جديدة، وابتكرت طرق تخفف وطأة تلك المصاعب، وتعظم بها نتائج الاستغلال، أفلا يجدر بنا أن نضرب فيها بالسهم الوافر طبقاً لما أمرنا به من الاقتصاد في الأموال، وتربية فوائدها، والتباعد عن الحرج والمشقة ما استطعنا لليسر سبيلا؟. ومن له ذوق في الشريعة، واطلاع على كمالاتها، يعلم أن الأعمال الاعتيادية مدار أحكامها على رعاية المصالح وجوداً وعدماً، فلو لم تقم نخبة من أهل النهضة، يغتنمون استجلاء تلك الطرق وتعليمها لأبناء الوطن، مجاراة لمن اتخذها وسيلة لاستعمار الأرض فكملت بها قوته، وازداد بها ملكه وثروته بسطة، لبقيت خدشة في وجه الجامعة الإسلامية، وهكذا سائر الصنائع التي تمس الحاجة إليها، ينبغي الأخذ فيها بالطرق التي هي أيسر كلفة وأربى

فائدة، وقد حكم العيان بأن الآلات الجديدة خففت كثيراً من الأعمال التي لا تبلغ غايتها إلا بشق الأنفس.

الحاجات التي تعتري هذه الجامعة، يقوم بسدادها كل فرد مما عدا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان، وينقسم القائمون بذلك السداد إلى أربع طبقات:

الطبقة الأولى: طائفة تدبر أمور الرعية بحفظ حقوقها عن الضياع، ويبلغ ذلك الحفظ أشـده بالفحص عن المفاسـد لتقتلع جراثيمها، والبحـث عن المصالح لتقام أركانها على أسس ثابتة.

الطبقة الثانية: طائفة تتميز بنشر المعارف بعد أن يشدّوا عراها بمثقف الفكر، ويطووا عليها كشح التحقيق، ويسيروا بالتعليم في طريق معتدل؛ لكيما تصل حركاته السريعة بالمتعلمين في وقت وجيز إلى الرتبة الكافية لمن اقتصر عليها، سواء في ذلك علم الحلال والحرام، وما يستعان به عليه كعلوم العربية والحساب والهندسة، أو العلوم التي تعود على الوطن بعوائد الثروة وتحسين الحال كالصنائع، فإن تعلمها فرض كفاية أيضاً. مع تجمل المعلم بالتؤدة والأناة التي هي سمات النبوءة والتلبس بمكارم الأخلاق تلبساً علمياً فإن ذلك نوع من التعليمات التشخيصية التي هي أقوى تأثيراً في النفوس المستعدة لانطباع الكمالات، وأفٍ ثم أفٍ من التصنع في الهيئات الذي ينحرف بصاحبه عن خطة أهل المروءات والآداب.

الطبقة الثالثة: طائفة من أرباب اليسار، تدير دولاب التجارة بترويج المصنوعات وتصريف المحصولات.

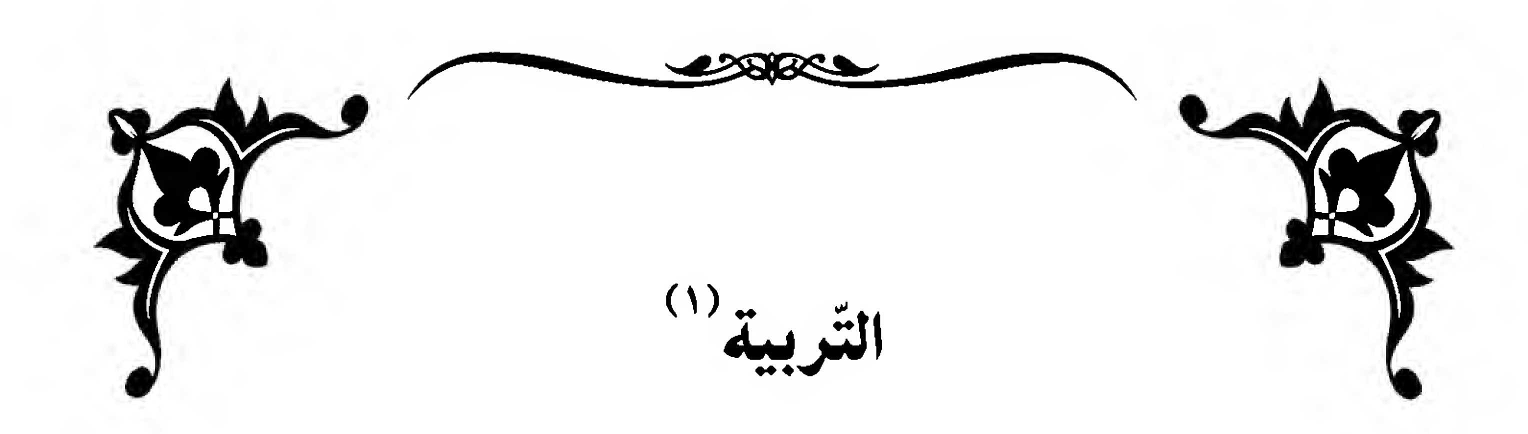
الطبقة الرابعة: طائفة عظيمة تتصـدى للاشـتغال بالصنائـع وتجويـد

صنعتها، وبمقداره يرتفع شأنها ويزخر نفاقها، ولا يتسنى إحكامها بأخذها عن أربابها الماهرين، وينبغي أن يكون غالب أهل البلد هم أهل هاته الطبقة، لأن الصنائع هي العنصر الذي تقام عليه سوق التجارات ومعظم أسباب العمران.

إن قلت: مَنْ المستضعف من الرجال الذي لا ينتظم في سلك هذه الطبقات؟

قلنا: رجل يجب على من جرت في عروقهم دماء الغيرة على حياة جامعتهم أن ينكثوا منه الأيدي، وهو كل من ضربت على نفسه ذلة وصغار، حتى تخدرت مشاعره، وأصبح كالعضو الأشل متعلقاً ببني جلدته، الذين هم كالجسد الواحد في التآزر على إحياء مجد آبائهم السابقين الأولين دون مبالاة بطعن طاعن، أو انتقاد منتقد، فتهرع الألسن لنشر مفاخرهم، وتستبق أقلام الكرام الكاتبين لنشر مآثرهم جزاء بما كانوا يعملون.

* * *



التّربية[1]

ألم يأن للذين آمنوا أن تكون لهم آذان صاغية وقلوب واعية، فيستجيبوا لله وللرسول إذا دعاهم لما يحييهم! يحييهم كتاب الله إذا تشبعت عقولهم بأنوار مواعظه الحسنة، وإرشاداته الصحيحة، وارتبطوا بالعمل به ارتباطاً يهن كيد المردة عن نقض عراه، حتى إذا رسخ في أذواقهم طعم شجرته المباركة، استقذروا ما ترميه أفواه الذين اتبعوا أهل المدنية الحديثة المصفدين بأغلال التقليد لهم في كل مثال جديد.

ذلك التقليد الأعمى، علته سوء التربية الأولى، وعدم ارتواء النفس من أول النشأة بمحاسن الشريعة الغراء، ومن ثم كان الغالب على من شبّوا في كفالة المقدِّرين لها حق قدرها علماً وعملاً، شرف الوجدان وسلامة القصد، والاستماتة في مدافعة الشُّبه التي تحركها استحسانات النفوس الكدرة، ولعلك تتلو قوله تعالى: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا﴾[مريم: ٢٨] فتجد المنكرين عليها فيما اتهموها به، أرادوا بنفي البغي والسوء عن أبويها المبالغة في توبيخها عما يراها الله منه تنبيهاً على أن من كان أبواه صالحين ليس من شأنه التجرد عن طورهما والتردي بغير ردائهما، وما كان ينبغي له إلا أن يسلك سنن أعمالهما الصالحة شبراً بشبرٍ وذراعاً

---

(١) العدد السابع ـ غرة ربيع الثاني ١٣٢٢ .

بذراع، كما أنك تجد أكثر الناشئين في جحور السفلة، أو من أطلقت حبالهم على غواربهم زمن الحداثة في أفظع حال من فساد الأذواق، وعدم الخضوع لسلطة الأحكام الدينية، والانخداع بالظواهر المزخرفة عن الغوص على الحقائق التي لا يُلقَّاها إلا ذو حظ عظيم من الحكمة.

تَعجَبُ العامة لرجل يبرع في فنون كثيرة، ويبدع في التصرف في مباحثها المشكلة، فيفرغها في قالب التحقيق، حتى إذا فاوضته في أي علم منها، خيل لك أنه الواضع لأصوله، ولا تلبث زمناً يسيراً تجس نبض أخلاقه إلا وجدت فيها عوجاً وأمتاً، أما الفيلسوف النقّاد فلا يرى ذلك شيئاً عجاباً للنكتة التي لوَّحنا إليها، وهي سوء التربية الأولى، والدليل على ما نقوله أن الصبي يولد على الفطرة الخالصة والطبع البسيط، فإذا قوبلت نفسه الساذجة بخلق من الأخلاق، انتقشت صورته في لوحها، ثم لم تزل تلك الصورة تمتد شيئاً فشيئاً إلى أن تأخذ بجميع أطراف النفس، وتصير كيفية راسخة فيها، حائلة لها عن الانفعال بضدها، يؤيد هذا أنَّا إذا رأينا من الغرباء من هو لطيف الخطاب، جميل اللقاء، مهذب الألمعية، لا نرتاب في دعوى أنه ممن أنبته الله في البيوت الفاضلة نباتاً حسناً.

ومن الناس من يدرك أن التقام الأطفال لثدي التربية، مما يؤثر في نفوسهم إصلاحاً عظيماً، ولكن فرط الرأفة الذي ينشأ من التغالي في حبهم، يكسر من صلابة الآباء شيئاً كثيراً، فيدفعهم عن مكافحة طباع أبنائهم الرديئة ومقاومتها بالتأديب، وينفض بهم ذلك الإهمال إلى التنقل في مراتع الشهوات الزائغة. كلاّ هذه رأفة غير ممزوجة بحكمة. التنقل في مراتع الشهوات، تتولد عنه نتائج وخيمة، تثير بين الآباء والأبناء من النفرة والتباعد بمقدار ما كان

بينهما من الحنان والمقاربة، وتصير بهم إلى أن تضرسهم أنياب الاضطهاد، وتدوسهم أقدام الامتهان.

لا نريد بكراهة هذه الرأفة المفرطة أن يفتك من الصبي سائر إرادته، ويسلب منه جميع عزائمه، كما يفعله الجاهلون بأساليب الإصلاح والتهذيب. إن ذلك مما يحول بينه وبين عزة النفس وما يتبعها من قوة الجأش، وأصالة الرأي، والإقدام على إرسال كلمة الحق عندما يقتضيها المقام، فيكون ألعوبة بيد معاشريه، كالكرة المطروحة بينهم يتلقفونه رِجْلاً رِجْلاً، أو آلة يستعملونها فيما يشتهون.

التربية النافعة ما كانت أثراً لمحبة يطفئ البأس شيئاً من حرارتها، وصرامة تلطف الشفقة نبذة من شدتها، وهي التي يستوجب بها الوالدان دعاء الولد بقوله: «رب ارحمهما كما ربّياني صغيراً»، ولما كان الابن مثالاً لمن جعله الله عليه كفيلاً ومظهراً لآثار تعود على وليه بكِفْل من جزائها، فما بالنا لا نرسم في طباع أبنائنا أشكالاً محمودة، تمثل لمن بعدنا هيئة ما كان عليه سلفهم الصالح، عوض أن ننقشها لهم في عمد ممددة أو خُشُب مسندة؟!

وخاتمة المقال، إن تعميم التربية بين طبقات الأمة شيء واجب، لا ينتظم لها العيش الناعم بدونه، ولا تشرق صحائف تاريخها بسواه.

* * *



التّقدم بالكتابة[1]

الأمة عبارة عن نظام يتألف من أفراد شتى، تجمعها جهة واحدة كالجامعة الدينية أو الوطنية، ولا يلزم في استمرار حياتها واستقامة بنيتها أن تتناسب أفرادها كالحلقة المفرغة لا يدرى أين طرفاها، بل تتفاوت رتبهم رفعة وحطة، وتختلف إرادتهم في التفنن على جلائل الأعمال وصغائرها.

سنّة الله في الذين خلوا من قبل، ولا يؤدي ذلك التفاوت والاختلاف إلى انتهاك قواها وانشقاق عصاها، ما دام أولو القوة منها، وهم علماؤها ذوو الأفكار الرشيدة، باذلين جلَّ عنايتهم وأقصى مجهودهم في تقويم المعوج من أخلاقها، وتعديل الزائغ من عقائدها، والنهي عن البدع المذمومة بألسنة من يُعتدُّ بهم في الدين، والتنفير عن العوائد التي ترتعد من هجنتها فرائص أهل البصائر، غير مشتبه عليهم ما يُهيِّج الفتن ويُحرِّك سواكن المزعجات فيتجنبونه، وما يتأيد به حق أو يدمغ به باطل فينتهزون فرصته، مع الاستطلاع على غايات ما ينشر من المصنوعات المبتدعة والفنون المخترعة، ليرتبوا أحكامها على قواعد راسخة، فما اشتمل على مصلحة شيَّدوا له ذكراً، ورفعوا له شأناً، حتى تتناوله جمهور الأمة بصدور سليمة من عقدات التحرج، وما شابه أن يكون مفسدة أو لا نتيجة له إلا الاستغراق في فضول الحضارة،

(١) العدد الثامن ـ الصادر في ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٢.

أسرعوا إلى إطفاء نيرانه قبل تسعُّرها صيانة لوجه المدنية الكبرى من أن تغشاه غبرة أو ترهقه قترة، وقياماً بحق الوراثة المنوطة بعهدتهم من قبل صاحب الشريعة، وهم على خبرة أيَّدهم الله، إن هذه المقاصد التي صعَّدنا إليها النظر، لا تنفك عنهم تبعتها إلا بإفراغ الجهد في التجاهر بما لها أو عليها، ولا أرفع صدى وأبعد مدى من لهجات أقلامهم المرتاضة، ونفثاتها الفعالة في النفوس الآخذة بمجامع القلوب.

وبذلك يتجلى في عالم الشهادة ما لساداتنا العلماء من الشرف الرفيع والمقام المحمود، ويعلم المستخفون الآن بحرمتهم، أن خطتهم أفسح مجالاً من أن تقتصر على حكاية ما بين دفتي كذا، مع التماوت في ثوب الخمول والإعراض عن النظر في كل ما يُعدُّ ظاهراً من الحياة الدنيا، وعدم الاعتبار بما تضعه بطون الليالي من الحوادث الجليلة، وفي عناية الذين أوتوا العلم بشأن الكتابة مآرب آخرى.

منها المحافظة على ما للإنشاء العربي من الأساليب المؤثرة على الأذهان، وإحياء ما اندرس من آيات سحر بيانها، وفي ذلك أخذٌ بيد الخلف إلى حيث يقفون تجاه قوم سروا في مضمار هذه الصناعة شوطاً بعيداً، ولقد نعلم أنهم لم يقيموا جدار هذا الارتقاء باستعداد زائد في فطرتهم، أو لقوة فائقة في إنسانيتهم، أو لسر خصَّه الله بأقلامهم، وإنما سلكوا مسلك الحزم والنشاط، فمسحوا عن أعينهم نوماً كان شره مستطيراً. هم رجال ونحن رجال، أقلامهم من القصب الذي ننحت منه أقلامنا، ولا يحملونها إلا بمثل أناملنا قوة وشكلاً. أما مدادهم فمن نوع ما نكتب به الحروف الهجائية لصبيان المكاتب، وأما محابرهم فليست غير تلك الظروف التي نبتاعها من الزجّاجين، ولنا أن نتخذها

زجاجات كأنها قوارير من فضة، وأما ورقهم الذي ينشرون فيه ذلك الطراز البديع فها هو ذا بين أيدينا لم ندرك فرقاً بينه وبين ما يضع فيه الباعة سقط متاعهم، ويكأنهم تقدموا وتقاعدنا، وافتكّوا عزائمهم من سلاسل التكاسل وأغلال التواني، واستماتت هممنا تحت إصرها الثقيل، ونحن بما عندنا راضون، ويقول بعض الملأ الذين استكبروا لمثل ذلك السكون فليعمل العاملون.

وههنا نكتة أخرى نستأذن حضرات القرّاء في إرسالها، وهي أن بعض الشعب يريد كل أمرئ منهم أن لا يصدع بكلمة حتى يتسلمها جميع من في العالم بيد القبول والاحترام، وإلا فلا يكلم بها إنسياً خشية أن يسترق الشياطين سمعها، علة ذلك أن قلوبهم مستضعفة لا تتجلد بالمصابرة على سهام الانتقادات الراشقة، يود الكاتب أن يخر من السماء فتخطفه الطير، أو تهوي به الريح في مكان سحيق، ولا يبدي رأياً ترده النقاد على عقبه، لما يُقدِّره من أن دحض رأيه ولو مرة تسقط به جلالته من أعين الذين يتهيبونه، مع أنه كثيراً ما يحكم على بعض الجهابذة بعدم الإصابة في عدة مسائل، ولا يهضم ذلك من جانب عظمتهم شيئاً.

ولا يختلج في ضمائرنا أن تلك الأمة التي تقدمت في طريق الأدب شعراً وكتابة، بمجرد ما تنبهوا بعد ذلك السبات المديد، انتصبوا قائمين على هذه الصورة التي نشخِّصهم بها اليوم، حتى نستصعب أن نكون غداً أو بعد غد واقفين حيالهم، ويقودنا هذا الاستصعاب إلى التمسك بحبال اليأس والقنوط والزهد في رقيهم الأسمى، بل نستيقن أنهم لم يصلوا إلى هذه الدرجة القصوى إلا بالتنقل في طريقها رويداً رويداً، ومجاهدة مصاعبها

شيئاً فشيئاً، في أزمنة متسعة.

ونحن نُؤمِّل من أبناء وطننا العزيز، أن ينزفوا غلالة جهدهم في تحرير الموضوعات المفيدة كتابة، كما صرفوا إليها وجهتم تدريساً، ويعدّوا لنبال الطعن والانتقاد ما استطاعوا من ثبات وقوة الجأش، ويُرضخوا شوكتها بالإغضاء وعدم الاكتراث برماتها «وأنا الكفيل بأن تعود حياتهم». ولقد امتلأت صدورنا جذلاً حين استهلت في وجوهنا تباشير رسائلهم العلمية والأدبية، ويوشك أن يعقبها صباح يزيد شعور إخواننا تنبهاً وعواطفهم رقة، فيكتال لهم التاريخ من جميل الذكر ما يكتاله للأمم المترقية، ويوفيهم الله أجرهم بغير حساب.

* * *



مدنيّة الإسْلام والعلوم العصريّة(١)

خذ أيها الباحث الحكيم بمجامع نظرك السديد، وجل به جولة بديعة الإحاطة في قوانين الشريعة المقدسة، التي نعت بها الكتاب العزيز. وأرشدت إليها السنّة الثابتة، ثم ارجع البصر كرتين إلى الأسباب، أسباب ارتقاء الأمم الحية وبسطها أجنحة الاستعمار في الأرض، ولتكن هكذا كل ذرة من ذرات جسمك عيناً تبصر وأذناً تصغي وفؤاداً يذكر، إلى أن تتأصل في صدرك شجرة الحكمة البارعة، وتتفرع أغصانها تحت طي لسانك، وهلم إلينا من بعدُّ نتجاذب أطراف الأحاديث بيننا بقسطاس صحيح، ولهجة صادقة لا تدخل على الأَحكام إلا من باب الإنصاف، لكيما نعلم عين اليقين أن لا سبيل إلى استيفاء لوازم الحياة الاجتماعية إلا بإقامة قواعد الدين على الوجه الذي اهتدى إليه الخلفاء الراشدون ومن كان على شاكلتهم من السلف الصالح، وهو المثال الذي لا بد لنا من محاذاته ولو بعد حين من الدهر، لأنهم أبناء العصر الذي نزل فيه القرآن، وأُخوان اللغة التي ورد على أساليبها، فهم أعرف بمساقاته وأعرق في فهم مغازيه ممن سواه.

ما تسنى لهم انتهاج تلك الطريقة الواضحة إلا لخلو جامعتهم على

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

سعة دائرتها من طائفة تجهل ماهية الحياة الصالحة، وقفت عرضة في وجوه الخلف تسد عليهم طرق العلم بأسباب الانتظام في شؤونهم السياسية والمعاشية، حتى توهم ذو بصيرة عشواء أن الإسلام والنظام لا يجتمعان، ولربما رجفت هذه الراجفة في صدور ضعفاء الأحلام من الناشئة الحديثة. ما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً!! أي مدنية قويمة لم يكشف الإسلام غشاوتها أو حضارة نافعة لم ينشر بين إخوانه لواءها؟

تسابقت الدول في طباق العمران، بمعرفة العلوم الرياضية التي من فروعها الحساب، والمساحة، وعلم التكسير، وعلم رفع الأثقال، وعلم الحيل المائية والهوائية، والمناظر، والحرب، والهيئة، والميقات، والفنون الطبيعية التي من فروعها علم الفلاحة، وعلم المعادن، وعلم الطب وفروعه، ومن كان على بيِّنة من الشريعة القيِّمة عارفاً بغايات هذه الفنون لاسيما في مثل هذا العصر الذي كشف عنَّا الغطاء وأرانا من نتائجها ما أرى، لا يسعه إلا استلحاقها بالعلوم الإسلامية، لتستخدم في بعض الشعائر المفروضة، ويتطرق بها إلى اغتنام السعادة في الدنيا التي هي الكافل للسعادة الأبدية.

ولقد فعل ذلك ذوو الفطر السليمة من علمائنا الذين لم ينكثوا أيديهم من التأسي بذلك السلف في التمتع بلذة النظر، وأخذ الأشياء النافعة من أي وجهة صدرت، فمحصوها بتطبيق أصول الديانة عليها وغرسوها في معادن معارفهم العالية، فربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ولقد أعجب من سوانا نباتها، فاستمالوا إليهم غصونها، فاستحكمت جذورها عندهم، واجتنوا منها ثمراً لذيذاً. شهد الله أن ليس الغرض من ترديد صدى هذه الجملة الأخيرة على الآذان نشر فضيلة كانت مطوية، أو الإعلان بمنة قوبلت بالكفران، كلا

ثم كلا، إن ذلك لا يجدي نفعاً ولا يطفئ لوعة، بل المراد إيقاد نار الغيرة على استرجاع ما أورثَنَاه آباؤنا الأولون.

وليست العلة في تجافينا عن هذه الفنون وعدم تعهدها بالتنمية إلى أن أصبحت بضاعتها لدينا مزجاة، إلا ما خيل إلى بعض الجاهلين بحقائقها من أنها حية تسعى، تساور الأفكار فتلسع عقائدها الصحيحة:

وإذ امــرؤ لــسعته أفعــى مــرة   تركتــه حــين يُجَــرُّ حبــلٌ يفــرق

ثم سرت عدوى ذلك الوهم إلى إحساسات كثير ممن يظن بهم القيام بأحمالها الخفيفة، ولربما تحاشى عن تعاليمها بعض العالمين بما فيها من المنافع، رهبة من إساءة الظن به واتهامه بالإلحاد الذي تزعم العامة أنه منقوش على كل سطر من صحائفها. هذا مع إخلادنا إلى الخمول إخلاد مهيض الجناح إلى الأرض، فلا تتطاول أعناقنا أو تشخص أبصارنا إلى الاستطلاع عن الوسائل التي تأخذ بساعد الأمة إلى التدرج في طبقات السؤدد والاستعلاء، فنسعى لها سعيها.

ومن الناس من أُشربوا في قلوبهم اليأس والقنوط، فلا يرجون للإسلام تقدماً، فيميتون في أنفسهم كل قوة واستعداد، ويثبطونها عن المجاراة في مثل هذه الفنون، مما يُستجلب به مصلحة أو يدرأ به مفسدة، فإذا سمعوا منادياً ينادي لمراجعة التفاتنا واستدراك ما فاتنا، نغضوا إليه رؤوسهم سخرية، كأنما تطلَّبَ نشر الأموات أو كلَّفهم البلوغ إلى أسباب السماوات. سبحانك هذا ضلال مبين ننفذ له ماء الشؤون ونأسف له أسفاً أليماً.

كما أن بعض المتدربين في هذه الفنون، قد يأخذهم التعاظم شأن المقلد الأعمى إلى أن يلقوا على أفواههم كلمات يهتضمون بها جانب العلوم الدينية

ومستتبعاتها، يرددونها بكل مكان، ويلوكونها لوك الخيل للشكائم صباحاً ومساء، غدواً ورواحاً، ويريدون أن تردى الناس جميعاً في أسواء الجهالة بها. أبمثل هاته الإرادة ينفخون في عروق الأمة حياة جديدة؟ أو لم يشعر هؤلاء بأن علوم الديانة هي عنصر المدنية الكبرى؟ ولماذا لا يقتدون بأهل النجارة والحياكة والفلاحة وسائر الصنائع؟ فإنهم على علم «أعانهم الله» أن الهيئة الاجتماعية لا يستقيم أودها إلا بحركاتهم اليومية، ولا يحومون حول هذه الآراء العقيمة التي لا تصدر إلا ممن حرم نظره من التعلق بما وراء هذه الدينا. اللهم ألهمنا طريقة عادلة يستوي على ظهرها القيِّم السائرون في مضيق الإفراط والخابطون في مهامه التفريط.

* * *



مدنيّة الإسلام والخطابة[1]

أتـى على هذا العالم حيـن من الدهـر، ومعظمه تحـت قبضـة دولتي الفارسيين والرومانيين، لا يخشون فيه منازعاً ولا يهابون معارضاً، وذلك قبل بعثته عليه الصلاة والسلام بنحو ثلاثة قرون، وانتشبت خلال هذه الأزمنة المسـتطيلة والآمـاد البعيدة بين هاتين الدولتين حـروب دمويـة كان شـررها مستطيراً، ولم تأخذهم بأبناء جنسهم المُكرَّم رأفة تغل أيديهم عما أرهقوهم به من الخسف والعدوان، وساموهم به من سوء العذاب الذي كانوا يصبُّون صواعقه على رؤوسهم صبّاً متوالياً.

انقسمت دولة الرومان سنة ٣٩٥ مسيحية إلى قسمين: قسم في الشرق، وعاصمته القسطنطينية، وقسم في الغرب وعاصمته روما، وبعد هذا التقسيم بنحو ثمانين سنة، منيت الدولة الرومانية الغربية بغارة شعواء شنتها عليهم البرابرة، اندفعوا عليهم من آسيا اندفاع السيل من عل، فأيقظوا في قارة أوروبا فتنة رمت بشواظها ذات اليمين وذات الشمال، وعاثوا فيها بأضرُب الفساد وأنواع البغي، وجعلوا أعزة أهلها أذلة، وكذلك يفعل المتوحشون.

كل ذلك يُفصِّله لك التاريخ بتبيان لا يشوبه غموض، ويذكرك بأيامه

---

(١) العدد الثالث عشر ـ الصادر في غرة رجب الأصب ١٣٢٢.

الخالية تذكرة نافعة.

ولم تزل تلك الفتن قائمة على سوقها، والجهالة المظلمة ضاربة أطنابها بمشارق الأرض ومغاربها، إلى أن انفتحت في الحجب المحدقة بأنوار الحضرة المحمدية كوة نفذت منها بوارق لمعت في جزيرة العرب أولاً، ثم انبعثت منها أشعة إلى سائر أطراف المعمورة، فقشعت ببهرتها سحائب الهجمية الغالبة، وأخمدت نيران الضلالة المرهقة، وإن المنصفين من مؤرخي الإفرنج على ذلك لمن الشاهدين. قال أحد فلاسفتهم وكتّابهم «شارل ميسمر» في كتابه «تذكار العالم الإسلامي»: «الإسلام أفاد العالم، فيلزم أوروبا أن تحافظ على حياة أهله».

وقال المسيو «دروي» أحد وزراء معارف فرنسا السابقين في كلامه على الأمة العربية ـ نقلته إحدى المجلات المصرية ـ: «وبعد ظهور النبي ﷺ الذي جمع قبائل العرب أمة واحدة تقصد مقصداً واحداً، ظهرت للعيان أمة كبيرة، مدت جناحها من نهر تاج في إسبانيا إلى نهر الغانج في الهند، ورفعت على الإشادة أعلام التمدن في أقطار الأرض أيام كانت أوربا مظلمة بجهالات أهلها في القرون المتوسطة»، ثم قال: «إنهم كانوا في القرون المتوسطة مختصين بالعلوم من بين سائر الأمم، وانقشعت بسببهم سحائب البربرة التي امتدت على أوروبا حين اختل نظامها بفتوحات المتوحشين، ورجعوا إلى الفحص عن ينابيع العلوم القديمة، ولم يكفهم الاحتفاظ على كنوزها التي عثروا عليها، بل اجتهدوا في توسيع دائرتها، وفتحوا طرقاً جديدة لتأمل العقول في عجائبها».

ولعلك بعد أن تصغي إلى هذه الشهادة التي لا تختلج بريبة، تنفث في

روعك، ما لنا نرى إخوان الإسلام بمعزل عن سعادة الحياة وراحة العيش، يوم أصبح غيرهم يتقلب في سعة الملك وبسطة من الرفاهية، فنجيب: «تأمَّلْ جيداً بصَّرك الله أن الوادي الذي يهيم فيه المسلمون لهذا العهد غير الطريقة التي سنّها كتاب الله وشرحت وجهتها السنَّة الصحيحة.

ما عليه غالب المسلمين الآن إنما هو مثال ينطبق عليه ما توسوس به الكتب المحشوة بالترهات الباطلة والخرافات التي تؤثر في العقائد والأخلاق خمَّة وفساداً، ككتاب «ألف ليلة»، وقصة «عنترة»، وقصة «فتوح اليمن»، وكتاب «أعلام الناس»، وكتاب «قصص الأنبياء»، المنسوب لأبي منصور الثعالبي وكتاب «مجاني الأدب»، وبعض كتب المواعظ والتفاسير المملوءة بالأحاديث الموضوعة وقصص الاسرائيليين. هذه الكتب وأشكالها هي الآن أكثر انتشاراً بين عامة المسلمين من الكتب المعتمدة، ويحسبون أن ما فيها هو من التعاليم الدينية، ولا يدرون بأنها فتحت علينا باباً من الغواية وآخر من المعرَّة لا يسدهما إلا البراءة منها وحرقها أينما وجدت، ولو طهرنا أفكارنا مما اشتملت عليه هذه الأسفار من القاذورات، وأفرغنا فيها من التعاليم الثابتة والآداب الحقة وابلاً غزيراً، لأثمرت في جوارحنا أعمالاً صالحة نستوفي أجورها مرتين.

من المسؤول أولاً عن هذا الانقلاب العظيم الذي أودى بالمسلمين قاطبة إلى مرارة العيش وكدر الأنفس وهم لا يشعرون؟

هم ساداتنا العلماء، فإنهم تنازلوا عن شيء كثير من خطتهم، وضيَّقوا في نطاقها إلى حد لا يسع إرشاد الأمة وإصلاحها، ولا ينكر ما حدث منذ أزمنة غير قريبة، وامتدت سلسلة تعسة وشقاية لهذا العصر من اتخاذ بعض المتردين برداء العلم اسم الدين شراكاً يقتنصون به مآربهم الشخصية، ومنهم

من تختم المطامع والجشع على أفواههم فيكتمون ما أنزل الله ويشترون به ثمناً قليلاً، والذي يتولى كبر هذه المسؤولية خطباء المنابر، فإن كثيراً منهم غيّروا الخطب تغييراً فاحشاً كاد يخرج بها عن دائرة حكمتها التي شرعت لها.

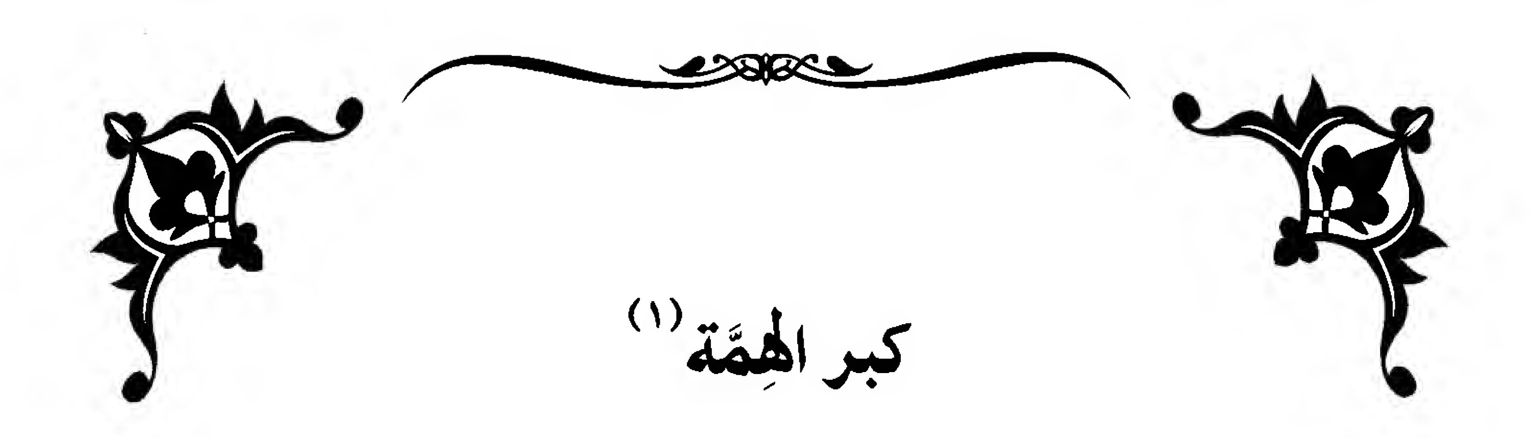
شرعت الخطب للإرشاد إلى ما غايته راحة في الدارين وسعادة في الحياتين، وما مثل الخطيب في قومه إلا كمثل الطبيب الحكيم يسلم إليه شخص ليتكفل بالمحافظة على صحته، فلا يمكنه توفية هذه المحافظة حقها إلا بتفقد بدن ذلك الإنسان وتعهده في جميع الأزمنة، فإن طرأ على بنيته اعتلال أو مزاجه انحراف بادر إلى معالجته بدوائه المناسب له، وإلا فشأنه التحذير مما تتولد منه العلل وتتعفن به الأخلاط.

وكما أن الطبيب لا يخص مراقبته بالأعضاء الرئيسية الدماغ والقلب مثلاً، ويترك ما عداه غير مأسوف عليه، كذلك الخطيب لا يقف بتذكرته النافعة عند حد العبادات المحضة، فإن التمكن من القيام بقواعدها له شروط ووسائل لا يتم إلا بها، فلا بد من استلفات الأنظار إلى استجماعها والتنشيط إلى الاستعداد فيها، ومن هنا وجب أن يكون الخطيب بحاثاً عن أحوال الأمة، متفطناً لمصالحهم الدينية والدنيوية.

إنْ أدركَ الناسَ فتورٌ عن إقامة شعائر الدين استمالهم إليها ببواعث الترغيب تارة، وقرعهم بسيوف الترهيب تارة أخرى، وإن تخبطتهم شياطين التدابر والتخاذل، عوذهم من شر عاقبتها الوخيمة برقية الآيات والأحاديث التي تحيي في نفوسهم عواطف المحبة والائتلاف، وإن آنس من أخلاقهم عوجاً وحيفاً كعدم الصدق في المعاملات والتظاهر بالمداهنة والنفاق بشبهة

أنها دهاء وسياسة، عالج استقامتها بمواعظه الحسنة وفي المواعظ شفاء الصدور، وإن خامر عزائمهم داء الفشل والتلذذ بالراحة الوقتية فقيَّدا سواعدهم عن أعمالهم الصناعية التي بلغت بها الأمم التي يضرب بها المثل في القوة والسيادة مبلغاً عظيماً، استنهضهم بلسان الشريعة السامية للمسابقة في ميدانها والمزاحمة على إحراز غاياتها، وأنذرهم سوء المنقلب الذي ينقلب فيه البطالون.

* * *



كبر الهِمَّة[1]

جرت سُنَّة الله في خلقه، أن لا ينهض بأصر المقاصد الجليلة، ويرمي إلى الغايات البعيدة، التي يشد بها نطاق السيادة الكبرى، غير النفوس التي عظم حجمها، وكبرت هممها، فلم تعلق إرادتها بسفاسف الآمال.

ولذلك لما بُعث عليه الصلاة والسلام لإسعاف الأمة بجميع وسائل الحياة الأدبية، أنشأ يؤسس مبادئ العزة والكرامة، ويعبر عن مكانتها الرفيعة باليمين والشمال، فاجتث من الأنفس شجرة الذلة من جذورها، وأعتق رقابها من الاستكانة مخافة أن تهوي بها إلى أدنى درجات الضعة والدناءة، ولم يأل جهداً في إجراء دم الشهامة وكبر الهمة في عروقها الميتة، حتى أخرجها في قالب الكمال، لا تتردد إلا على أبواب الفضائل، ولا تبسط ساعديها إلا لمبهمات الأمور.

أليس من الإيماء إلى هذا الخالق العظيم النهي عن السؤال لمن وجد طريقاً عملياً للاكتساب؟ في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «والذي نفسي بيده، ليأخذ أحدكم حبله، فيأتي بحزمة حطب على ظهره فيبيعها، فيكف الله بها وجهه، خير له من أن يأتي رجلاً أعطاه الله من فضله، فيسأله، أعطاه أو منعه».

---

(١) العدد الرابع عشر ـ الصادر في ١٦ رجب الأصب ١٣٢٢.

ومن أحكام الشريعة إباحة التيمم للمكلف وعدم إلزامه بقبول هبة ثمن الماء للوضوء، لما في ذلك من المنة التي تنقص حظاً وافراً من أطراف الهمة الشامخة، ومنها عدم إلزامه باستهابة ثوب يستر به عورته في الصلاة، وأبيح له أن يصلي عارياً صيانة لضياء وجهه من الانكساف بسواد المطالب، وليحذر الذين يحاولون الوصول إلى هذا الخلق الأسمى، أن يهرعوا إليه من طريق يدع التواضع دبر آذانهم فيعودون كما بدؤوا.

ليس من كبر الهمة الترفع عن الرجل يبسط لك وجهاً رحباً ويمنحك لساناً رطباً، وتشهد لك ألمعيتك الوقادة بمطابقة ظاهره لما يكنّه ضميره، بل ذلك نفور من النفس وجموح إلى جهة العلو بغير انتظام وهو ما نسميه كبراً.

ماذا يردع النفوس عن أن تُرى حيثما نهى الله، ويغلق في وجوهها أبواب الفسق والملاهي؟ كبر الهمة.

ماذا يقبض من الأيدي ويسد اللهى عن ابتلاع ما يدلي به الظالمون ليأكلون فريقاً من أموال الناس؟ كبر الهمة.

ماذا يوحي إلى الرجل أن يقيم لسائر تقلباته وزناً بالقسط، حتى إذا جستها يد الناقد الحكيم لم تجد في حركاتها طيشاً عن الأغراض التي ترمي إليها ذوو العقول النيرة؟ كبر الهمة.

كبر الهمة يعقد الألسنة عن الانطلاق في مجاري التملق والمداهنة، ويصفد الأقدام عن غشيان المنازل التي لا تطأ فيها على بساط الاحترام والحفاوة، كبر الهمة يصيِّر العالِم الأمين عوداً مراً ومكسراً صلباً يقف للمبتدعين المرجفين موقف الشجى بين الحلق والوريد، ويصارعهم بقول

الحق الذي تشتد عراه على أكنتهم إبراماً، كبر الهمة يستفز الموسر الكريم إلى أن يقول بمال الله الذي أتاه هكذا وهكذا، متحرياً به مصارف المبرات التي تقربه إلى الله زلفى.

يقف أحد أمام بعض الكبراء، فيسترسل في مخاطبته بثبات جأش وسكون في الأعضاء ومهل في القولِ، ويعقبه آخر ليقوم مقامه فيرجف فؤاده وترتعد فرائصه ويتعثر لسانه في أذيال الفهاهة، فهل يختلج في ضمير ذي عقل رشيد، أن الأَول اتسم بالقحة المذمومة، والآخر طبع على الحياء المحمود؟ معاذ الله، إنما هو كبر الهمة وضعفها، كبر الهمة وضعفها يمثلان لك الإنسانية بالسلك الذي ينظم خرزاً كثيراً تباينت معادنها شرفاً وحطة، واختلفت مناظرها سماجة وجمالا، فمن الناس من تسمو بهم نفوسهم إلى الوقوف على أسرار الهداية، فيتقلبون في أبوابها، ويتمسكون بأَسبابها إلى أن تعرج بهم إلى الأفق الأعلى، فيحلون من العلم بطرقها محل القطب من الرحى، وهذا الفريق هو الذي تستضيء الأمة بأنوار عقولهم، وتتوكأ على كواهلهم القوية، ولا ينوء بهم عبؤها الرزين، فيخطون بها سراعاً إلى مجادة شامخة الذرا، ويوقدون في كل شعبة منها سراجاً منيراً، ومنهم من تتضاءل هممهم حتى يتمكن الذبول والخمول من نواصيهم، فيزلقان بهم إلى الحضيض الأسفل من الحطة والرذالة، وتمحى من إحساساتهم آيات الشعور ورسوم العواطف التي يكون بها الإنسان رجلاً حقيقياً، فينشرون الخبائث نشر الفريق الأول للأفعال المحمودة، وتقهقر الأمة وشقاؤها بمقدار ما يتناسل فيها من مثل هؤلاء الأرذلين.

تجد الذين تربوا على مبدأ الإذلال والإهانة، يحبون أن تشيع فاحشة الذلة في إخوانهم الذين آمنوا، فيتغالون في إطراء كل من تزمل بثياب الهوان

وخفض لهم جناح المسكنة، وإنها لإحدى العلل التي نُخرت منها عظامنا من قبل أن يدركنا الموت الذي يجعلنا من أصحاب القبور.

أما الحر الذي ربي في مهاد العز، وفطر على كرامة النفس، فإنه لا يرفع إلا من شأن شريف الهمة، الناسج على مثال العزة التي هي من شعائر الإيمان.

وإذا استبنا أن كبر الهمة سجية من سجايا الدين، تصدر عنها الأعمال العظيمة، وتضم تحت جناحيها فضائل شتى، فلم لا نعقل عليها نفوس أبنائنا ونرشحهم بلبانها في أدوار تربيتهم الأولى؟ ليستشعروا بالآداب المضيئة، ويتجلبوا بالقوانين العادلة، ولنا حياة طيبة في العاجل، وعطاء غير مجذوذ في الآجل.

* * *



التّعاون والتّعاضد[1]

هل يستوي رجل لا يفتأ ينظر بعين التفكر والاعتبار في نظام هذه الموجودات، ويجيل أقداح البحث عن دقائق الحكم السارية فيها سريان الماء في الغصن الرطيب، وآخر نسجت على بصيرته عناكب الذهول والبلاهة، فلا ينظر إلى الإبل كيف خلقت، ولا إلى السماء كيف رفعت، ولا إلى الجبال كيف نصبت، ولا إلى الأرض كيف سطحت؟ حاشا لله. ما بين الذين يعلمون كيف وضع هذا العالم، ويدرون معنى حياة جنسهم الذي استعمره الله فيه، والذين لا يعلمون إلا ظاهراً من صوره المحسوسة، ولا يفقهون إلا اختلافها في الألوان وتفاوتها في الأشكال والمقادير، مثل ما بين الحضيض الأسفل والسموات العلى.

إن من تدرجوا في استقراء أحوال الكون شيئاً فشيئاً إلى أن وقفوا وراء غاية المرتبة الحيوانية، لأوسع براعة في التدبير المتقن لتسوية الطرق التي تتقوَّم بها ماهية الحياة الصالحة، وأطول يداً في تأسيس الدعائم التي يشيِّدون عليها صروح العزة والأبهة. إرسال نظراتك الصادقة في طبقة الحيوان على أكمل وجه وإحاطتك بأطرافها خبراً، يقيم لك على معنى قولهم «الإنسان

---

(١) العدد الخامس عشر ـ الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢.

مدني بالطبع» برهاناً جلياً، ويشرحه لك شرحاً جيداً.

نجد كل واحد، ما عدا الإنسان، من الحيوان مكتفياً بنفسه غير مفتقر في حياته إلى معونة غيره، خلقه الله مكتسياً بما يوافقه من صوف أو شعر أو وبر أو ريش أو ما أشبه ذلك، وأعطاه سلاحاً يدافع به عن نفسه، كالقرون للبقر والغنم، والحافر للفرس والحمار، والمخالب للسباع، والشوك للقنفذ، وبعض جعل له آلة العدو كالأرانب والظبي، وأودع فيه إلهاماً يتناول به ما يلائم طبيعته من الأغذية، ويهتدي به لاتخاذ كنٍّ يسكن إليه.

أما البشر فإنه خُلق على خلاف خلقة الحيوان عارياً أعزل من السلاح الذي يكون مظهراً لإباء الضيم وشدة البأس، غير مهتد لشيء من مصالحه إلا بالتربية والتعليم، فاحتاج في بقائه إلى لباس يتقي به سورة الحر والبرد، ومسكن يأوي إليه ويأنس به، وآلات يذود بها عن حرمه ويحمي بها حماه، وغذاء يدفع به ألم المخمصة، وتعلمُّ ما ينفعه ليسارع إليه ومعرفة ما يضره لينصرف عنه.

وأنت خبير بأن هذه الضرورات والحاجات، ولا سيما إذا انضم إليها ما هو من محسناتها، لا يستطيع الشخص الواحد تحصيلها بنفسه، وإن تعاظم قدره وقوي ساعده، بل لا يحمل أثقالها إلا إذا أعانه عليها قوم آخرون، فمن التمسك بقوانين العدل والإنصاف، أن تمدَّ يد المعونة لأبناء جنسك كما تطلبها منهم، وإلا نفّضوا أيديهم من مؤازرتك عند الحاجة إليهم، ويلوح إلى هذا النكتة، صيغة المفاعلة في قوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾[المائدة: ٢] وقوله: ﴿وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ﴾[العصر: ٣]، ولا يخفى على من له أدنى شعور أن المصالح العامة وسائر الأمور العظام،

لا يخفف وطأتها ويزيح من مشاقها إلا المعونات الكثيرة، ومما يومئ إلى أن للاجتماع مزية وقوة هي مفقودة في حال العزلة والانفراد قوله تعالى: ﴿قَالُواْ لَئِنْ أَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّآ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ﴾[يوسف: ١٤]، وقوله: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾[القصص: ٣٥]، وقوله: ﴿فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ﴾[يس: ١٤] إلى غير ذلك من الآيات الكريمة.

التعاون شرعاً يتمخض القصد منه في استجلاب المنفعة وإزالة الضرر اللاحق، ولو لفرد واحد من أفراد الجامعة، رعاية للأخوة الدينية، واحتراماً للعهد الذي أخذه عنه الشارع ﴿إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا﴾[الإسراء: ٣٤]، وكثير من الناس وما هم من الناس، لا تدور مقاصدهم إلا وراء منفعتهم الخاصة، فلا يتحركون إلا لمعاضدة تجر لهم نفعاً عاجلاً، فإذا استُنجدوا لقضية لا يضربون فيها بسهم ولا يستثمرون منها فائدة تخصهم، قالوا: في آذاننا وقر، بل ختم الله على قلوبهم بغشاوة الطمع ودناءة القصد وهم يعلمون، ويلتحق بهذا القبيل بعض من ضربت في نفسه الدنايا، فيقنع بمنزل يؤوي جثته، وإن أُعدَّ له في بحبوحة الخزي والهوان، وميسور من العيش يسد رمقه، وإن كان ذراع خنزير ميت تدفعه إليه يد مجذوم، وجنة تستر عورته وإن كانت أكثر دنساً من عرض لئيم فاجر، حتى إذا ظفر بما يبتغيه من هذه الشهوات الحيوانية، هاجت في صدوره الطمأنينة والسراء، وبات ريان الجفون من الكرى، ولا يعطف عنقه إحساس ديني إلى النظر، ولو بمؤخر عينه، فيما يعوز الأمة التي هو منها بمنزلة الأنملة من الراحة.

إنما رجل الدنيا وواحدها من يكون خضوعه لسيطرة الدين سجية، وعنايته بما يرفع من راية قومه جبلَّة، فلا يرى محزاً في مفاصلهم إلا واصله،

ولا يستصرخون به في مهمة إلا أجاب دعوتهم بجميع ما يملكه من الاستطاعة، يتلمح مثل هذا الرجل العظيم مبدأً من أصول الإصلاحات الكلية، فتلتهب في جأشه الغيرة، وتهب على عواطفه أرواح الفتوة، فلا يتمالك أن يستثير بأقواله السديدة همم أولي العزم من الرجال إلى وضع قاعدته على أساس متين، كراهة أن ينقصهم شيء من المواد الحيوية، فيبلغ صدى استغاثته غالباً إلى ثلاث طوائف:

أحدها: فتية شبوا في أحضان التربية والتعليم، وأخذوا من النباهة ورقة الوجدان بنصيب، فيستقبلون كل ما يلقى على كواهلهم من إرشادات الناصح الأمين بمهج ثابتة وعزم صادق لا وَنْيَة فيه، وهؤلاء هم أعضاء الأمة الذين يتركب منهم جسمها الصحيح، وهم الوقاية الضافية التي يستعاذ بها من شر الحوادث الخطيرة.

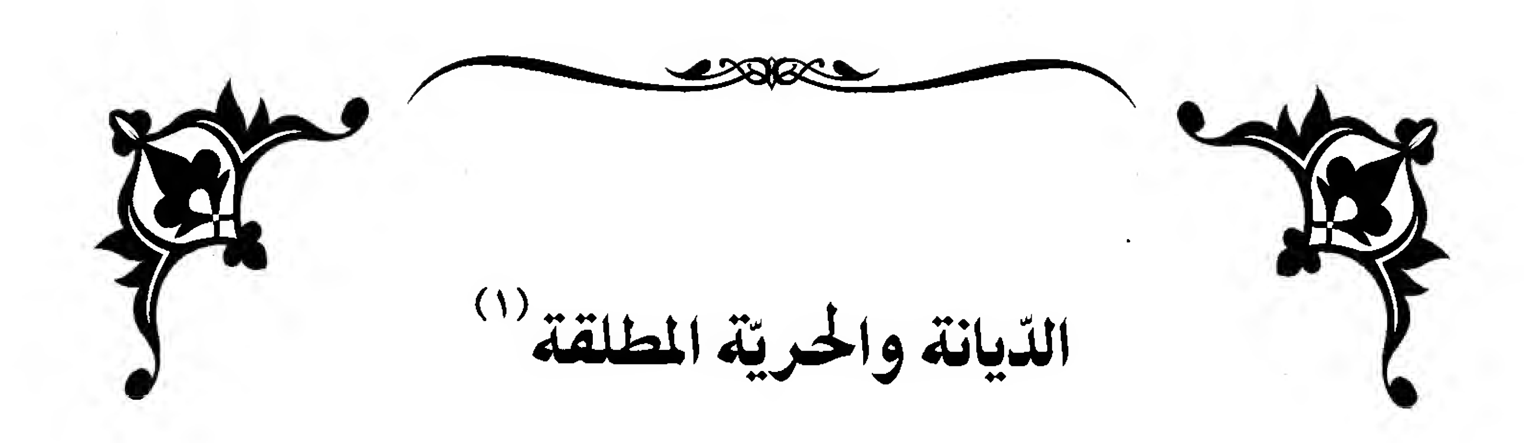
ثانيها: طائفة ضربت بها الغباوة في غمرات الجمود، فكانت دائرة نظراتها أضيق عليها من سَمِّ الخياط، فإذا عرض عليها ما تفترعه الأذهان المتسعة من الأفكار الجليلة، لم يجد للجولان فيها مساغاً، فتضرب عنه دفعة وتلفظه جملة، ويُقبل عليها الباطل في ثياب الحق، فتُفرِغ له زاوية من القبول، ولا مصدر لما يسميه أهل الدين بدعة إلا هؤلاء الساقطون.

ثالثها: ناشئة لها قابلية للدخول في مضمار السعادة، ولكنهم لم يلقوا أعنة نفوسهم بأيدي عقولهم، بل أرسلوها على غواربها، فهامت بهم في أودية شاسعة لا يسمعون فيها تذكرة الواعظين، ولو سمعوا ما استجابوا لهم.

وكل من الفئة الثانية والثالثة عقبة يعسر على مدارك الحكماء تقويم

حدبتها وإماطة أذاها عن الطريق، ولا يعلق بهما رجاء في سد منافذ البلاء عن الأمة، أو رفع شيء من سقوطها، وعلى كل حال فلا يترك تقريعهم بزواجر الموعظة واستدراجهم إلى الوحدة والمعاضدة ﴿فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾[الذاريات: ٥٥].

* * *



الدّيانة والحريّة المطلقة[1]

لو سُئل الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب، أن يشرِّعوا للناس طرائق تكون لهم أجمل مكان يستشرفون منه على حقيقة العدالة والأخلاق الكاملة، وحدوداً تلم لهم بحفظ الحقوق الإنسانية، تتناولهم إصلاحاتها ما تداولت الأيام، وتضم عليهم أزرارها أينما سكنوا، لضلت عليهم أنباؤها، وعثرت عقولهم في ذيل الحصر، وإن اجتمعوا على صعيد واحد وكان بعضهم لبعض ظهيراً.

إن البشر مهما اتسعت مداركهم، وسمت أفكارهم، لا يمكنهم الإحاطة بمطالب الحياة الاجتماعية والتوصل إلى كل ما يحتاجه الإنسان في وجوده المدني، لأن العقل الذي امتازوا به عن سائر الحيوان، وصاروا به معدن العلم ومركز الحكمة، غايته معرفة كليات الأشياء دون الاطلاع على جميع جزئياتها، فلا يكاد يدرك كل مصلحة مصلحة، ويتصور كل مفسدة مفسدة، نحو أن يعلم حسن اعتقاد الحق وحسن استعمال العدالة وملازمة العفة، لكنه قد يخفى عليه أن اعتقاد كذا حق، وفعل كذا من العدالة، وترك كذا من العفة، كمثل الفقيه، يعلم أحكام الحوادث الكونية، وليس له قوة فائقة في إعطاء الوقائع حكمها الواجب لها، أو مثل الطبيب يعلم الأدوية وخواصها،

---

(١) العدد السابع عشر ـ الصادر في غرة رمضان المعظم ١٣٢٢ .

وليسـت له مهارة في علاج كل مرض بما يلائمه، وهو المسـمى بالتطبيق، ومن أجل ذلك لم يكتف به الإلـه جـلّ وعـز في إقامـة الحجة على الناس، بل عـذر أهـل الفترات في عـدم اهتدائهـم، فقال تعالى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ﴾[النسـاء: ١٦٥]، وقـال: ﴿وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَـٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُواْ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَـٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ﴾[طه: ١٣٤]، وقـال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾[الإسراء: ١٥].

فلا جرم أن السياسة العادلة لا تأخذ منتهى غايتها إلا باستناد أحكامها إلى من أحاط بكل شيء علماً، ولو اطلعت على التواريخ العتيقة والحديثة، ودرستها درساً مدققاً، لملئت يقيناً وازدت إيماناً مع إيمانك بذلك الحق الذي هو أوضح من محيَّا النهار، ولا يرتاب فيه إلا ذو بصيرة غشيها غبار الغباوة، فلم تنعكس أشعة الحقائق في مرآتها.

فكَّر «سولون» متشرع أثينا ليسنَّ في قومه قانوناً يقشع عنهم ظلمات ما هم فيه من البغي، ويحول بينهم وبين كل جناية، فخطر على باله أن يقرع أسماعهم بروعة القانون، فشدد عليهم إصر العقوبة بتقريره القتل جزاء لكل جريمة صغيرة كانت أو كبيرة.

خفي على هذا الفيلسـوف، أنَّ جعل القتل عقوبـة ولو على الكذبـة الواحدة، فضلاً عما فيه من الإفراط في الحكومة والنقص من الأنفس، هو من الانحرافـات المفضية إلى قتل الهمم وغمـس القلوب في صبغة الجبـن والخوف، ولن تفلح أمة كُسيت بكسوة الفزع والذلة أبداً.

وأخذت «أفلاطون» وريث «سقراط» الرأفة بقومه من أن تتسرب إليهم

العدوى بالأخلاق الفاسدة من الأجانب، فقرر أن تغلق أبواب بلاده أمامهم، ولم يُحسن السياسة في ذلك لجملة أسباب، منها أن الأمة إنما تحفظ استقلالها الذاتي بالتيقظ لنوايا الأمم الأخرى، والتخرص على حركاتها الخفية، ومثل ذلك لا يحصل إلا بمداخلتهم وتبادل المعلومات معهم.

ومن جملة غلطات هذا الفيلسوف، أنه عمد إلى القطب الذي تدور عليه ترقيات الشعب وهي «التجارة» فرمقها بعين الاحتقار، لما دار في حسبانه أنها من المهن الخسيسة، فقرر في قانونه أن يعاقب كل يوناني تطمح نفسه إلى استدارة دولابها.

وظنَّ «أرسطو» أبو الفلسفة أن جميع الحرف والصنائع من الدنايا السافلة، فقرر في شريعته أن يعامل كل من يتعاطاها بحرمانه من الحقوق الوطنية، فمثل هاته القوانين لو تمسكت بها أمة ولو بضعة أيام لسقطت في دركات الشقاوة السفلى.

ذلك التشريع الذي يحمل على المناهج السوية، ويتكفل بتحديد الحقوق الإفرادية والاجتماعية، لا يتوغل في مناحيه العميقة، ويوضح ما دق من مشاكله الغامضة، إلا الدين الذي هو وضع إلهي يسوق الناس باختيارهم إلى الانتظام في أعمالهم الدنيوية والتأهل للزلفى من الله في الحياة الأبدية، وإن له عند الرجل العظيم لصولة موهوبة وسلطنة مقدسة، يخر لها صعقاً، ولا تبغي نفسه الكريمة عن السكون تحتها حولاً، لكنه عند هزيل العقل عريض الوسادة عسير الاتباع.

نريد للرجل العظيم من كمل اطلاعه على أحكامه الفرعية، وأبعد فيها نظره إلى أن رآها كيف انتزعت من مداركها الأصولية، فتوفرت في نفسه الثقة

بأن الدين حكم عدل، لا يحسن في الخليقة غير آثار تدبيره.

وما هو عريض الوسادة؟

عريض الوسادة كل من يتميز إلى الفئة التي انقضت في مستنقع الجهالة أمداً مديداً، ثم قاموا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس، ليتجردوا من أثواب الديانة المحكمة، ويستعوضوه بلباس الحرية المطلقة ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشۡتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلۡهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمۡ وَمَا كَانُواْ مُهۡتَدِينَ﴾[البقرة: ١٦]. إن إطلاق التصرف للإنسان يعمل ما شاء، وتخلية سبيله يعتقد ما سنح له، وعدم ارتباطه في ذلك بالأوضاع الدينية، لمفسدة كبرى تعم الأفراد في أشخاصها والأمم في اجتماعها.

واعتبر في ذلك بحال العرب في الجاهلية، حين كانوا أوزاعاً في مذاهبهم وأخيافاً في وجهاتهم، كل يعمل على نفاذ داعيته، لارادع من الدين يرد شكيمتهم، ولا سبيل لسلطة غالبة على كبح جماحهم، يتبين لك أن الحرية المطلقة والهمجية المقلقة أخوان لا ينفك أحدهما عن الآخر، ثم حوّل نظرك إلى زمن الرسالة، وعصر الخلفاء الراشدين، فلا تجد سبباً امتد بالإسلام في أَطراف الأرض، فاستوثق لهم ملك متماسك العرى غير إجرائهم لتلك المبادئ التي أركزها الوحي في عقولهم.

قال قائل من الذين يريدون أن ينفذوا من أقطار الشريعة المباركة: «ما لبعض شعائرها لا يعقل له معنى».

قلنا «عَدْس»[1] لم يجعل الله لأحداث السفاهة على ذوق أسرار شريعته

---

(١) العدْس: الحدس ـ القاموس.

سبيلاً، إن تكاليف الشرع على نوعين: عبادات وعادات، أما قسم العادات: وهو ما تقوم به قوانين العمران في هذه الحياة الدنيا، فقد توسع الشارع في بيان علله وحكمه الخاصة صراحة أو رمزاً كقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[البقرة: ١٧٩]، وقوله: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ﴾[المائدة: ٩١] الآية. وفي الحديث: «لا يقضي القاضي وهو غضبان». وقال: «القاتل لا يرث» إلى غير ذلك.

وأما ما كان من قبيل العبادات، كالصلاة والصوم والحج، فالأصل فيه بالنسبة إلى المكلف التعبد، وحكمته العامة الانقياد لأوامر الله تعالى، وإفراده بالخضوع والتعظيم، وقد يبين له الشارع علة خاصة، لكن التقرب إلى الله تعالى بما لم يطلعنا على حكمته، أدل على كمال العبودية له والإخلاص في التوجه إليه، لأن الإتيان بالقربات التي أدركنا حكمتها المناسبة، لا يخلو عن شائبة القصد إلى المصالح المترتبة عليها، وهو وإن لم يكن محبطاً بعملها يهضم شيئاً قليلاً من خلوصها؛ فإن قال غير متشرع: لماذا كانت صلاة الظهر أربع ركعات وصلاة المغرب ثلاثاً؟

فألقم فاه بحجر هذه النكتة الحكمية، وإن قاله متشرع، قلنا له: الله ورسوله أعلم.

* * *



البدْعة(1)

هذه الضلالة لعبت بعقول طائفة لم يتبحروا في قواعد الدين، فآلت بهم إلى التوسع في دائرته باختراع أحكام على قالب أغراضهم، يهدجون بها حول أقوام يستمعون القول ولا يتبعون أحسنه، كما أن حقيقتها تشابهت على بعض المتعرضين لضبطها، وإنا إن شاء الله لمهتدون.

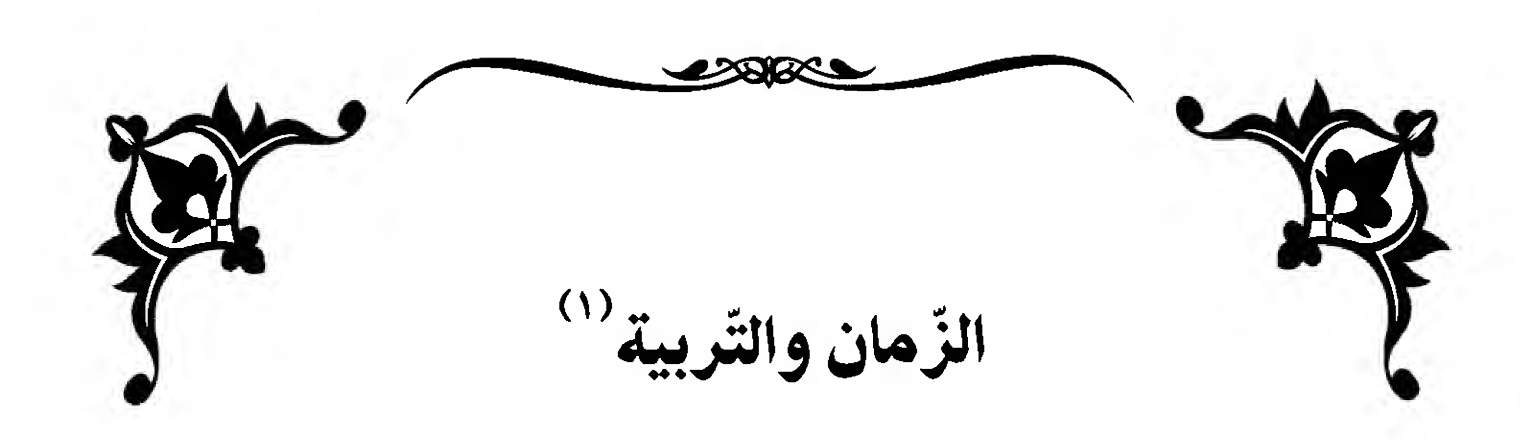
البدعة شرعاً: إحداث أمر في الدين يشبه أن يكون منه وليس منه، وإن شئت فقل: هي إحداث أمر على أنه قربة وليس بقربة لا مطلق الإحداث، إذ قد تتناوله الشريعة بأصولها فيكون راجعاً إليها، أو بفروعها فيكون مقيساً عليها، وعلى هذا فلا تشمل البدعة إلا ما كان محرماً أو مكروهاً بحسب قوة الشبهة وضعفها، فإن قويت لم يبلغ بها التحريم، وإن ضعفت جداً كانت محرمة، وإنما قسَّمها بعضهم إلى أقسام الشريعة الخمسة نظراً لمعناها من حيث اللغة، ومنه قول عمر ﷺ في شأن التراويح «نعمة البدعة هذه».

وأصح ضابط نعتمده في هذا الباب، ونجعله عروضاً للمحدثات المذمومة بألسنة من يُعتد بهم في الدين، هو أن سكوت الشارع عن الحكم على ضربين، أحدهما: أن يسكت عنه لعدم الحاجة الداعية لبيانه، كالوقائع

(1) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

التي حدثت بعد رسول الله ﷺ وعمد المجتهدون إلى استنباط أحكامها من كليات الشريعة، وما أحدثه السلف الصالح كجمع المصحف وتدوين العلوم راجع إلى هذا القسم، ومن جزئياته تضمين الصناع وسائر الفروع المبنية على رعاية المصالح المرسلة، والثاني: أن يسكت عنه وموجبه المقتضي له قائم، بحيث لم يقرر فيه حكم عند نزوله زيادة على ما كان في ذلك الزمان، فهذا الضرب السكوت فيه كالنص، على أن قَصْدَ الشارع أن لا يزاد فيه ولا ينقص، فتكون الزيادة فيه والنقص بدعة مخالفة لما قصده الشارع، وهي المشار إليها بقوله عليه الصلاة والسلام: «إياكم ومحدثات الأمور»، وقوله: «من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد» وسنأتي على بعض أمثلته في المستقبل.

* * *



الزّمان والتّربية(١)

طالعوا أيها القراء من نجوم الشريعة ضياءً، ثم استبقوا إلى غاية ترفع لقوانين التربية لواء، وناقشوا القوم الحساب، وتنفسوا في تصاريف الخطاب، فليس على الكتّاب حرج فيما يسبكونه من الفواصل، ولا على الشعراء جناح فيما ينحتونه من البيوت، إذا ما سارت أقلامهم التي ينعتونها بدعاة الإصلاح تحت مراقبة عقولهم، ولم تجر على شاكلة أغراضهم.

واعلموا أنكم لا تجدون في أعطافنا ارتياحاً وهزة لمقال تدفقت على جوانبه الفصاحة، إلا إذا وقع موقع الحكمة، وخرج بنا عن سبيل الذين لا يعلمونه، ولا ينطلي على فطنتكم المتيقظة زخرف تلك القضية «فسد الزمان ولا دواء له»، فتلصق بألسنتكم لكنة، وتطفىء من عزائمكم توقداً، فتفقدون منها حدة ونشاطاً.

تصور تلك القضية في نفوس الضعفاء من الناس، أن الأزمنة مختلفة بالحقائق اختلاف الجبن والشجاعة، ولؤم النفس وكرمها، حتى يتخيل بعضهم أنك لو حللت له قطعة من الأزمنة المرقومة بالسعادة وأذقته إياها، لوجد في مذاقها طعماً لذيذاً، ولو فعلت له مثل ذلك من هذا الزمان، لكنت جرعته

---

(١) العدد الحادي والعشرون ـ الصادر في غرة ذي القعدة ١٣٢٢ .

من طعام الأثيم ما لا يكاد يسيغه، من أجل هذه الوساوس الباطلة والأوهام العاطلة، يتخذه بعض البسطاء معذرة يلقيها إليك إذا ما قذفت ابنه أو أخاه بسوء التربية وسماحة الطبيعة.

إنما الليالي حلقات تماسكت فتكوَّنت منها سلسلة نسميها بالزمان، وإنها لأشبه ببعضها من الماء بالماء والهواء بالهواء، فما أشبه الليلة بالبارحة، وما مثل الأيام إلا كمثل أكواب من قوارير تتلون بلون ما تشغل به، فإن ضمنت سُمَّاً زعافاً لاحت فيها مخائل الاستيحاش، وإن حفظت شراباً طهوراً انطبعت فيها شمائل الإيناس.

ينظر إخوان الأنعام إلى ما بين أيديهم من الزمان بعيون حشوها الغفلة وأفئدة منزوعة من التدبر، حتى إذا مرَّ مر السحاب، وآيسوا من عوده أياس الشيخ من الشباب، سقط في أيديهم على ما فرطوا في جنب الله، وعضوا الأنامل من الندم على ما خسروه من المشروعات النافعة.

«الزمان» لا يقدِّر قيمته الثمينة حق قدرها غير رجل تلقته الحكمة من كل جهة، تمكن من جانب التبصر في حقائق الأشياء، فينظره بعين المشوق المستهام، ويستفرغ في نقده كل ما لديه من الاستطاعة، ولا يعز عليه أن يبقى نتاج ما يدفنه في بطونه من المساعي الخيرية منسية، يستأثر بباكورته اللذيذة من يولد من بعده.

إن فرغ الفؤاد من عواطف الإنسانية، لا ينسج بمساعيه إلا على المقدار الذي يعلق عليه أمل حياته، حتى إذا مكنته الفرصة من بذر ما يستأخر حصاده لعشيرته التي تجمعهم به صلة القربى، صاعرخدّه إباية ونام على صماخ أذنيه سباتاً عميقاً. بهاته الهمة نفسها حشي دماغ رجل آخر يذوق حلاوة التعليم،

ويستمرئ لذة التهذيب، ويترك ابنه ساذجاً الحد الذي يبغضه الله ويمقته الناس.

أي شهادة على سخافة مدرك الرجل وفقد شعوره، أعظم من أن يمثل أمام عينه الزمن الذي يبلغ فيه الطفل أشده، ويرسم في مخيلته كيف ينتظم في دائرة رجاله، ولا يؤهله بالتربية الحسنى لأن يكون سيداً نبيلاً.

لا يدري كثير من الناس أن الطفل واحد من رجال الأمة إلا أنه مستتر بثياب الصبا، فلو كشف لنا عنه وهو كامن تحتها لرأيناه واقفاً في مصاف الرجال القوّامين، لكن جرت سنَّة الله أن لا تتفتق أزوار تلك الأستار إلا بالتربية شيئاً فشيئاً، ولا تؤخذ إلا بالسياسات الجيدة على وجه من التدريج، قد يعرض للصبي أن يظهر في مظاهر تخالف قاعدة الحكمة قولاً أو فعلاً، فتدخل على كافله شبهة أن تكون تلك الأحوال ناشئة عن غرائز لا تقوى يد التربية على نسخها من صحيفة النفس، فيعدل عن تقويم التوائه جانباً ويخلِّي بينه وبين تلك الأعراض السيئة مغضوباً عليه، لا ينبغي أن تعتبر الحركات التي تظهر على جوارح الأطفال علامات يهتدى بها على شعائرهم الغريزية، فكم من غلام تتوسم في طبعه ليناً وسهولة وإذا ضربته على قانون التربية وجدته يبساً صلداً، وتتفرس في طبع آخر فظاظة وأمتاً، فإذا مسكت بعنانه وهويت به على مضمار التعليم كان أسرع لتلبيتك من الصدى، وألين ديباجة تنقش عليها آيات الفضائل.

لم يفقه بعض أرباب البيوت ومن يحاول اللحاق بهم أهمية التربية حتى الآن، فيفرطون في مجاراة الولد على جميع أهوائه، ويفوضون له أن يقضي ما هو قاض، وربما تغنوا بمديحه في المجامع الحاشدة، وأطروه بما لا تنطبق

شـهادة ثماره عليه، ولبئـس ما كادوه به لو كانوا يعلمون، إنما نصبوا لهـذا المسـكين مكيدة تسـد في وجهـه أبواب الآداب الجميلة، وتجعل بينه وبين السعادة حجاباً مستوراً، ليت شعري بماذا تجادل عن نفسك أيها الكفيل، إذا ألقيت على عواهنك مسؤولية إغفال الطفل في مراتع وخيمة، وأنت تعلم علماً كاشفاً أَن لا محيص عنه في عرضه على بعض مطالب الاجتماع، ولم يكن بد من قيامه مقاماً يكون عدم تأهله له جناية على الهيئة بتمامها؟!

أخشى أن يضاعف لك العذاب ضعفين، تعذب على تشويه تلك الجوهرة المكرمة عذاباً نكراً، وتحوز من عقوبة تلك الجناية العامة نصيباً مفروضاً. إن الأرواح لتنمو بالتربية اللطيفة كما تنمو الأجسام بالغذاء الصحيح، ولنماء الجسـم حد معلوم وغاية لا تتجاوز، إذا أُدرك شـأوها أخذ في التقهقر إلى وراء، أما نماء الروح فموصول بحياة الإنسان، لا يقف إلا إذا خمدت أنفاسه وبارح مدرسة هذا العالم الكبرى.

نؤسس على هذا أن المعلم لا يمكنـه الإحاطـة للولـد بصغائـر التربية وجزئياتها من جميع أطرافها ضرورة، إن من أصولها ملاحظة العوائد ما يعم الجمهور منها وما يخص الأفراد، وجزئيات هذا الأصل مما تفوق حد الوصف، ويكلُّ لسان الإحصاء دون نهايتها، فليس في مقدرته إلا تلقيح ذهن الطفل بقواعد كلية لا يهجم منها على البعيد الشـارد قبيل أن يذلل مراسه بالقريب الذي يؤخذ بالأيدي مع النظر في مظاهر أمياله نظر المنجم في الميقات، حتى إذا أبصر فيها إحديداباً قوّمه بالتي هي أحسن والسلام.

* * *



الصّيام(1)

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾[البقرة: ١٨٣].

هذه الآية مدنية، وهكذا الشأن في كل آية استفتحت بهذا العنوان، بخلاف ما افتتح بيا أيها الناس، فقد وقع في الآيات المكية والمدنية، وإنما ابتدأت بهذا المطلع الذي يخص المؤمنين لأنها سيقت للتكليف بأمر فرعي وهو الصوم، وكذلك جرت سنّة كتاب الله أن يفتتح الأوامر الفرعية بيا أيها الذين آمنوا، نحو ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ ﴾[الحج: ٧٧] الآية، ونحو ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰكُم ﴾[البقرة: ٢٥٤]، وكقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّمَا ٱلۡخَمۡرُ وَٱلۡمَيۡسِرُ ﴾[المائدة: ٩٠] الآية إلى غير ذلك.

ويصدر الأوامر الاعتقادية بيا أيها الناس، والسر في ذلك أن الفروع لا تصح إلا مع وجود شرطها وهو الإيمان، فناسب توجيه الخطاب إلى من حصلوا على شرط صحتها وهم الذين آمنوا، مع ما في ذلك من تقوية الداعية لهم والمبالغة في التهييج إلى العمل، فكأنه يقول لهم أيها المؤمنون شأن المؤمن بالله أن يتلقى أوامره بغاية القبول وسرعة الامتثال، ومن يرى من الأصوليين عدم تكليف غير المؤمنين بفروع الشريعة لا يحتاج إلى بيان وجه

(١) العدد السابع عشر ـ الصادر في غرة رمضان المعظم ١٣٢٢.

العدول عن يا أيها الناس في الأوامر الفرعية.

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ﴾[البقرة: ١٨٣]، الصيام في اللغة: **الإمساك** عما تنازع إليه النفس، كالكلام والطعام والشراب والنكاح، وفي الشريعة: الإمساك عن المفطرات بياض النهار.

وشرّع الصيام لتصفية مرآة العقل، ورياضة النفس بحبسها عن شهواتها، وإمساكها عن خسيس عاداتها، وليذوق الموسرون لباس الجوع فيعرفون قدر نعمة الله عليهم، وتهيج عواطفهم إلى مواساة الفقراء.

وللصوم عند من تنبهوا لأسرار العبادات ثلاث درجات:

صوم العامة: وهو كف البطن والفرج عن شهوتيهما، **وصوم الخاصة**: وهو ما تقدم مع قصر الجوارح عن أفعال المخالفات، **وصوم خاصة الخاصة**: وهو صوم القلب وترفعه عن الهمم الدنية والأفكار الدنيوية التي لا تراد للدين، وإلا فهي من زاد الآخرة ومطاياها، وهذه هي الدرجة الكاملة التي جمعت بين عمل الظاهر والباطن، وينبئك على حطة الدرجة الأولى، وقصور صاحبها عن الانخراط في زمرة الصائمين حقيقة، قوله ﷺ: «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في أن يدع طعامه وشرابه»، وقال أبو بكر بن العربي: «كان من قبلنا من الأمم صومهم الإمساك عن الكلام مع الطعام والشراب، فكانوا في حرج، ثم أرخص الله لهذه الأمة في الإمساك عن الكلام ليرفعها بالكرامة في أعلى الدرج، فوقعت في ارتكاب الزور واقتراب المحظور في حرج، فأنبأنا الله سبحانه على لسان رسوله أن من اقترب زوراً أو أتى من القول منكوراً، أن الله سبحانه في غنى عن الإمساك عن طعامه وشرابه».

يسمع الناس بحديث «لخلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح

المسك»، وحديث «كل حسنة بعشرة أمثالها إلى سبعمائة ضعف إلا الصيام فهو لي وأنا أجزي به»، وحديث «الصيام جُنة»، فيضعونها في غير مواضعها، ويحملونها على غير محاملها، باعتقاد أنها صادقة على أهل الدرجة الأولى وهو خطأ صراح.

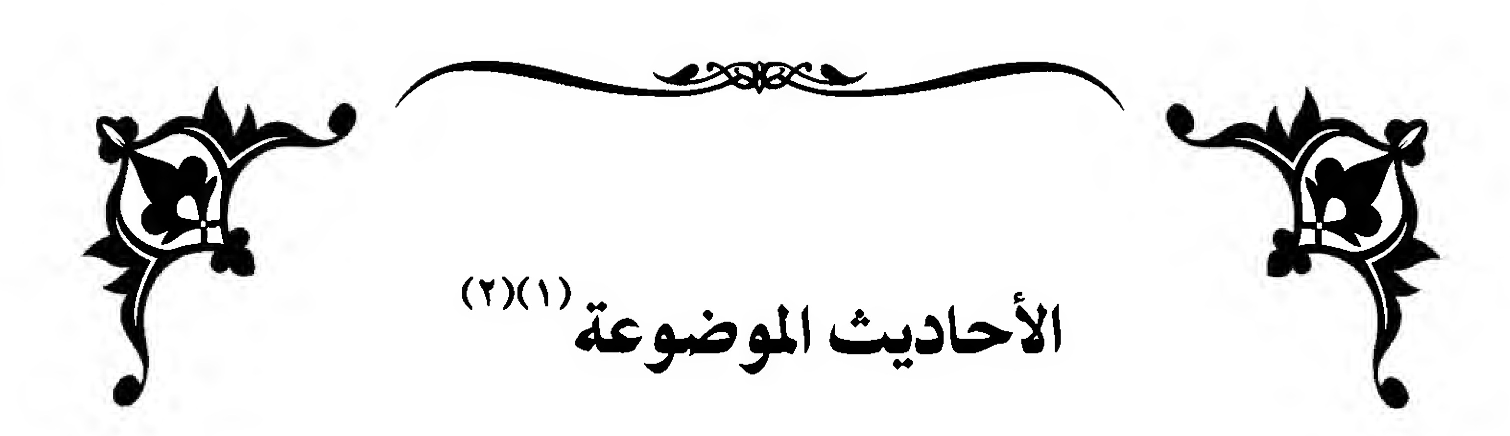
كيف تكون رائحة فم تقذر بتناول الأعراض، والتمضمض بنحو الكذب والهذيان والمراء أطيب عند الله من ريح المسك؟ وكيف يستاهل صيام تجهم وجهه بسماجة المعاصي أن يضاف إلى ملك الملوك جلّ جلاله ويتولى جزاءه بنفسه؟ وكيف يكون الصيام جُنّة ووقاية من عذاب الله، وقد انخرق سياجه وتدنَّس ذيله بقول الزور، والتلبس بالآثام التي تهيء له في نار جهنم وطاء وغطاء؟ نعم لأهل تلك الدرجة ثواب عن صيامهم، ولكنه لا يبلغ في الموازنة مبلغ ثقل أوزارهم فيستحقون هذه الكرامات.

ومما يعاكس حكمة الصيام، ويهدم أصل مشروعيته، الإسراف في الأكل سواد الليل، والتفنن في الأطعمة تفنن ذوي الأرواح القدسية على الأذواق العجيبة وأسرار الملكوت، ومنهم من لا يقنعهم التمتع بها في بيوتهم حتى ينقلون أحاديثها اللذيذة عندهم إلى المنتديات العامة والمجتمعات التي تضم أشتاتاً من الناس، ويتواجدون لسماعها ولا تواجد الأم بنغامات صبيِّها عندما يكاد يبين لها عن مآربه الخفية، وإنه ليعظم في عينك الرجل بادي الرأي حتى تحسبه من رجال الأمة، فما يروعك إلا وقد أخذ يسوق إليك حديث الأطعمة، ويشخص لك هيئاتها يحللها لك تحليلاً كيماوياً، ثم يطبخها بلسانه مرة أخرى، وإن لفقه النفس أثراً عظيماً في تعديل المخاطبات وتحسين العادات.

﴿كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾[البقرة: ١٨٣] هذا التشبيه عائد إلى أصل إيجاب الصوم، والمعنى أن الصوم لم يفرض عليكم وحدكم حتى يعظم وقعه في نفوسكم، بل كان مكتوباً على الأمم الماضية من لدن آدم إلى عهدكم، وما يقوله بعض المفسرين من أن التشبيه يعود إلى وقت الصوم وقدره أيضاً لا يُلتفت إليه بدون أثر صحيح يثبته، وكل ما جاء في القرآن مطلقاً أو مبهماً لا ينبغي تقييده أو حمله على معنى معين إلا بحديث ثابت، وفائدة هذا التشبيه تهوين هذه العبادة الشاقة، وتخفيف وطأتها على الأنفس ببيان عدم اختصاصهم بإيجابها، لأن الأمور الشاقة إذا عمَّت سهل تحملها، ولم تشفق الأعناق من التطوق بعهدتها.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[البقرة: ١٨٣] تصيرون أتقياء، فإن الصوم يقهر النفس ويخطمها عن مألوفاتها، وذلك مما يورث التقوى، وقد فسرت «الجُنَّة» في حديث «الصيام جُنَّة» بالوقاية والسترة من المعاصي رعاية لهذا المعنى، وهو ثاني فهمين في الحديث. أولهما ما أشرنا إليه فيما سبق، وقد كنّى عليه الصلاة والسلام عن طهارة نفوس الصائمين من رجس المعاصي، وتخلصها من البواعث على الفواحش بغلق أبواب النار وتصفيد الشياطين، كما كنّى عن تنزيل الرحمة وحسن القبول للأعمال بفتح أبواب الجنة في قوله: «إذا دخل رمضان فتحت أبواب الجنة ـ وللبخاري أبواب السماء ـ وغُلِّقت أبواب النار، وصفدت الشياطين»، وحمل هذا الحديث على الكناية أعظم للمنة، وأتم للنعمة، وأفيد للصائمين من حمله على ظاهره، ولا مانع من حمله على الحقيقة أيضاً.

* * *



الأحاديث الموضوعة(١)(٢)

يتجاسر كثير ممن لم يتفقهوا في الدين على سرد الأحاديث الموضوعة،

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢ .

(٢) كتب الإمام في العدد اللاحق لبحث الأحاديث الموضوعة التعليق التالي:

رأى بعض البسطاء أن تنبيهنا على الأحاديث التي وضعت في فضل الصيام في رجب والقيام في لياليه، مما يثني عزائم الناس عن الإكثار من العبادة في هذا الشهر، فالأجدر بنا عدم التعرض لذلك، وهذا رأي عجيب لم يسبقهم به الأئمة الذين يكبر عليهم مخالفة رسول الله عليه الصلاة والسلام، فبينوا وضعها وشنَّعوا على من افتراها كذباً.

وقد كان بعض الزهاد بخراسان يضع الأحاديث في فضائل القرآن وسوره، حتى أخرج لكل سورة حديثاً، فكُلِّم في ذلك، فقال: «رأيت الناس قد زهدوا في القرآن فأردت أن أرغِّبهم»، فقيل له: «فأين الوعيد في الكذب عن النبي ﷺ»، فقال: «أنا لم أكذب عليه إنما كذبت له». قال أبو بكر بن العربي في «العارضة»: «ولم يعلم البائس أن من كذب له بما لم يخبر به أنه كذب عليه، أو علم، ولكنه استخف بكبر ذلك»، وقد قال العلماء: «لا يحدِّث أحد إلا عن ثقة، فإن حدَّث عن غير ثقة فقد حدَّث بحديث يرى أنه كذب».

ولقد بلغ الاستخفاف بشأن رواية الأحاديث أن تسمع العامي يقول: «قال: رسول الله ﷺ كذا» يملأ به فاه ويميل به شدقيه وهو يجهل رتبة ذلك الحديث، ونحن لا نرى إلا ما رأته أئمة الدين، وهو أنه لا يستباح لأحد أن يروي حديثاً إلا =

ويحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم، منها الأحاديث التي يضعونها في فضائل الأيام والشهور التي يتسلمها خطباء المنابر من كتب لا تتحرى في رواية كلام رسول الله عليه الصلاة والسلام، وما كان ينبغي لهم أن يسندوا حديثاً إلى رسول الله ﷺ إلا بعد البحث عن رتبته في الكتب التي تكفَّلت بذلك، ولقد أكمل الله الدين من قبل أن يتجشأ أولئك الدجالون بما افتروه على رسول الله كذباً، ومن ذلك الأحاديث الموضوعة في فضل رجب وصيامه، ونذكر الآن بعضها:

منها حديث: «في رجب يوم وليلة، من صام ذلك اليوم وقام تلك الليلة، كان له من الأجر كمن صام مائة سنة وقام مائة سنة، وهي لثلاث ليال بقين من رجب، في ذلك اليوم بعث الله محمداً نبياً» قال «الحافظ السيوطي» في «الذيل»: في إسناده هياج، وهو متروك الحديث.

ومنها الحديث الطويل، وهو أن رجلاً سأل أبا الدرداء عن صيام رجب، فقال: سألت عن شهر كانت الجاهلية تعظمه في جاهليتها، وما زاده الإسلام إلا فضلاً وتعظيماً، فمن صام منه يوماً إلخ. قال «السيوطي في الذيل»: إسناده ظلمات بعضها فوق بعض وفيه داود وهو كذَّاب وضَّاع.

ومنها حديث «رجب من أشهر الحرم، وأيامه مكتوبة على أبواب السماء السادسة، فإذا صام الرجل منه يوماً» إلخ الحديث. قال «السيوطي في الذيل» أيضاً: «في إسناده إسماعيل بن يحيى التميمي متهم بالكذب».

= بعد تحققه عدم وضعه، ولا يكفي في ذلك سماعه من عالم أو خطيب أو رؤيته في كتاب، إلا إذا أسند إلى من يوثق بروايته.

ومنها حديث «من صام يوماً من رجب وقام ليلة من لياليه، بعثه الله تعالى آمناً يوم القيامة، ومرَّ على الصراط وهو يهلل أو يكبر» موضوع، لأن في إسناده إسماعيل بن يحيى، وهو كذّاب، قاله «السيوطي في الذيل».

ومنها حديث «من أحيا ليلة من رجب، وصام يوماً منه، أطعمه الله من ثمار الجنة، وكساه من حلل الجنة، وسقاه من الرحيق المختوم» في إسناده حصين بن مخارق، قال «السيوطي في الذيل»: «وهو ممن يضع الأحاديث».

ومنها حديث أن «شهر رجب شهر عظيم، من صام منه يوماً كتب الله له صوم ألف سنة، ومن صام يومين كتب الله له صيام ألفين سنة، ومن صام منه ثلاثة أيام كتب له صوم ثلاثة آلاف سنة إلخ» قال: «الحافظ ابن حجر» هو موضوع بلا شك.

ومنها حديث «رجب شهر الله، ورمضان شهر أمتي، فمن صام» إلخ الحديث الطويل، ذكره صاحب «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة»، وقال: «ابن الجوزي»: «في إسناده الكسائي وهو لا يُعرف»، وكذلك قال «الحافظ ابن حجر»: «الكسائي هذا لا يعرف، وليس هو علي بن حمزة المقري لأنه أقدم طبقة من هذا بكثير، وفيه علّة أخرى فإنه من رواية علقمة عن أبي سعيد الخدري، ولا يعرف لعلقمة سماع من أبي سعيد»، ثم قال: «وللحديث طرق أخرى واهية وفي روايتها مجاهيل، رويناه في أمالي أبي القاسم بن عساكر من طريق عصام بن طليق عن أبي هرون العبدي عن أبي سعيد فذكره بطوله، وفيه زيادة ونقص وتقديم وتأخير، وعصام بن طليق ليس بشيء وأبو هرون العبدي متروك».

ومنها حديث «أكثروا من الاستغفار في شهر رجب، فإن لله في كل ساعة

منه عتقاء من النار، وإن لله مدائن لا يدخلها إلا من صام رجب». في إسناده الأصبع ليس بشيء كما في «الذيل»، وفي «الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» أن صوم أول خميس من رجب مما أحدثه العوام من البدع.

الغرض من بيان وضع هذه الأحاديث إنما هو تمييز الخبيث من الطيب، وإلا فالصوم، والاستغفار، والصلاة هي من العبادات التي يستحب فعلها ممن استطاعها في كل وقت غير منهي عنه.

مما شاع على الألسنة حديث «يدعى الناس يوم القيامة بأمهاتهم» وهو موضوع، كما نبّه عليه صاحب «تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأحاديث الموضوعة»، وقد اغترّ بعض المفسِّرين، فحمل قوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَدْعُواْ كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَـٰمِهِمْ ﴾[الإسراء: ٧١] على معنى ذلك الحديث.

قال في «الكشاف»: «إن من بدع التفاسير أن الإمام جمع أم، كخف وخفاف، وأن النَّاس يدعونَ يوم القيامة بأمهاتهم، وإنَّ الحكمة في الدُّعاء بهنَّ دون الآباء رعاية حق عيسى عليه السلام، وشرف الحسن والحسين، وأن لا يفضح أولاد الزِّنى، وليت شعري أيُّهما أبدع أصحة تفسيره أم بهاء حكمته؟!».

وقد ثبت ما يخالفه، ففي «سنن أبي داوود» بسند جيِّد، كما قاله النووي من حديث أبي الدَّرداء مرفوعاً «أنَّكم تدعونَ يومَ القيامة بأسمائكم وأسماء آبائكم، فحسِّنوا أسماءكم».

وفي الصحيح من حديث ابن عمر مرفوعاً «إذا جمع الله الأوليّن والآخرين يوم القيامة، يرفع لكل غادر لواء، هذه غدرة فلان بن فلان».





المباحث الأدبيّة

- تقسيم الكلام بحسب أغراضه.
- الإبداع في فنون الكلام.
- الفصيح من الكلام.
- طرق الترقي في الكتابة.
- الشعر العصري.
- الكلام الجامع.
- الأخلاق.
- الحياء.
- أبو بكر بن العربي.
- ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي الأندلسي.
- منذر بن سعيد.
- تحقيق مسألة تاريخية.





تقسيم الكلام بحسب أغراضه[1]

من المطالب التي ينبغي تقديمها في هذا الباب، تقسيم الكلام إلى الأغراض الباعثة على تأليف المعاني بعضها إلى بعض، وإبرازها في قوالب أوضاعه الثلاثة: المرسل، والسجع، والشعر. وأحسن التقسيمات إحاطة وجمعاً ما بيانه أن القصد من جودة التصرف في تلك الأوضاع الثلاثة استجلاب المنافع، أو استدفاع المضار ببسط النفوس، أو قبضها لما يخيل لها من خير أو شر، وما يرى أنه خيرات أو شرور منها ما حصل ومنها ما لم يحصل، وحصول ما من شأنه أن يرتاح له يسمى ظفراً، وفواته في مظنة الحصول يسمى إخفاقاً، وحصول ما من شأنه أن يُنفر منه يسمى رزءاً، وكفايته في مظنة الحصول يسمى نجاة، فالقول في الظفر والنجاة يسمى تهنئة، ويسمى القول في الإخفاق إن قصد تسلية النفس عنه تأسياً، وإن قصد تحسرها تأسفاً، ويسمى القول في الرزء إن قصد استدعاء الجَلَدِ على ذلك تعزية، وإن قصد استدعاء الجزع من ذلك سمي تفجيعاً، فإن كان المظفور به على يد القاصد للنفع جوزي على ذلك بالذكر الجميل وسمي ذلك مديحاً، وإن كان ما ينفِّر منه على يد قاصد للمضرة فأدى إلى ذكر قبيح سمي ذلك هجاء، وإن كان الرزء بفقد شيء فندب ذلك الشيء يسمى رثاء.

---

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

ولما كانت المنافع كلها تنقسم إلى ما يكون بالملائمة، مثل ما يوجد من مناسبة بعض الصور لبعض النفوس، فيحصل لها بمشاهدة تلك الصور المناسبة لها ابتهاج وذلك الابتهاج نوع من المنافع لتلك النفس، وإلى ما يكون بالفعل، مثل ما يفعله الإنسان من إسعاف آخر بطلبته فيكون إسعافه بها منفعة له، وإلى ما يكون منفعة بالقوة والمآل أو بتشفي النفس فقط، مثل ما تحل مضرة بعدو إنسان فينتفع ذلك الإنسان بأن تضعفه له وتقويه على مقاومته والانتصاف منه.

وكانت المضار تنقسم إلى أضداد ما ذكرته، اقتضى ذلك انقسام الذكر الجميل إلى ما يتعلق من المنافع بالأشياء المناسبة لهوى النفس، ويسمى ذلك نسيباً، وإلى ما يتعلق بالأشياء المستدعية رضاء النفس، ويسمى ذلك مديحاً، وكان ما يتعلق من الذكر القبيح بالأشياء المنافرة لهوى النفس، والأشياء المتباعدة عن رضاها كلاهما داخل تحت قسمة واحدة وهي الهجاء، ولما كان ما يُنفِّر منه قد يقع ممن يُحتمل منه ذلك ولو أدنى احتمال، فلا يؤاخذ به جملة أو لا يؤاخذ به كبير مؤاخذة، ومنه من يؤخذ به أشد المؤاخذة سمي ما يتعلق من القول بذلك بحسب طبقات من يقع ذلك منهم، ونسبتهم إلى القائل معاتبة وتوبيخاً وتقريعاً، ولا يخلو الشيء الحاصل مما شأنه أن يطلب أو يهرب عنه، من أن يكون ذو العناية به واحداً كان القائل أو غيره ويكون هو حاكياً ذلك عنه، أو يكون قد عني به متنازعان في استجلابه أو مدافعته كان القائل أحد المتنازعين أو لم يكن.

غير أنه يحكي حالهما أو يكون حاكماً بينهما، فيكون الكلام على هذا اقتصاصاً أو مشاجرة وإما فصلاً في مشاجرة، وقد تكون المشاجرة والفصل فيهما متعلقين بما يُستقبل، فأما الأمور التي لم تحصل مما شأنه أن يطلب

أو يهرب عنه، فلا يخلو الحال من أن يكون المتكلم هو الطالب لها، أو الهارب منها من تلقاء السامع، أو يكون السامع هو الطالب لها، أو الهارب عنها من تلقاء المتكلم، فما كان من المتكلم إلى السامع مما شأنه أن يُطلب يُسمى إذا لم يُعلم رأيه فيه غرضاً، وما كان من تلقاء السامع إلى المتكلم وكان طلباً جزماً يسمى اقتضاء، فإن كان بتلطف يسمى استعطافاً، وإن كان يُرى أنه قد جاوز الوقت الذي كان يجب فيه سُمي استبطاء، فإن كان مما شأنه أن يُهرب منه وانتدب المتكلم من تلقاء نفسه، أو من غيره سُمي ذلك إيعاداً أو تهديداً أو إنذاراً أو تخويفاً، فإن خافه من تلقاء السامع، واستدفعه إياه سُمي ذلك استعفاء أو استقالة أو ترضيّاً، وقد يكون الشيء المطلوب أو المهروب منه أحد شيئين، فيُشكِل على القائل أو السامع أيهما يجب أن يُطلب أو أيهما يجب أن يُهرب منه، أو يُشكِل الطريق الهادي إلى ذلك، فيشير القائل على غيره، فيكون الكلام على هذا إشارة أو استشارة.

* * *



الإبداع في فنون الكلام[1]

الإبداع في فنون الكلام له أغراض وقد استهل بها وجه السعادة الثانية[2]، ومهيئات وهي ما تناجيك به هذه الصحيفة، يقول الباحثون عن دقائق هذه الصناعة، المهيئات طيب البقعة وفصاحة الأمة وكرم الدولة، فقلَّما برع في المعاني من لم تنشئه بقعة فاضلة، ولا في الألفاظ من لم ينشأ بين أمة فصيحة، ولا في جودة النظم من لم يحمله على مصابرة الخاطر في أعمال الروحة الثقة بما يرجوه من كرم الدولة.

يعنون بطيب البقعة نزاهتها عما يوحش بتدفق ماء الحسن على مناظرها، يؤكد قولهم هذا أن غالب المتصرفين في صياغة الألفاظ، الغواصين على المعاني المبتدعة هم أهل الحواضر[3]، وما ذلك إلا لتوفر أسباب الانبساط بها، واشتمالها على معان شتى، ينتزع الذهن منها هيئات غريبة لا طريق لتصورها إلا المشاهدة، وأما فصاحة الأمة فلأن اللغة ملَكَة تحصل للسامع على نحو ما يلقيه إليه السمع، فتكون عبارة المتكلم بالضرورة تابعة في جودتها ورداءتها لما عليه لغة قومه التي رُبِّي بها وليداً، ولبث فيها من عمره سنين،

---

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

(٢) إشارة إلى المقال السابق «تقسيم الكلام بحسب أغراضه».

(٣) نعني بأهل الحواضر من لهم خبرة بشؤونها سواء نشؤوا فيها أو وردوا عليها.

ولتوغل «قريش» في البلاد العربية وبعدهم عن أهل اللغات الأجنبية، كانت لغتهم أفصح لغات العرب، ثم من اكتنفهم من «ثقيف، وهذيل، وخزامة، وبني كنانة، وغطفان، وبني أسد، وبني تميم»، وأما من بعد عنهم «كربيعة، ولخم، وجذام، وغسـان، وإياد، وقضاعة، وعرب اليمن المجاورين لأمم الفرس والروم والحبشة»، فلم تكن لغتهم تامة الملكة، وعلى نسبة بعدهم من قريش وقع الاحتجاج بلغتهم في الصحة والفساد عند أهل الصناعة العربية.

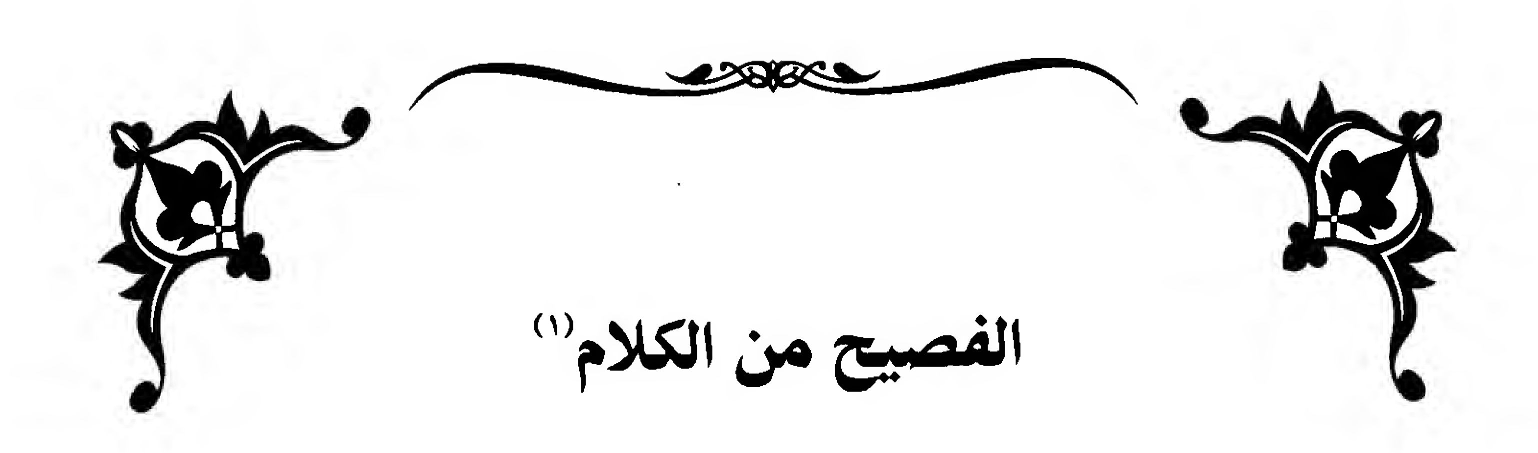
ويعنون بكرم الدولة إقبال عظمائها على من آنسوا منه رشداً وبراعة في فن من الفنون لترقيته لما هو به جدير، وبذلك ينشط غيره من عقال التماوت، ويثب على بضاعة تجارتها نافقة، والسعي وراء أعمال نتيجتها محققة، ويدلنا لهذا ما يحكيه المؤرخون عن الملك المعظَّم المتوفى سنة ٦٢٤هـ من أنه شرط لكل من حفظ «مفصَّل الزمخشري» مائة دينار وخلعة، فحفظه خلق كثير لهذا السبب، ومن لطائف هذا الملك أن «شرف الدين بن عنين» حصل له توعك، وكان بينهما مؤانسة، فكتب إليه:

انظـر إلـيَّ بعـين مـولى لـم يـزل　　يـولي النـدا وتـلاف قبـل تـلافِ

أنـا كالـذي أحتـاج مـا يحتاجـه　　فـاغنم دعـائي والثنـاء الـوافي

فجاء إليه بنفسه يعوده ومعه جائزة، وقال له: «هذه الصلة وأنا العائد»، قال القاضي «ابن خلكان»: «وهذه لو وقعت لأكابر النحاة ومن هو في ممارسة النحو طول عمره لاستعظمت منه».

ومن تتبع تواريخ الفحول الذين اشـتهروا في هذه الصناعة الأدبيـة أو غيرها من الفنون، وجـد الغالب منهم مرموقاً من قبـل الدولـة بعنايـة تقوي العزائم، وتبعث في الهمم العالية روح النشاط.



الفصيح من الكلام[1]

ترى كثيراً منهم يسارعون إلى التصنع في التركيب والتوغل في الغرابة ما استطاعوا، ظناً منهم أن التصنُّع فيها مما يرتفع به شأن الكلام في الحسن والقبول، كلا، لا يكسبه ذلك إلا هِجنة وانحطاطاً إلى الدرك الأسفل في هذه الصناعة، وإنما الممدوح عندهم ما كانت معانيه واضحة وعبارته مستعذبة، بعيداً عن تكلُّف الاصطناع، ولذلك إذا اشتغل الشاعر العربي بالتنقيح اختلف أهل العربية في الأخذ عنه، فقد كان «الأصمعي» يعيب «الحطيئة»، واعتذر عن ذلك بأن قال: «وجدت شعره كله جيداً فدلني على أنه كان يصنعه، وليس هكذا الشاعر المطبوع، إنما الشاعر المطبوع الذي يرمي بالكلام على عواهنه جيده على رديئة».

ومما يوجب التعقد في الكلام وصعوبة الفهم، القصد إلى المعاني التي يتوقف فهمها على مقدمة من معرفة صناعة، أو حفظ قصة، فالواجب ألا يستعمل من الأخبار والأقاصيص إلا ما اشتهر بين غالب الأدباء، أما الذي لا يعهده إلا الخاصّة منهم فالإشارة إليه إحالة على مجهول، وينبغي التحاشي عن استعمال شيء من معاني العلوم والصنائع أو شيء من عباراتهم، إذا كان

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢ .

الغرض مبنياً على ما هو خارج عن تلك العلوم والصنائع، فإذا كان الغرض مبنياً على وصف أشياء علمية أو صناعية، فإيراد تلك المعاني والعبارات غير معيب في ذلك الغرض، ومما عيب على «أبي تمام» قوله:

مـــودة ذهـــبٌ أثمارهـــا شـــبه وهمـــةٌ جـوهر معروفهـا عـرضُ

لأن الجوهر والعرض من ألفاظ المتكلمين الخاصة بهم، وكقول «أبي العلاء المعري»:

تــلاق تفــري عــن فــراق تذمــه مآق وتكسير الصحائح في الجمع

وحكي أن «عزّ الدولة» قال لندمائه: «لينشدني كل واحد منكم أغزل ما يعرفه من الشعر»، فأنشد كل منهم ما حضره، فلما انتهى القول إلى «أبي الخطاب بن ثابت الصابي» وكان أبوه طبيباً أنشد:

قال لـي أحمـدٌ ولـم يـدر مـا بـي أتحـــبُّ الغـــداةَ عتبـــةَ حقـــا

فتنفــست، ثــم قلــت: نعــم حـــ ـــباً جرى في العروق عرقاً فعرقـا

فقال له بعضهم: «لا تخرج بنا يا أبا الخطاب عن صناعة الطب التي لم ترثها عن كلالة».

وكان بعض الأدباء إذا سمع قول «المهلبي»:

«يـا مـن لـه رتـب ممكنـة القواعـد»

قـال: «هذا يصلـح أن يكون شـعر بناء»، وعنـدي أن المراسـلات الخصوصية يحسن فيها ملاحظة القصص المستظرفة، وإن لم تكن مشتهرة، كما يحسـن فيها إيراد المعاني العلميـة، وعـدَّ أهل البديع للتلميح لها من الحسنات رعاية لهذا المقام، ومما يُعاب به الشاعر إيراد المعاني الكثيرة في

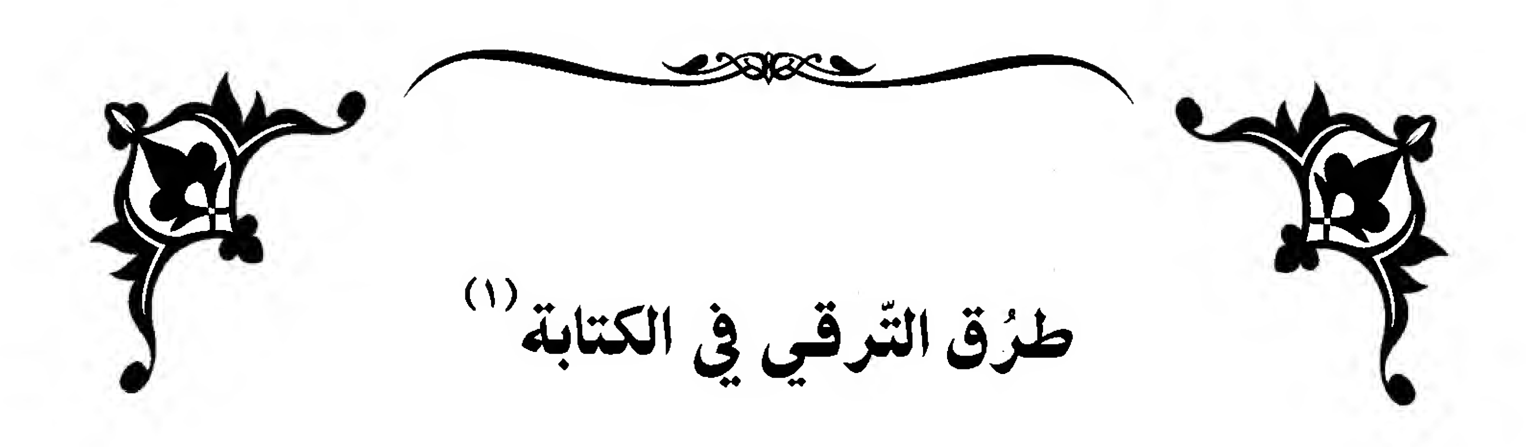
البيت الواحد لما فيه من التعقيد على الفهم، قال «ابن خلدون»: «كان شيوخنا يعيبون شعر أبي بكر بن خفاجة شاعر شرق الأندلس، لكثرة معانيه وازدحامها في البيت الواحد، كما كانوا يعيبون شعر المتنبي والمعري بعدم النسج على الأساليب العربية».

ولما أكثر «مسلم بن الوليد» و«أبو تمام» من استعمال المحسنات، بَعُدَ شعرهما عن الانسجام وسهولة المأخذ، وأخذ الشعر من ذلك العهد هيئة غير هيئته العربية، حتى إنَّ فحول الشعراء إذ ذاك كانوا يقولون: «قد أفسد هؤلاء الشعر بذلك الشيء الذي يسمونه البديع».

وكما يجب تجنب المعقد والحوشي من الألفاظ، ينبغي التحفظ من السوقي المبتذل، فإنه ينزل بالكلام عن طبقة البلاغة أيضاً، ويخدش وجه مَلَكة الفصاحة ويفسدها على صاحبها، وما على الفصيح إلا أن يقصد من التراكيب ما كانت معانيه تسابق ألفاظه إلى الفهم بالنسبة للأواسط الذين لهم إلمام باللغة العربية، ولا تستنزله عن هذه الرتبة لومة لائم ليس له من اللغة إلا القدر الذي تتلقفه ألسنة العامة، فمن أسباب تلاشي اللغة واندراس أطلالها، تنازل فصائحها إلى استعمال الألفاظ العامية الساقطة.

وحقيق على علماء التدريس أن يكونوا على نسق واحد في التزامهم عند إلقاء دروسهم محاذاة الأساليب العربية، فإنه ضرب من التطبيق للقواعد التي يلقنها التلميذ، وبذلك تتقوى عارضته، ويتسع مجاله في التعبير عما في ضميره بألفاظ متمكنة في البيان، لأن السمع أبو الملكات اللسانية.

* * *



طرُق التّرقي في الكتابة[1]

ليست هذه الصناعة كغيرها من الفنون لها قواعد مضبوطة، ومسائل مدوّنة يتدارسها الكتّاب، فتنتهي بهم إلى معرفة إيراد الكلام في معاريض الفصاحة وحسن الإطراد في أنحائها، وإنما هي عبارة عن تنبيهات ترشد إلى الجهات التي تنمو بها قوى التفنن في تصاريف الألفاظ والتأنق في تحسين هيئاتها التأليفية.

ولا نستفيق جهداً إن شاء الله في البحث عن تلك التنبيهات واستقصائها، والإيماء إلى الكيفيات التي ينبغي أن توضع التراكيب في قوالبها، عسى أن تبعث تذكرتها في أفئدة نصراء اللغة العربية من أبناء هذا العصر نشاطاً جديداً، فيجهدوا أنفسهم عصبة واحدة، ليلجُّوا بنا في حدائق ناضرة ومروج خضرة مما تستبدعه الأنفس وتلذه الأسماع.

الإجادة في وضع الأقاويل أحكم وضع، لا يأخذ بناصيتها إلا من كانت له قوة حافظة، وقوة مايزة، وقوة صانعة، فالقوة الحافظة: يستوعب بها الكاتب من مواد اللغة ما يسعه لكل غرض يأخذ في تفصيله وتفهيمه، حتى يكون آمناً مطمئناً من أن يكبو لسانه عيّاً وفهاهة، عندما يدفع لوصف خيل أو نظام جيش أو حالة حصن أو سلاح أو معمل أو صورة حرب مثلاً.

(١) العدد العاشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الأولى ١٣٢٢.

والقوة المايزة: يمتاز بها ما يحسن من الكلام بالنظر إلى ترصيف كلمه وتآلف حروفه، وبالنسبة إلى المقامات التي يوجه إليها بسياقاته، فقد يتفق مقولان لشخص واحد، ويكون أحدهما أحسن في نفسه والآخر أحسن بالنسبة إلى موقعه.

والقوة الصانعة: هي التي تتولى العمل في ترتيب الألفاظ والمعاني، والتدرج من بعضها إلى بعض، فتصدرها ملتئمة النسج غير متخاذلة النظم، بريئة من التمايز الذي يجعل كل جملة كأنها منحازة بنفسها.

لا تكمل القوة المايزة إلا بالانصباب على مطالعة المنشآت البعيدة الغور في بيانها، المنتمية إلى الطرف الأعلى في عذوبة ألفاظها ورشاقة معانيها، وبتوسم ما أرسل في طيها من الاعتبارات المناسبة بذوق جيد ومهل في النظر، فمعرفة الفنون البلاغية وحدها غير كافية لاستواء هذه القوة واستحكامها، فقد نجد في المتضلعِّين من قوانينها الخبيرين بلحمتها وسداها من لا يُفرِّق بين الأقاويل المتفاوتة في بلاغتها وصفاء ديباجتها، وإن ارتفع بعضها فوق بعض درجات.

ولا تبلغ القوة الصانعة مبلغ التمكن وسرعة الترسل، إلا بعد ارتياضها بالتمرين والاستخدام في كل غرض تخفق عليه إرادتها، في أزمنة متوالية، ومما يربط بالأسف والتحسر على قلب كل مسلم أينع في صدره غصن الغيرة على اللغة الفصحى، أنك ترى في الذين أوسعوا العلوم الأدبية خبرة، وساروا في التطلع على الإنشاءات الرفيعة عنقاً فسيحاً، حتى أدركوا مغامزها وأشرفوا على ما وراء أكماتها، يعجز عن التصرف في صوغ فقرات تُلمُّ شقاقاً أو تؤكد إخاءً مثلاً، ذلك لفقده القوة الصانعة، التي لا يقيم صلبها إلا الإدمان على

العمل، وهو القاعدة التي يجري عليه كل تقدم وارتقاء.

ومن الطرق التي تنهض بالكاتب في زمن يسير، وتساعد قوته الصانعة على الإجابة في طرفة عين، وتطبع في صحيفتها ملكة الهجوم على المعاني وبثّها في ألفاظ رصينة غير متوعرة، انحيازه إلى دريٍّ بشعاب هذه الصناعة، يقف به على المنافذ التي يسري منها الخلل إلى التأليف، ويبصره بالمذاهب التي ارتقت من نحوها التحارير الفائقة، ولقد قال أئمـة الصناعة الشـعرية: «لا تجد شاعراً إلا وقد لزم شاعراً آخر المدة الطويلة، وتعلَّم منه قوانين النظم، واستفاد منه الدِربة في أنحاء التصاريف البلاغية». فقد كان «كُثيِّر» أخذ علم الشعر عن «جميل»، وأخذه جميل عن «هدبة بن خشرم»، وأخذه هدبة عن «بشر بن أبي حازم»، وكان «الحطيئة» قد أخذ علم الشعر عن «زهير»، وأخذه زهير عن «أوس بن حجر»، وكذلك جميع شعراء العرب المجيدين، والشعر والكتابة أخوان.

* * *



الشّعر العصْريّ[1]

أيعاتــبُ الــزَّمنُ الــذي لا يُـسعدُ — وبنــوهُ فــي مَهــدِ البطالــةِ هجّــدُ

مَهلاً فما هوَ بـالملومِ ومـن رمـى — ســهمَ الملامــةِ نَحــوه فمفنَّــدُ

لو أفرغوا في وسعه مـا جلَّ مـن — عمـلٍ لأغـدقَ فيـهِ عَـيشٌ أرغـد

أَرأَيْتَ كيْفَ شـدت بلابـلُ سـعدِهِ — وزهــت ببهجتــه غــصونٌ ميَّــدُ

إذ أَنفقَ الأسلاف في سُبلِ الهـدى — جُهْدَ استطاعتهم، ونِعْمَ المقـصد

حتــى اســتدار بهيئــةٍ منـضودةٍ — وطِلاعُــه أفعــالُ بــرٍّ تُحمــدُ

كنَّـا بنـي الإسـلامِ أصـدقَ لهجـةٍ — وأَصــحَّ عهْــداً بالوفــاء يُؤكَّــدُ

عقـدَ التـآخي فـي الديانـة بيننـا — نــسباً قرابتُــه أَشَــدُّ وأَفيَــدُ

مــا ســام ذو رأي ســديدٍ مطلبـاً — إلاّ غــدا بيــد المعونــةِ يُعـضدُ

ولنــا نفــوسٌ لــم تــنط آمالهــا — إلاّ بمـا هـو فـي المعـاني أمجـدُ

نُنْضي عـزائمَ كالـسيوفِ صـرامةً — لكــنْ لِــوَفْرِ طِعانهــا لا تُغمــدُ

كنَّـا بـدورَ هدايــةٍ مـا مـن سـنا — إلاّ ومــن أنوارهــا يُــستوقدُ

وإذا تكامـل واسـتوى بـدرٌ بـدا — فــي أُفـق طلعتـه الـسنيّةِ فَرقـدُ

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢، ونشرت في ديوان «خواطر الحياة» للإمام.

كنَّا بحورَ معارفٍ ما من حُليًّ إلاّ ومن أغوارِها يتصيَّدُ
ما صَرْصرتْ أقلامُنا في مَهْرقٍ إلاّ رأيتَ الدُّرَّ فيه يُنضَّدُ
من كلِّ معنى يبهرُ الألبابَ أو نسجٍ يقومُ له البليغُ ويقعدُ
ويقومُ فينا للخطابةِ مِصقع فترى بناتِ الفكر كيف نولِّدُ
كنَّا جلاءً للصدورِ من القذى ولواؤنا بيدِ السعادةِ يُعقَدُ
ما صافحتْ راحاتنا دوحاً ذوى إلاّ وأينعَ منه غصنٌ أغيدُ
ومن احتمى بطِرَافِنا السامي الذُّرى آوى إلى الحرمِ الذي لا يُضهدُ
لا يمتري أهلُ التَّمدُّنِ أنَّهم لو لم يسيروا إثرنا لم يَصعدوا
فسلوا متى شئتم سُراتهم فما من أمةٍ إلاّ لنا فيها يَدٌ
لا فخرَ في الدنيا بغير مجادةٍ تعنو لها الأممُ العظامُ وتسجدُ
لكنَّنا لم نرعَ فيه حرمةً بذمامِها منَّا الرقابُ تُقلَّدُ
أخذت مطيّاتُ الهوى تحدو بنا في كلِّ لاغيةٍ كساعةِ نُولدُ
حتَّى انزوى من ظِلها الممدودِ ما فيه مقامٌ يُستطابُ ومَقعدُ
أبناءَ هذا العصر هل من نهضةٍ تُشفي غليلاً حَرُّه يَتصعدُ
هذي الصنائعُ ذَلَّلت أدواتها وسبيلها للعالمين مُمهّدُ
وكذاك بذر العلم أخرج شطأه ودنا جناه فما لنا لا نَحصدُ
بهما جرى القومُ الذين استُضعفوا من قبلُ شوطاً في التقدم يُبعَدُ
أفلا نسير مسير ذي رُشدٍ إلى آثار ما قد أسَّسوه وشيَّدوا
فلطالما حوت الغنائمُ جولةً من رائدِ النظرِ الذي لا يُخمدُ
إنَّ المعارفَ والصنائعَ عُدَّةٌ بابُ الترقي من سِواها مُوصدُ



الكلامُ الجامع[1]

مما يُفضَّل به إنشاء الكلام، فيقع من النفوس أحسن موقع، ويؤثر فيها تأثيراً بليغاً، تذييله بفقرة أو بيت أو شطر على جهة الاستدلال على ما قبله أو على جهة التمثيل، تقريراً للمعنى الأول وتأكيداً لمفهومه، ويسمَّى الكلام الجامع أو إرسال المثال.

وممن سبق إلى هذا النوع الأغر، وحجَّل به مقاطع قصائده ونهاية فصولها زهير، ومن ذلك ما تمثل به في آخر معلقَّته:

«أمن أمّ أوفي دمنةً لم تكلَّمِ»

ثمَّ عُني به من المولدين «أبو الطيِّب المتنبي»، فولع به وأخذ به قريحته حتى أحرز قصبات السبق دون أقرانه.

قال «أبو منصور الثعالبي» في كتابه «يتيمة الدَّهر» عند ترجمة المتنبي: «ليس اليوم مجالس الدَّرس أعمر بشعر أبي الطيِّب من مجالس الأنس، ولا أقلام كتاب الرسائل أجرى به من ألسن الخطباء في المحافل، ولا لحون القوّالين والمغنيّين أشغل به من كتب المؤلفين والمصنّفين».

ولا ينبغي الإسراف منه والاستكثار من إيراده عقب كل فصل، ولكن

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

يلمع به في بعض الفواصل دون بعض خوف السآمة والملل، فإن النفوس لا ترتاح لما يرد عليها من أفانين الكلام، إلا إذا غشيها على فترة وكانت زيارته غباً.

وفي كتاب الله من هذا المهيع البديع والنموذج الذي تُنسج عليه الحكم ما تندهش له العقول الراسية، وقد عقد له «جعفر بن شمس الخلافة» في كتاب «الآداب» باباً يخصه.

وروي أن بعضهم كان يستخرج أمثال العرب والعجم من القرآن، فقيل له: «أين تجد في كتاب الله من جهل شيئاً عاداه؟» قال: «نعم في موضعين، قوله: ﴿بَلۡ كَذَّبُواْ بِمَا لَمۡ يُحِيطُواْ بِعِلۡمِهِۦ﴾[يونس: ٣٩]، وقوله: ﴿وَإِذۡ لَمۡ يَهۡتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفۡكٞ قَدِيمٞ﴾[الأحقاف: ١١]»، وقيل له: «هل تجد ليس الخبر كالعيان؟» قال: «في قوله: ﴿أَوَلَمۡ تُؤۡمِنۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطۡمَئِنَّ قَلۡبِي﴾[البقرة: ٢٦٠]»، وقيل له: «هل تجد فيه لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين؟» قال: «في قوله: ﴿هَلۡ ءَامَنُكُمۡ عَلَيۡهِ إِلَّا كَمَآ أَمِنتُكُمۡ عَلَىٰٓ أَخِيهِ مِن قَبۡلُ﴾[يوسف: ٦٤]»، وقيل له: «هل تجد فيه للحيطان آذان؟» فقال: «في قوله: ﴿وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡ﴾[التوبة: ٤٧]»، وقيل له: «هل تجد فيه من أعان ظالماً سُلِّط عليه؟» قال: «في قوله: ﴿كُتِبَ عَلَيۡهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ وَيَهۡدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ﴾[الحج: ٤]»، وقيل له: «هل تجد فيه لا تلد الحية إلا حية؟» فقال: «﴿وَلَا يَلِدُوٓاْ إِلَّا فَاجِرٗا كَفَّارٗا﴾[نوح: ٢٧]»، وقيل له: «فهل تجد فيه كما تدين تدان؟» قال: «في قوله: ﴿مَن يَعۡمَلۡ سُوٓءٗا يُجۡزَ بِهِۦ﴾[النساء: ١٢٣]»، وقيل لآخر: «أين تجد في القرآن أن المحب لا يعذب حبيبه؟» قال: «في قوله تعالى: ﴿قُلۡ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم﴾[المائدة: ١٨] الآية».

ولأبي الطيب وغيره من فرائد هذا النوع ما تحُلَّى به الرسائل، وتُرصَّع به أحاديث المحاضرات على اختلاف أغراضها وتنوع مشاربها، نحو:

إذا لم تكن نفسُ النسيبِ كأصلهِ ... فما ذا الذي تُغني كرامُ المناصبِ

والغِنى في يدِ اللئيمِ قبيحٌ ... قَدْر قُبحِ الكريمِ في الإملاقِ

وما منزلُ اللّذاتِ عندي بمنزلٍ ... إذا لم أُبجَّل عندَه وأُكرَّمِ

وما كلُّ هاوٍ للجميلِ بفاعلٍ ... ولا كلُّ فعّالٍ له بمتمِّمِ

وإنَّ ابن أختِ القومِ مُصفىً إناؤه ... إذا لم يُزاحِم خالَه باب جِلد

فتىً إن يرضَ لم ينفعكَ شيئاً ... فإنْ يغضبْ عليك فلا تبالِ

وإذا لم يكنْ من الموتِ بدٌّ ... فمن العجزِ أن تكونَ جبانا

وأشرفُهم من كان أشرفَ هِمةً ... وأكثرَ إقداماً على كلِّ مُعظَم

إنما تنجحُ المقالةُ في المر ... ءِ إذا وافقتْ هوىً في الفؤادِ

وإذا الخنا حلَّ الحيا من معشرٍ ... ورأيتَ أهلَ الطيشِ قاموا فاقعدِ

وللسرِّ مني موضعٌ لا يَنالُه ... نديمٌ ولا يُفضي إليه شَرابُ

يَرى الجبناءُ أن العجزَ عقلٌ ... وتلك خديعةُ الطبعِ اللئيمِ

وكلُّ شجاعةٍ في المرء تفنى ... ولا مثلُ الشجاعة في حكيمِ

* * *



الأخلاق[1]

متى انعطف النّاقد البصير يبحث عن الوسائل التي تترقى بها الأمة إلى سنام السعادة القصوى، لا تطمئن نظراته السَّامية إلا على أخلاقها، فبمقدار ما لها من المحافظة على محاسنها، يملأ منظرها أعين الملأ الذي لا يعبأ إلا بجلائل الأمور.

والدليل على ما نقوله، أنَّ الامتزاج بمكارم الخلاق يجبي إلى صاحبه عرفان ما له من الحقوق وما عليه من الواجبات، فلا يُخِلُّ حينئذ بواجب ولا يُدعى إلا بحق، وذلك يدعو بالضرورة إلى شِدَّة الارتباط وكمال الالتئام الذي يجعل أفراد الأمة عضواً واحداً للتعاون على البرِّ والتَّقوى، والتعاضد على الأعمال التي تُنتج لهم التقلب في عيشة راضية، وتحفظ لأعقابهم مستقبلاً حسناً.

وذلك السبب الذي اندفع بنا إلى جعلها ـ أي الأخلاق ـ شعبة من شعب ما تصدع به هاته الصحائف وهذا أوانها.

الخلق: حال للنفس تصدر عنها الأفعال بسهولة، وإن شئت فقل: «هي حال للنفس داعية لها إلى أفعالها من غير فكر ولا روية».

وهذه الحال تنقسم إلى قسمين: منها ما يكون في أصل المزاج كالإنسان

(١) العدد الثالث ـ الصادر في غرة صفر ١٣٢٢.

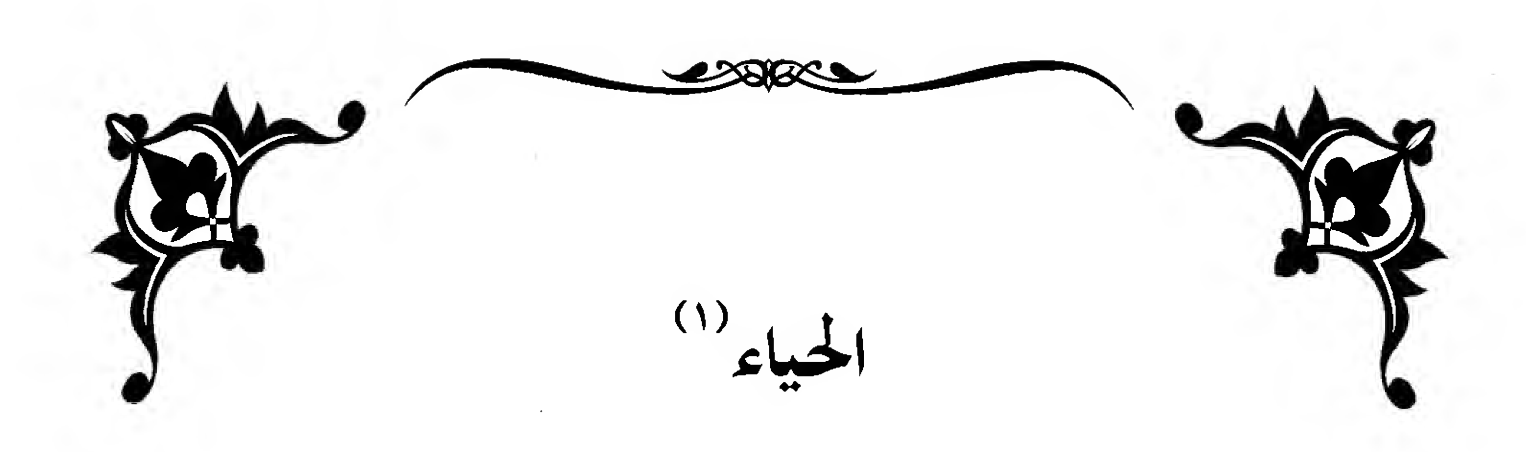
الذي يستفزه أدنى غضب يعرض له، أو يفرْق من أدنى صوت يقرع سمعه، أو يفرط في الضحك من أقل شيء يعجبه، أو يغتم من أيسر شيء يلم به.

ومنها ما يكون مستفاداً بالتربية والتدرب وربما كان مبدؤه بالروية، ثم يتدرَّج شيئاً فشيئاً حتى يصير مَلَكةً وخلقاً.

وللأخلاق ثلاث قوىً متباينة:

أحدها القوّة الناطقة: وتسمّى بالملكية، **ثانيها القوّة الشهوية**: وتسمّى بالبهيمية، **ثالثها القوّة الغضبية**: وتسمى بالسبعية؛ فمتى كانت حركة النفس الناطقة معتدلة، وكان التفاتها دائماً إلى المعلومات الصحيحة، نشأت عنها فضيلة العلم وتتبعها الحكمة، ومتى كانت حركة النفس البهيمية معتدلة بدخولها تحت سلطة القوّة العاقلة، حدثت عنها فضيلة العفّة وتتبعها فضيلة السَّخاء. ومتى كانت حركة النَّفس الغضبية معتدلة منقادة إلى النفس العاقلة، بحيث لا تهيج في غير حينها ولا تحمى أكثر مما ينبغي لها، حدثت منها فضيلة الحِلم وتتبعها الشجاعة.

ثمَّ يحدث باجتماع هاته الفضائل الثلاث فضيلة رابعة هي كمالها وتمامها وهي العدالة، وهذه الأربع أصول وما عداها متفرع عنها، ثم إن تلك الفضائل لا يمدح عليها صاحبها ويتسمّى بها إلا إذا تعدت إلى غيره، وانتشرت آثارها عند بني جنسه، وأما إذا اقتصر بها على نفسه فإنه تصرف عنه أسماءها ولا يذكر بمسمياتها، فإذا لم يبسط الإنسان يده ببذل مال الله الذي أتاه في وجوه المصالح العامة، وخصص صرفه بمآربه الشخصية، سُمّي منفاقاً، وإذا اقتصر بشجاعته على الذَبِّ عن حوزته دون أن يحمي ذمار المستجيرين أو يناضل على حقوق المستضعفين، سُمّي أنفاً، وإذا لم يتجاوز إلى غيره سُمِّي متبصراً.



الحياء[1]

هذا الخلق إذا غُرز في النَّفس ونمت عروقه فيها ازداد رونقها صفاء، ونفض على ظاهر صاحبها مآثر خيـرات حسـان، يعبِّر عنها عشَّاق الفضائل بصبغة الإنسانية، وإذا انتزع من شخص فقد المروءة، وثَكِل الدَّيانة التي هي الجناح المبلِّغ لكل كمال، والدليل على ما نقوله، أن الحياء عبارة عن انقباض النَّفس عما تُذم عليه، وثمرته ارتداعها عمّا تنزع إليه الشهوة من القبائح، فإذا تمزق ستر هذه الفضيلة بغلبة الشهوة على النَّفس، اختلت هيئة الإنسانية بالضرورة، ويقي صاحبها سائماً في مراتع البغي والفسوق؛ وبئس الاسم الفسوق بعد الإيمان.

ويرشدنا إلى هذا قوله عليه الصلاة والسلام «لكل دين خلق، وخلق الإسلام الحياء» رواه «مالك في الموطَّأ»، وفي الصحيح أيضاً أنَّ رسول الله ﷺ مرَّ على رجل وهو يعض أخاه في الحياء، فقال رسول الله ﷺ: «دعه فإنَّ الحياء من الإيمان». قال العلماء: «وإنَّما صار الحياء من الإيمان المكتسب وهو جِبلَّة لما يفيد من الكف عما لا يحسن فعبَّر عنه بفائدته».

وأعجب ما عثرنا عليه في كتب الأخلاق، أنَّ الحياء مركَّب من جبن

---

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

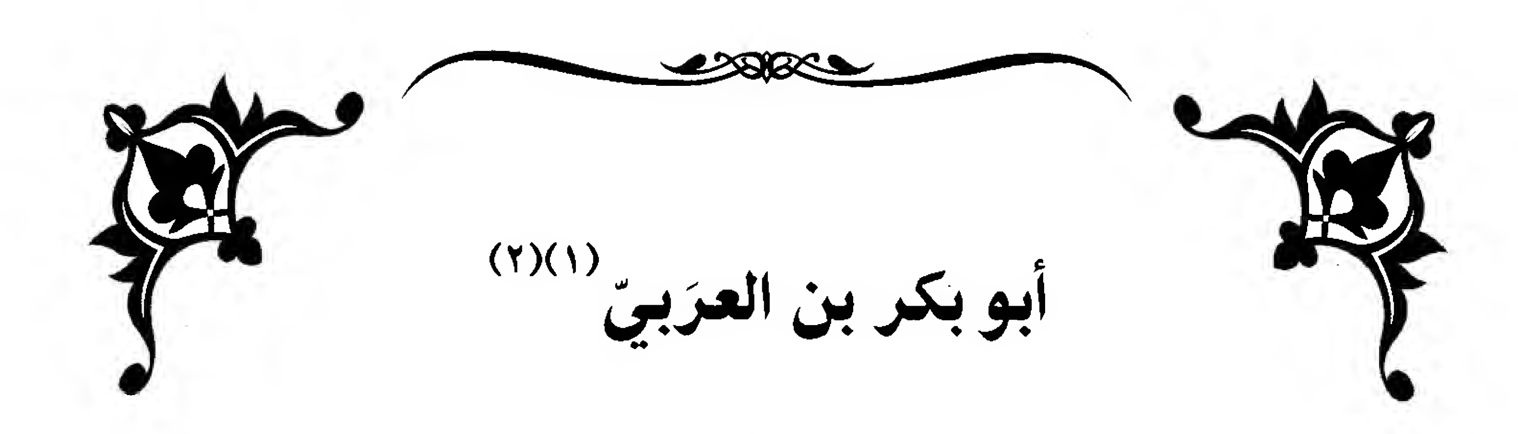
وعفّة، ولذلك لا يكون المستحيي فاسقاً، ولا الفاسق مستحيياً، وقلَّما يكون الشُّجاع مستحيياً والمستحيي شجاعاً لتنافي اجتماع الجبن والشَّجاعة.

أمَّا قوله لا يكون المستحيي فاسقاً ولا الفاسق مستحيياً فمسلَّم، لأنَّ الحياء متفرع عن العفَّة، وأمَّا قوله وقلَّما يكون الشُّجاع مستحيياً إلخ. فباطل لأنه يؤدي إلى تنافي الكمالات، وما سمعنا بهذا من قبل ولا نسمعه من بعد، ويدعو إلى إماطة برقع الحياء حيث كان فيه نوع مباينة للشجاعة التي هي أعز ما يتعاظم بها الرجال، وكلمة الحق التي نقولها أن الحياء من متممات الشجاعة ولا تستقيم بدونه، ثم إن الحياء وسط بين رذيلتين إحداهما الوقاحة والأخرى الخجل. ويقال لها: الخَرَقُ، أما الوقاحة فمذمومة بكل لسان بالنسبة لكل إنسان، وحقيقتها لجاج النَّفس في تعاطي القبيح:

صلابة الوجه لم تغلب على أحـدِ　　　إلاّ تكامَـل فيـه الـشرُّ واجتمعـا

وأما الخَرَقُ: وهو الدهشة من شدة الحياء، فيذم به الرجل اتفاقاً لا سيما في المواطن التي تقتضي حدة وإقداماً، كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والحكم بالحقِّ والقيام به وأداء الشهادات على وجهها، ثم إن الحياء ولو كان جليّاً، قد يزيد بالكسب بواسطة مطالعة أخلاق الكُمَّل وهي إحدى فوائد علم التاريخ، أو كثرة الحضور بمجالستهم، وقد يتولد الحياء من الله تعالى من التقلب في نعمه، فإذا شعر العاقل بذلك استحيا أن يستعين بها على معصيته، ولا ينشأ ذلك الشعور إلا عن عظمٍ في النَّفس وسِعةٍ في العقل.

* * *



أبو بكر بن العرَبيّ[(١)][(٢)]

هو محمد بن عبدالله بن محمد بن عبدالله بن أحمد بن العربي المعافري

---

(١) العدد السادس عشر ـ الصادر في ١٦ شعبان الأكرم ١٣٢٢ .

(٢) للإمام بحث آخر عن أبي بكر بن العربي في كتابه «تراجم الرجال» .

كتب الإمام مقدمة للتراجم التي عزمت المجلة على إنجازها قال فيها :

«من الفنون التي أخذت العرب من العناية منها قسطاً وافراً علم التاريخ، وهو معرفة أحوال الأمم الماضية من أخلاقهم وعاداتهم وصنائعهم وأنسابهم ووفياتهم إلى غير ذلك، وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها، وحصول ملكة التجارب بالوقوف على طبائع الكائنات وتقلبات الزمن وأطواره، ليتحرز عن أشباه ما أملاه عليه من الخطوب التي نزلت بالأفراد والأمم عن عروش الفخامة والجلال، ويعلم كيف التخلص منها بعد السقوط في مهواتها، ويعمد إلى التأسي بهم في الأشياء التي كانت أساس ارتقائهم، واستوجبوا بها حسن الذكرى وجميل الأحدوثة، ولذلك جعلته الشريعة الغرّاء ذريعة إلى الاعتبار والتهذيب، وعلّمت الناس كيف ينتفع به في الاجتماع البشري.

وقد احتفل القرآن في ذلك، فأفاض على عقول أهله أشعة من مواعظه الحسنة، وألقي إليهم بشذر من أسراره، ليتفقهوا بها في دينهم ودنياهم، وأكثر قصصه وأخباره من الغيوب التي لا يعلمها العرب، قال تعال: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهَآ إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَآ أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[هود: ٤٩] لكنها من جنس ما كانوا ينتحلونه وينظمونه في سلك مذاكراتهم».

هذا وقد عزمنا على إنجاز ما وعدنا به طالع هذه المجلة من فتح باب لهذا الفن، =

الأندلسي الإشبيلي، ولد ليلة يوم الخميس لثمان بقين من شعبان سنة ثمان وستين وأربعمائة، وحفظ القرآن وهو ابن تسع سنين، وما بلغ ست عشرة إلا وقد قرأ من الأحرف نحواً من عشرة بما يتبعها من إظهار وإدغام ونحوه، وتمرَّن في الغريب والشعر واللغة، ثم رحل إلى المشرق مع أبيه يوم الأحد مستهل شهر ربيع الأول سنة خمس وثمانين وأربعمائة، فدخل الشام والعراق وبغداد وسمع بها من كبار العلماء، «كأبي بكر بن الوليد الطرطوشي»، و«أبي بكر الشاشي»، ثم حجَّ في سنة تسع وثمانين، وعاد إلى بغداد ولقي «أبا حامد الطوسي الغزالي».

قال في «قانون التأويل»: «ورد علينا ذا نشمند «يعني الغزالي» فنزل برباط أبي سعد بإزاء المدرسة النظامية معرضاً عن الدنيا مقبلاً على الله تعالى، فمشينا إليه وعرضنا أمنيتنا عليه، وقلت له: أنت ضالتنا التي كنّا ننشد وإمامنا الذي به نسترشد، فلقينا لقاء المعرفة، وشاهدنا منه ما كان فوق الصفة، وتحققنا أن الذي نقل إلينا من أن الخبر على الغائب فوق المشاهدة ليس على العموم، ولو رآه «علي بن العباس» لما قال:

إذا ما مدحت امرءاً غائباً ... فلا تغلُ في مدحه واقصدِ

فإنَّك إن تغلُ تغل الظّنو ... نُ فيه إلى الأمدِ الأبعد

فيصغر من حيث عظَّمته ... لفضلِ المغيبِ على المشهد

= الذي ندب إليه الشارع بقوله: ﴿وَذَكِّرْهُم بِأَيَّىٰمِ ٱللَّهِ﴾[ابراهيم: ٥] وسبق إلى استحساننا التصدي للتعريف ببعض العلماء الأعلام، الذين اعتنت الجهابذة بنقل أنبائهم العظيمة وتخليد آثارهم الفخيمة، ونذكرها بعون الله على حسب ما تسمح به الفرص، من غير نظر إلى ترتيبهم في الزمان ورفعة المكان.

وذكر في العواصم أنه لقيه بمدينة «السلام» سنة تسعين وأربعمائة، ثم صدر القاضي أبو بكر عن بغداد، ولقي بمصر والإسكندرية جماعة من المحدّثين، فكتب عنهم واستفاد منهم وأفادهم، ومات أبوه رحمه الله «بالإسكندرية» أوّل سنة ثلاث وتسعين، فانصرف حينئذ إلى «إشبيلية» بعلم كثير لم يدخل أحد قبله بمثله ممّن كانت له رحلة إلى المشرق، ولذا نقل عنه أنه قال: «كل من رحل لم يأت بمثل ما أتيت به أنا و«القاضي أبو الوليد الباجي»، أو ما هذا معناه، واستقضي بها فنفع الله تعالى به أهلها لصرامته وشدَّته على الظالمين والرفق والرأفة بالمعتدلين، شأن العالم الذي لا تدور أعماله إلا على محور الشريعة، والتزم هذا القاضي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى أوذي في ذلك بذهاب كتبه وماله، فقابل ذلك كله بالصبر الجميل، وكان كثير التحمل ثابت الفؤاد.

قال في «العواصم»: «ولقد حكمت بين الناس فألزمتهم الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى لم يكن في الأرض منكر، واشتدَّ الخطب على أهل الغصب، وعظم على الفسقة الكرب، فتألبوا وألبّوا وثاروا إلي فاستسلمت لأمر الله، وأمرت كل من حولي أن لا يدفعوا عن داري، وخرجت على السطوح بنفسي، فعاثوا علي وأمسيت سليب الدار، ولولا ما سبق من حسن المقدار لكنت قتيل الدار».

ومما وقع في زمن ولايته أن احتاج سور «إشبيلية» إلى بنيان جهة منه، ولم يكن بها مال متوفر، ففرض على الناس جلود ضحاياهم، وكان ذلك في عيد أضحى فأحضروها وهم كرهون، ثم صُرِف عن القضاء، وأقبل على نشر العلم وبثِّه.

وذكره «ابن الزبير في صلته»، وقال في حقه: «كان فصيحاً، حافظاً، أديباً، شاعراً، كثير الملح، مليح المجلس»، ثم قال: «قال القاضي عياض بعد أن وصفه بما ذكرته: لكثرة حديثه وأخباره وغريب حكاياته ورواياته؛ أكثر الناس الكلام وطعنوا في حديثه».

ويؤيد لك ما نقله ابن الزبير عن عياض، ما روى «ابن مسدي» في «معجم شيوخه» أن أبا بكر بن العربي قال «لأبي جعفر المرخي» حين ذكر أنه لا يعرف حديث «ابن خطل» والأمر بقتله إلا من حديث «مالك عن الزهري»: قد رويته من ثلاثة عشر طريقاً غير طريق مالك، فقالوا له: «أفدنا هذه الفوائد»، فوعدهم ولم يخرج لهم شيئاً، قال «الحافظ في نكته»: «قد استبعد أهل إشبيلية قول ابن العربي حتى قال قائلهم:

يا أهلَ حمصَ ومن بها أوصيكم	بالبرِّ والتَّقوى وصيةَ مشفقِ
فخذوا عن العربي أسمارَ الدُّجى	وخذوا الروايةَ عن إمامٍ متَّقِ
إنَّ الفتى ذربُ اللِّسانِ مهذبٌ	إن لم يجد خبراً صحيحاً يَخْلُقِ

وعنى بأهل حمص أهل اشبيلية، قال: «وقد تتبعت طرقه فوجدته كما قال ابن العربي بل أزيد».

وقال المحدِّث «أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن بشكوال» في حقه: «هو الحافظ المتبحر ختام علماء الأندلس وآخر أئمتها وحفّاظها». ومما قاله في ترجمته «الفتح بن خاقان» في «مطمح الأنس» ما نصه: «علم الأعلام، الطاهر الأثواب، الباهر الألباب، الذي أنسى ذكاء أياس، وترك التقليد للقياس، وأنتج الفرع من غير أصل، وغدا في الإسلام أمضى من النصل، سقى الله به

الأندلس بعد ما أجدبت من المعارف، ومدَّ عليها منه ظله الوارف، وكساها رونق نبله، وسقاها ريق وبله»، إلى أن قال: «حتى أصبح في العلم وحيداً، ولم تجد عنه رئاسته محيداً، فكرَّ إلى الأندلس فحلَّها والنفوس إليه متطلعة، ولأنبائه متسمعة، فناهيك من حظوة لقى، ومن عزة سقى، ومن رفعة سما إليها ورقى، وحسبك من مفاخر قلَّدها، ومحاسن أنس أثبتها فيها وخلّدها» اهـ.

ومن اطلع على ما انطوت عليه تآليفه من التحقيقات البديعة والفوائد النفيسة، عظمت في عينه مكانة هذا الرجل، وعلم أن مقامه الأسمى فوق ما وصفه به هؤلاء الواصفون.

*** تآليفه:**

منها كتاب «القبس في شرح موطأ مالك بن أنس»، وكتاب «ترتيب المسالك في شرح موطأ مالك»، وكتاب «عارضة الأحوذي في شرح سنن الترمذي»، وكتاب «الخلافيات»، وكتاب «أحكام القرآن»، وكتاب «مراقي الزلف»، وكتاب «نواهي الدواهي»، وكتاب «العواصم والقواصم»، وكتاب «سراج المريدين»، وكتاب «المشكلين مشكل الكتاب والسنة»، وكتاب «الناسخ والمنسوخ في القرآن»، وكتاب «النيرين في الصحيحين»، وكتاب «سراج المهتدين»، وكتاب «الأمد الأقصى بأسماء الله الحسنى وصفاته العلى»، «وتبيين الصحيح في تعيين الذبيح»، و«تفصيل التفضيل بين التحميد والتهليل»، ورسالة «الكافي في أن لا دليل على النافي»، وكتاب «التوسط في معرفة صحة الاعتقاد والرد على من خالف السنة من ذوي البدع والإلحاد»، وكتاب «الإنصاف في مسائل الخلاف» عشرون مجلداً، وكتاب «المحصول في علم الأصول»، وكتاب «أعيان الأعيان»، وكتاب «ملجأة المتفقهين في معرفة

غوامض النحويين»، وكتاب «ترتيب الرحلة»، وكتاب «حديث الإفك»، وكتاب «حديث جابر في الشفاعة»، وكتاب «شرح حديث أم زرع»، وكتاب «أنوار الفجر»، وكتاب «قانون التأويل»، قال «ابن جزّي» في تفسيره: «أما ابن العربي فصنَّف كتاب «أنوار الفجر» في غاية الاحتفال والجمع لعلوم القرآن، فلما تلف تلافاه بكتاب «قانون التأويل»، إلا أنه اخترمته المنية قبل تخليصه وتلخيصه، وألَّف في سائر علوم القرآن تآليف مفيدة».

وقد يسَّر الله لصاحب هاته الجملة مطالعة جانب منها، ككتاب «العارضة» في مجلدين وجزأين من الأحكام، يبتدآن من المائدة إلى سورة الناس، وثلاثة أجزاء من «ترتيب المسالك»، وكتاب «العواصم والقواصم» وانتفعنا بها نفعاً عظيماً.

*** وفاته:**

قال ابن الزبير توفي، أي ابن العربي، من منصرفه من «مراكش» من الوجهة التي توجه فيها مع أهل بلده إلى الحضرة بعد دخول مدينة إشبيلية، فحبسوا بمراكش نحو عام ثم سُرِّحوا، فأدركته منيته بطريقه على مقربة من مدينة «فاس» بمرحلة، وحمل ميتاً إلى مدينة فاس، فدفن بها «بباب الجيسة».

وقال القاضي «أبو الحسن النباهي» في كتاب «المرقبة العليا في القضاء والفتيا»: «الصحيح في القاضي أبي بكر أنه دفن خارج باب المحروق من فاس، وما وقع من دفنه بباب الجيسة وهْمٌ من ابن الزبير وغلط، وقد زرناه وشاهدنا قبره حيث ذكرناه، وكانت وفاته رحمه الله سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة».

*** فوائده :**

منها قوله رحمه الله تعالى : «تذاكرت بالمسجد الأقصى مع شيخنا «أبي بكر الفهري الطرطوشي» حديث أبي ثعلبة المرفوع «أن من ورائكم أيّاماً للعامل فيها أجر خمسين منكم» فقالوا : بل منهم، فقال : بل منكم، لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً، وتفاوضنا كيف يكون أجر من يأتي من الأمة أضعاف أجر الصحابة مع أنهم قد أسسوا الإسلام وعضدوا الدين، وأقاموا المنار، وافتتحوا الأمصار، وحموا البيضاء، ومهدوا الملة، وقد قال ﷺ «لو أنفق أحدكم كلَّ يوم مثل أُحُدٍ ذهباً ما بلغ مُدَّ أَحدِهم ولا نصيفه» فتراجعنا القول وتَحصَّل ما أوضحناه في شرح الصحيح.

وخلاصته أن الصحابة كانت لهم أعمال كثيرة لا يلحقهم فيها أحد ولا يدانيهم فيها بشر، وأعمال سواها من مرفوع الدين يساويهم فيها في الأجر من أخلص إخلاصهم، وخلَّصها من شوائب البدع والرياء بعدهم، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر باب عظيم هو ابتداء الدين والإسلام، وهو أيضاً انتهاؤه، وقد كان قليلاً في ابتداء الإسلام صعب المرام وفي آخر الزمان أيضاً يعود كذلك، لوعد الصادق ﷺ بفساد الزمان، وظهور الفتن، وغلبة الباطل، واستيلاء التبديل والتغيير على الحق من الخلق، وركوب من يأتي سنن من مضى من أهل الكتاب، كما قال ﷺ : «لتركبنَّ سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جُحرَ ضبٍّ لدخلتموه» وقال ﷺ : «بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ»، فلابد والله تعالى أعلم بحكم هذا الوعد الصادق أن يرجع الإسلام إلى واحد كما بدأ من واحد، ويصعب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى إذا قام به قائم مع احتواشه بالمخاوف

وباع نفسه من الله تعالى في الدُّعاء إليه كان له من الأجر أضعاف ما كان لمن كان متمكناً منه معاناً عليه بكثرة الدعاء إلى الله تعالى، وذلك قوله: «لأنكم تجدون على الخير أعواناً وهم لا يجدون عليه أعواناً» حتى ينقطع ذلك انقطاعاً باتاً لضعف اليقين وقلة الدين كما قال ﷺ: «لا تقوم السَّاعة حتى لا يقالُ في الأرضِ الله الله»، فروي برفع الهاء ونصبها، فالرفع على معنى لا يبقى موحِّد يذكر الله عز وجل، والنصب على معنى لا يبقى آمر بمعروف ولا ناه عن منكر يقول: أخاف الله، وحينئذ يتمنى العاقل الموت، كما قال ﷺ: «لا تقوم الساعة حتى يمر الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني كنت مكانه».

«السعادة» يبتغي بعض المنتسبين إلى العلم أن تكون لهم اليد المطلقة في النهي عن كل منكر يشاهدونه، حتى إذا لم يتمكنوا من النهي عن بعض المنكرات أعرضوا ونأوا بجانبهم عن القيام بحقوق هذا الواجب رأساً، وخلعوا عهدته من رقابهم ولو فيما تنفذ فيه كلمتهم، ومنهم من يهملها استناداً لقضية اختلقتها ألسنة الذين يؤثرون الحياة الدنيا عن الآخرة، ليتخذوها وليجة لإرضاء من لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً، ألا وهي دعوى فساد الزمان وعدم إفادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر عند غلبية الفساد، والله يشهد أنهم لمخطئون، لا تكون الحيلولة بينهم وبين النهي عن بعض المنكرات حجة يستبيحون بها التخلف والتنازل عن هذا المنصب مطلقاً، ولا يكون ظنهم عدم إفادة أمرهم ونهيهم عذراً صحيحاً يقدمونه عندما يُسألون.

ومنها قوله في «الأحكام» عند قوله تعالى: ﴿فِيٓ أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ﴾[فصلت: ١٦] قيل: إنها كانت آخر شوال من الأربعاء إلى الأربعاء، والناس يكرهون السفر يوم الأربعاء لأجل هذه الرواية، حتى أن لقيت يوماً مع «خالي الحسن بن

أبي حفص» رجلاً من الكتاب، فودعنا بنية السفر، فلما فارقنا قال لي خالي: إنك لا تراه أبداً لأنه سافر في يوم أربعاء لا يتكرر وكذا كان، مات في سفره، وهذا ما لا أراه لأن يوم الأربعاء يوم عجيب، بما جاء في الحديث من الخلق فيه والترتيب، فإن الحديث ثابت بأن الله تعالى خلق يوم السبت التربة، ويوم الأحد الجبال، ويوم الاثنين الشجر، ويوم الثلاثاء المكروه، ويوم الأربعاء النور، وروي النون، وفي غريب الحديث أنه خلق يوم الأربعاء التقن، وهو كل شيء تتقن به الأشياء، يعني المعادن من الذهب والفضة والنحاس والحديد والرصاص، فاليوم الذي خلق فيه المكروه لا تعافه النفس، واليوم الذي خلق فيه النور أو التقن يعافونه، إن هذا لهو الجهل المبين.

وفي «المغازي» أن النبي ﷺ دعا على الأحزاب من يوم الاثنين إلى يوم الأربعاء بين الظهر والعصر فاستجيب له وهي ساعة فاضلة، فالآثار الصحاح تدل على فضل هذا اليوم، فكيف يُدعى فيه التحذير والنحس بأحاديث لا أصل لها، وقد صوَّر قوم أياماً من الأشهر الشمسية ادعوا فيها الكراهة، لا يحل لمسلم أن ينظر إليها ولا يشغل بها بالاً، قبَّحهم الله.

«السعادة» بهذا يعلم أن ما جرت به العادة من عدم عيادة المريض في هذا اليوم وتطيره بذلك، وهو وسوسة وهوس لا تشتغل به إلا الخواطر المبرسمة التي تبني معتقداتها على شفا جرف الأوهام الباطلة.

* * *



ترجمة القاضي
أبي الوليد الباجيّ الأندلسيّ(١)

سـليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث التجيبي، أصله من «بطليوس»، ثم انتقل جدّه إلى «باجة»(٢) وإليها نسـب أبو الوليد، ثم سكنوا بعد «قرطبة»، ولد في ذي القعدة سنة ثلاث وأربعمائة، وكان على عهد دولة «المعتضد عبّاد» ملك «إشبيلية» ووالد «المعتمد بن عباد»، وله فيه من شعره قوله:

عبّـــاد اســـتعبد البرايـــا ... بـــأنعُمٍ تبلـــغ النعـــائم
مديحـــه ضـــمن كـــل قلـــبٍ ... حتـــى تغنـــت بـــه الحمـــائم

(١) العدد الثامن عشر ـ الصادر في ١٦ رمضان المعظم ١٣٢٢.

(٢) باجة هذه إحدى كور الأندلس العربية، كانت في التقسيم القديم تابعة لمملكة إشبيلية زمان تشعب الطوائف أيام دولة بني عبّاد ملوك إشبيلية «وتسمى حمصاً لنزول جيش حمص ولوائِهم بها عند وفود الأموية» وبباجة كان مولد المعتمد بن عباد أحد ملوك إشبيلية الشهير في التاريخ وكتب الأدب الأندلسي.
أما اليوم فقد انفصلت عن إشبيلية، وأصبحت في نصيب مملكة البرتغال من تركة العرب، وهي إحدى المدن الكبرى من ولاية «النتيجو ـ أو ـ اليمتيجو» البرتغالية.
وربما وقعت تسميتها في بعض الخرائِط العربية الجديدة «بيجا» وهو خطأ منشؤه نقلها عن بعض الخرائط الفرنسية وما كلها سمّتها كذلك.

وتوفي «بالمرية» سنة أربع وسبعين وأربعمائة لسبع عشرة خلت من رجب.

* **نشأته العلمية:**

أخذ العلم بالأندلس عن «ابن الرحوي»، و«أبي محمد مكي»، والقاضي «يونس بن مغيث» الموثِّق الشهير، ثم بدا له أن يرحل إلى طلب العلم ليجمع بين الطريقة المشرقية فيمزجها بالطريقة الأندلسية، فرحل إلى المشرق سنة ست وعشرين وأربعمائة، فحجَّ وأخذ بالحجاز عن الحافظ «الإمام أبي ذر الهروي» الذي ترجع إلى روايته أكثر نسخ «صحيح البخاري» بالمغرب بواسطة «أبي الوليد الباجي»، لازمه ثلاث سنين، ثم وفد على «بغداد» فدرس بها الفقه والحديث عن جلَّة من العلماء، منهم «أبو إسحق الشيرازي»، والقاضي «أبو الطيب الطبري»، و«الصيرفي»، و«ابن عمورس»، ومكث بها ثلاث سنين، ثم وفد على «الموصل» فأقام بها سنة في صحبة «أبي جعفر السمناني» يأخذ عنه علم الكلام، ولقي الحافظ «أبا بكر الخطيب البغدادي» فروى كل واحد منهما عن الآخر، فمكث في رحلته كلها نحواً من ثلاثة عشر عاماً.

وكان في سني رحلته ضيق الحال، حتى كان قد قصد بشعره، وحتى استأجر نفسه في بغداد لحراسة درب، فكان يستعين بمقدار أجرته على نفقته ومطالعته، ثم قفل راجعاً إلى الأندلس سنة ٤٣٩هـ، فدخلها على ضنك حاله، فكان يخلط أوقات تدريسه ومطالعته بضرب ورق الذهب، حتى اشتهر من خبره أنه كان يخرج إلى درسه إذا جاء التلامذة للقراءة وفي يديه أثر المطرقة وصدأ العمل.

دام على ذلك إلى أن اشتهرت تآليفه وفشا علمه، فعُرف حقه وعَظُم

جاهـه، وقرَّبـه الملوك حتى مـات عن مـال كثير. أخـذ عنه الإمام «أبو بكر الطرطوشي»، والقاضي «ابن شيرين»، و«أبو الصدفي الحافظ»، والقاضي «أبو القاسم المعافري»، وروى عنه حافظا المغرب والمشرق «أبو عمر ابن عبد البر»، و«الخطيب أبو بكر ابن ثابت البغدادي».

كان أبو الوليد رحمه الله فقيهاً، نظّاراً، محققاً راوية محدِّثاً، يفهم صفة الحديث ورجاله، متكلماً أصولياً، فصيحاً، حسن التأليف، ألَّف كتباً مهمة أكبرها في الفقه ومعاني الحديث كتاب «المنتقى شرح الموطأ»، وهو موجود غالبه، طالعنا منه جزأين ضخمين يقربان من نصفه أو أكثر، قيل كان ابتداء تأليفه كتاب سـمّاه «الاسـتيفاء على الموطأ» بلغ فيه الغايـة من التطويل، لكنه لم يأت فيه بغير شـرح الطهارة في مجلـدات، واختصر من المنتقى كتاباً سمّاه «الإيماء»، وكتاب «السراج في مسائل الخلاف» لم يتم، وكتاب «المقتبس في علم مالك بن أنس» لم يتم، وكتاب «المهذب» اختصار المدونة، «وشـرح المدونة» لم يتم، وكتاب «اختلافات الموطـأ»، وكتاب «التعديل والتجريح لمن خرَّج عنه البخاري في الصحيح»، وله في الكلام كتاب «التسديد لمعرفة طريق التوحيد»، وفي الأصول كتاب «أحكام الأصول»، وكتاب «الإشـارة في الأصـول» موجود وهو مؤلـف في جزء صغير يشـتمل على علم كثير، و«تفسير القرآن» لم يتم، وكتاب «الانتصار لأعراض الأئمة الأخيار»، ورسائل، ورسالة في الجدل توجد ببعض مجاميع خزائن الجامع الأعظم.

كان له مع ذلك شعر مطبوع حسن، لكنه لم يبلغ به صناعة الشعر، وهاك نموذجاً منه في مقام تنقدح فيه القرائح الشعرية، وتبرز المكنونات النفسية،

قوله في رثاء ابنه وأخيه وماتا مغتربين عنه[1]:

رعى اللهُ قبرين استكانا ببلدةٍ	هما أسكناها في السوادِ من القلب
لئن غُيِّبا عن ناظري وتبوّءا	فؤادي لقد زاد التباعدُ في القرب
يقرُّ بعيني أن أزورَ ثراهما	وألزق مكنون الترائبِ بالتُّرب
وأبكي وأبكي ساكِنَيها لعلّني	سأنجدُ من صحبٍ وأسعدُ من سُحب
فما ساعدت ورقُ الحمام أخا أساً	ولا روَّجت ريحُ الصبا عن أخي كرب
ولا استعذبت عيناي بعدَهما كرى	ولا ظمأت نفسي إلى البارد العذبِ
أحنُّ ويثني اليأسُ نفسي عن الأسى	كما اضطر محمولٌ على المركب الصعب

فما زاد رحمه الله في شعره على الطبع اللفظي والمحسنات، وما أودع فيه من معنى الخطب إلا معاني مطروقة معلومة لا تستحق أن توصف بوصف الشعر، وكذلك رثى ابنه في قصيدة أخرى بمعان وإن كانت أقل شهرة من هذا إلا أنها سبق بها جمع كثير من الشعراء، وهي بعد على طرف الثمام، فلا يفيدنا سردها حكماً جديداً على شعر أبي الوليد.

*** نهضته بالنظر في فقهاء الأندلس:**

قلنا: إن أبا الوليد الباجي قد بعثته نفسه على الرحلة للمشرق في طلب العلم، وتلك علامة على كبر نفسه وطلبها للمعالي، فاستفاد من الثلاثة عشر عاماً التي قضاها علماً زاخراً من أئمة العصر يومئذ، وجمع بين

---

(١) وَهمَ من ظن أن القصيدة في رثاء ابنيه، لأنه إنما فقد أحد ابنيه في حياته وهو أبو الحسن محمد وكان ذكياً نبيلاً مرجواً لمرتبة علمية، أما ثاني ابنيه فهو أبو القاسم بلغ من العلم مبلغ خلف أبيه في مجلسه ودرسه.

الطريقتين، ورجع مزجاً من إقليمين.

وقد كان فقهاء الأندلس يومئذ يقتصرون من الفقه على تخريج مسائل المدونة شرحاً واستنباطاً، ويضمون إلى ذلك ما ينزل بهم من الأقضية المحدثة تحت اسم «العمل»، فجاءت عدة أعمال، «عمل قرطبة» «عمل طيطلة». . . إلخ، إلا أن ذلك كله كان في فصاحة عبارة وحسن تبويب كما تشهد بذلك كتبهم التي ترى لنا اليوم، ولم يكن فيها من النظارين يومئذ إلا «أبا محمد ابن حزم» الإمام الشهير، لكنه كان منبوذاً بينهم بمتابعته مذهب «داوود الظاهري»، على أنه كان ينال من الفقهاء وطريقتهم بالشتم والتحقير ما أضاق نفوسهم منه، ولم يجدوا من سعة العلم والعرفان بالسنّة والعلوم الكلامية من يقدر على مناظرته أو إقناعه في الأقل، فكانوا متشوقين لممن يقوم بذلك، فلما قدم أبو الوليد، قام بمناظرة ابن حزم وبيَّن له مسائل كان يخلط فيها، حتى اضطره إلى مفارقة البلد الذي هو فيه، ولكنه مع ذلك لم يكن يجري بينهما شيء زائد على المناظرة من نحو سباب الجهّال وتنابز الطغام، حتى لقد كان كل منهما يعترف لصاحبه بقوة العلم والنظر، قال عياض: «بلغني أن أبا محمد ابن حزم على بعد ما بينهما كان يقول: لم يكن للمالكية بعد عبد الوهاب مثل أبي الوليد».

قال الباجي يوماً مفاخراً لابن حزم: «أنا أعظم منك همة في طلب العلم، لأنك طلبتَه وأنت تعان عليه، تسهر بمشكاة الذهب «يشير إلى سعة ثروة ابن حزم وآبائه»، وطلبتُه وأنا أسهر بقنديل بائن السوق «جمع ساق»»، فقال له ابن حزم: «هذا الكلام عليك لا لك، لأنك إنما طلبت العلم وأنت في تلك الحال رجاء تبديلها بمثل حالي، وأنا طلبته في حين ما تعلمه وما ذكرته،

فلم أرج به إلا علو القدر العلمي في الدنيا والآخرة»، فأفحمه.

وأدخل للأندلس طريقة النظر في الفقه، فكان ينزع منازع الاجتهاد على طريق النظّار من البغداديين وحذّاق أئمة القرويين والقيام بالمعنى والتأويل، قال عياض: «وكانت كتبه مشهورة جليلة، ولكن أبلغ ما كان فيها في الفقه وإتقانه». قال القاضي أبو بكر بن العربي: «ولولا أن طائفة نفرت إلى ديار العلم، وجاءت منه بلباب كالباجي والأصيلي فرشت على هذه القلوب الميتة، وعطرت أنفاس الأمة الزفرة، لكان الدين قد ذهب».

كانت الفلسفة اليونانية يومئذ قد مدَّت أطنابها على الأندلس، وروَّجت كثيراً من العقائد المقارنة لها في كتب أصحابها، في قلوب كثير من ضعفاء الذين مازجوها حتى أفضت ببعضهم إلى الإلحاد في الدين، ولم يجدوا مع ذلك كله من يقوم بتبيان الحق ويفسِّر حقائق الإسلام وآدابه للذين استهوتهم فلسفة الأخلاق اليونانية والفارسية على ما فيهما من تبديل وقِدَمٍ، ومن خلط العقائد بالفلسفة، فلما جاء أبو الوليد ابتدأ يبين لخاصة المتفلسفين أن الفلسفة شيء والعقيدة شيء، وأن لهم في كتابهم من فضائل الأخلاق ما لو شرحوه ودوَّنوه لفاق غيره، ومن حديثه في ذلك أنه كان يوماً في مُناخ «أحمد بن هود» الملقب «بالمقتدر ملك سرقسطة» ينتظر إذنه، فجالسه ابنه «يوسف» الملقب «بالمؤتمن» الذي ورث بعده ملك سرقسطة سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وكان قائماً على الفلسفة والعلوم الرياضية وله فيها تآليف مثل «الاستهلال والمناظر»، وجاذبه ذيل الحديث، فقال أبو الوليد للمؤتمن: «هل قرأت زجر النَّفس لمحمد بن عبدالله ﷺ؟»، يُعرِّض له «بكتاب أفلاطون» في الأخلاق الذي يُسمّى «زجر النَّفس»، وعنى ما تضمنت الشريعة في هداية النُّفوس.

بهاته النهضة وما تبعتها، ممن خطَّ على تسطير أبي الوليد الباجي مثل «ابن العربي»، و«ابن رشد الحفيد»، و«ابن السيد»، كملت النهضة العلمية بالأندلس وجمعت طرق العلم والتعليم، ونخلت العلوم المختلطة، دام ذلك الأمر إلى أن خبت نارها بِبِرْكة التفرق والتنازع.

نال أبو الوليد وجاهة عند الملوك والرؤساء ما بين «سرقسطة وبلنسية ومرسية ودانية»، فاغتنم وجاهته هذه فرصة، فسعى بين ملوك الطوائف يؤلفهم على وحدة الإسلام، ويروم جمع كلمتهم مع جنود المغرب المرابطين، ليحفظوا الأندلس من السقوط المتوقع، وهم يجلّونه في الظاهر ويستثقلون نزعته في الباطن، ولذلك لم يفلح له سهم فيما أراد حتى مات «بالمرية» في هذا الغرض.

*** ماذا لقي أبو الوليد من جزاء على حسن صنيعه؟**

كان أن لم تتخلف سنَّة الزمان عن اطرادها، حتى لحقت الباجي على سعة علمه وشهادة الأمة له ونصحه لها وإيقاده بصائرها ومكانه من الوقار، فإنه ما لبث شجى في حلوق حاسديه لم يجدوا فيه مغمزاً أوهنة ينسبونها إليه، ليسقطوا من جنبه في نظر الأمة، ويمحوا من اسمه ما اشتهر، ولم يرقبوا فيه حقاً، فتربصوا به الملجأ الأخير مخالفة المعتاد والإتيان بشيء جديد، ذلك الأمر الذي يسخط صغار العقول من العلماء، فيسعون به لدى العامة يستعينون بغضبها الأعمى على اضطهاد الرجال الكبار، فإن أبا الوليد لما كان بالمنزلة التي عرفتم، وكان علم الحديث كدأبه يتضاءل في الأمة بعد القرون الأولى، لا يجد حاملاً لا ينوء به حمله، فكان درس «حديث صلح الحديبية» من «صحيح البخاري» حين أبى المشـركون أن يكتب كاتب رسـم الصلح كلمة

رسول الله، وألحوا في استبدالها بابن عبدالله، فحين أبى أن يمحوا هذا الوصف محاه رسول الله وكتب ما طلبوا. فأنكره عليه «ابن الصايغ» وكفَّره بإجازته الكتابة على رسول الله، وهي تكذِّب الأمية الموصوف بها في القرآن، وأكبرها الناس إذ لم يسمعوها من قبل، وكان من حقهم لو كانوا يعلمون، أن يكبروا الحديث لا مقال أبي الوليد، وقبحوا عند العامة ما أتى به، وأكثر القالة فيه من لم يفهم غرضه حتى أطلق عليه اللعنة علماؤهم، وضمنوا البراءة منه في أشعارهم، وحتى قام بذلك بعض خطبائهم في الجمع، وحتى قال «عبدالله بن هند» فيه قصيدة استهلها بقوله:

برئتُ ممن شرى دنيا بآخرة   وقال إنَّ رسول الله قد كتبا

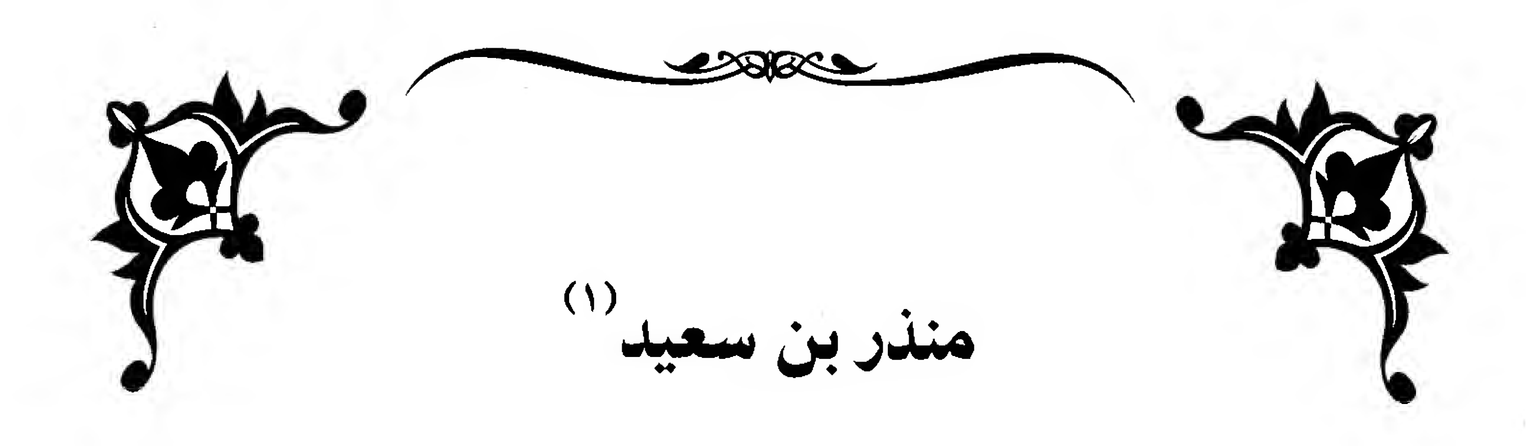
قال عياض: «ولم ينكر عليه أولو التحقيق في العلم، وكتب بالمسألة إلى شيوخ صقلية فأثنوا عليه وسوغوا تأويله، وأنكروا على من أنكر عليه، وألَّف في ذلك رسالة بيّن فيها وجوه المسألة، وأنها لا تقدح في المعجزة كما لم تقدح القراءة في ذلك بعد إن لم يكن قارئاً من قبل، بل في هذا معجزة أخرى»، ولولا تعلقه بجانب من الدولة لخشي من هاته العصبية الضالة على حياته، رُوي عنه أنه كان يقول ـ وقد ذكرت له صحبة السلطان ـ: «لولا السلطان لنقلني الذر من الظل إلى الشمس». من أجل هذا لم يُولَّ إلا قضاء مواضع من الأندلس تقصر عن قدره، فكان يبعث لذلك خلفاءه.

*** ثناء الأفاضل عليه:**

مثل أبي الوليد لا تذعن له النفوس حتى يموت، فشهد له «ابن العربي»، و«عياض»، و«ابن بسام»، و«ابن خلكان»، و«ابن بشكوال»، وسُئل عنه «الصدفي الحافظ» فقال: «هو أحد أئمة المسلمين لا يُسأل عن مثله وما رأيت

مثله»، وذكره تلامذته كلهم بأحسن ما يذكر به تلامذة نجباء بارّون شيخاً نوَّر عقولهم في الظلمات مثله، وأبى الله إلا أن يتم نوره ويخلِّد اسمه ولو كره الضالون.

* * *



منذر بن سعيد[1]

القاضي أبو الحسن منذر بن سعيد البلوطي»، كان واسع العلم، غزير الفضل، قوي الجأش، لا تأخذه في نصرة الحق لومة لائم، ولد سنة خمس وستين ومائتين، وسمع من «عبيدالله بن يحيى» ونظرائه، ثم رحل حاجاً سنة ثمان وثلاثمائة، فالتقى بعدة أعلام من فحول العلماء، واشتهر فضله بالمشرق، وممن سمع عليه منذر بالمشرق ثم «بمكة محمد بن المنذر النيسابوري» أخذ عنه كتابه المؤلف في اختلاف العلماء المسمَّى «الأشراف»، وروى بمصر كتاب «العين» «للخليل» عن «أبي العباس بن ولاد»، وروى عن «أبي جعفر ابن النحاس»، قال القاضي منذر: أتيت وأبو جعفر ابن النحاس في مجلسه بمصر يملي في أخبار الشعراء شعر «قيس المجنون» حيث يقول:

خليليَّ هل بالشام عينٌ حزينةٌ ... تبكي على نجدٍ لعلّي أعينُها

قد أسلمها الباكون إلا حمامةً ... مطوقة باتت وباتَ قرينُها

تجاوبها أخرى على خيزرانةٍ ... يكاد يدنيها من الأرض لينها

فقلت له: «يا جعفر ماذا أعزك الله تعالى باتا يصنعان؟» فقال لي: «وكيف تقول أنت يا أندلسي؟»، فقلت له: «بانت وبان قرينها»، فسكت وما زال

(١) العدد السابع عشر ـ الصادر في غرة رمضان المعظم ١٣٢٢ .

يستثقلني بعد ذلك حتى منعني كتاب «العين» وكنت ذهبت إلى الانتساخ من نسخته، فلما قطع بي قيل لي: «أين أنت من أبي العباس بن ولاد»، فقصدته، فلقيت رجلاً كامل العلم حسن المروءة، فسألته الكتاب فأخرجه إليّ، ثم ندم أبو جعفر لما بلغه إباحة أَبي العباس الكتاب إليّ، وعاد إلى ما كنت أعرفه منه.

ثم عاد منذر وولي قضاء الجماعة «بقرطبة» زمن ولاية «عبد الرحمن الناصر لدين الله». قال «الفتح بن خاقان» في «مطمح الأنفس»: «وناهيك من عدل أظهر، ومن فضل اشتهر، ومن جور قبض، ومن حق رفع ومن باطل خفض، وكان مهيباً طيباً صارماً، غير جبان ولا عاجز ولا مراقب لأحد من خلق الله في استخراج حق ورفع ظلم».

واستمر في القضاء إلى أن مات «الناصر لدين الله»، ثم ولي ابنه «الحكم» فأقره وفي خلافته توفي بعد أن استعفى مراراً فما أعفي، فلم يحفظ عليه مدة ولايته قضية جور، ولا عدّت عليه في حكومته زلة، وكان غزير العلم، كثير الأدب، متكلماً بالحق، متبيناً بالصدق له، وقال: «وكان القاضي «منذر ابن سعيد» شديد الصلابة في أحكامه والمهابة في أقضيته، وقوة القلب في القيام بالحق في جميع ما يجري على يديه، لا يهاب في ذلك الأمير الأعظم فمن دونه».

وأول سببه في التعلق في «الناصر لدين الله»، ما حكى «المقري» قال: «لما احتفل الناصر لدين الله لدخول رسول ملك الروم بقصر قرطبة الاحتفال الذي اشتهر ذكره، أحب أن يقوم الخطباء والشعراء بين يديه لذكر جلالة مقعده، ووصف ما تهيأ له من توطيد الخلافة في دولته، وتقدم إلى الأمير

الحكم ابنه ولي عهده بإعداد من يقوم بذلك من الخطباء، ويقدمه أمام نشيد الشعراء، فأمر الحكم صنيعه الفقيه «محمد بن عبد البر الكسيباني» بالتأهب لذلك، وإعداد خطبة بليغة يقدم بها بين يدي الخليفة، وكان يدّعي من القدرة على تأليف الكلام ما ليس في وسع غيره، وحضر المجلس السلطاني فلما قام يحاول التكلم بما رأى، هاله وبهره هول المقام وأُبهة الخلافة، فلم يهتد إلى لفظه، بل غشي عليه وسقط إلى الأرض، فقيل «لأبي علي البغدادي إسماعيل بن القاسم القالي» صاحب «الأمالي والنوادر»، وهو حينئذ ضيف الخليفة الوافد عليه من العراق وأمير الكلام وبحر اللغة، قم فارقع هذا الوهي، فقام فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على نبيه ﷺ»، هكذا ذكر «ابن حبّان» وغيره، وكلام «ابن خلدون» يقتضي أن القالي هو المأمور بالكلام أولاً والخطب سهل، ثم انقطع القول بالقالي، قال في «المطمح»: «إن» أبا علي القالي انقطع، وبهت وما وصل إلا قطع، ووقف ساكتاً متفكراً لا ناسياً ولا متذكراً، فلما رأى ذلك منذر بن سعيد وكان ممن حضر في زمرة الفقهاء، قام بذاته بدرجة من مرقاته، فوصل افتتاح أبي علي لأول خطبته بكلام عجيب، ونادى في ذلك المقام كل مجيب، وقال: «أما بعد، فإن لكل حادثة مقاماً ولكل مقام مقال، وليس بعد الحق إلا الضلال، وإني قد قمت في مقام كريم بين يدي ملك عظيم، فأصغوا إليّ بأسماعكم، وأمنوا عليَّ بأفئدتكم، معاشر الملأ إن من الحق أن يقال للمحق صدقت وللمبطل كذبت»، ثم استرسل في خطبته، وقد ذكرها الفتح بتمامها، وختمها بإنشاد أبيات يقول في طالعها:

مقالٌ كحد السيف وسْطَ المحافلِ فَرَقْتَ به ما بين حقٍ وباطلِ

بقلبٍ ذكي ترتمي جنباته كبارق رعدٍ عند رقشِ الأناصلِ

فما دحضتْ رجلي ولا زلَّ مقولي ولا طار عقلي يـوم تلـك البلابـل

إلخ». ثم قال: «فخرج الناس يتحدثون عن حسن مقامه وثبات جنانه وبلاغة لسانه، وكان الناصر لدين الله أشدَّ تعجباً منه، وأقبل على ابنه الحكم ولم يكن يثبت معرفة عينه وقد سمع باسمه، فقال الحكم: هذا منذر بن سعيد البلوطي، فقال: والله لقد أحسن ما شاء، ولئن أبقاني الله تعالى لأرفعن من ذكره، فضعْ يدك يا حكم عليه واستخلصه وذكّرني بشأنه، فما للصنيعة مذهب عنه». وذكر «ابن سعيد» في «المغرِب» أن الناصر قال لابنه الحكم بعد أن سأله عنه: «لقد أحسن ما شاء، فلئن كان حَبَّر خطبته هذه وأعدها مخافة أن يدور ما دار فتيلاً في الوهي فإنه لبديع من قدرته واحتياطه، ولئن كان أتى بها على البديهة لوقته فإنه لأعجب وأغرب».

ثم قال: «وكان الخليفة الناصر كلفاً بعمارة الأرض، وإقامة معالمها، وتكثير مياهها، واستجلابها من أبعد بقاعها، وتخليد الآثار الدالة على قوة ملكه وعزّة سلطانه وعلو همته، فأمضى به الإغراق في ذلك إلى ابتناء مدينة «الزهراء» الشائع ذكره الذائع خُبره المنتشر في الأرض خبره، واستفرغ وسعه في تنجيدها وإتقان قصورها وزخرفة مصانعها، فانهمك في ذلك حتى عطَّل شهود الجمعة بالمسجد الجامع الذي اتخذه، فأراد القاضي منذر بن سعيد رحمه الله في أن يعظه ويُقرِّعه في التأنيب، ويقص منه بما يتناوله من الموعظة بفصل الخطابة والتذكير بالإنابة، فابتدأ أول خطبته بقوله تعالى: ﴿أَتَبْنُونَ بِكُلِّ رِيعٍ ءَايَةً تَعْبَثُونَ ﴿١٢٨﴾ وَتَتَّخِذُونَ مَصَانِعَ لَعَلَّكُمْ تَخْلُدُونَ﴾[الشعراء: ١٢٨ ـ ١٢٩] إلخ الآية.

ووصل ذلك بكلام جزل وقول فصل، جاش به صدره وقذف به على

لسانه بحره، وأفضى في ذلك إلى ذم المشيد والاستغراق في زخرفته والسرف في الإنفاق عليه، فجرى في ذلك طلقاً وتلا فيه قوله تعالى: ﴿ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَـٰنُهُمُ ٱلَّذِى بَنَوْا۟ رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ إِلَّآ أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾[التوبة: ١٠٩ ـ ١١٠].

وأتى بما شاكل المعنى من التخويف للموت والتحذير منه، حتى بكى الناس وخشعوا وضجّوا وتضرعوا، وأعلنوا الدعاء إلى الله تعالى، فعلم الخليفة أنه هو المقصود به والمعتمد بسببه، فاستجدى وبكى وندم على ما سلف من فرطه، واستعاذ بالله من سخطه، واستعصمه برحمته، إلا أنه وجد على منذر بن سعيد للفظه الذي قرعه الذي به، فشكا ذلك إلى ولده الحكم بعد انصرافه، وقال: «والله لقد تعمدني منذر بخطبته وأسرف في ترويعي، وأفرط في تقريعي، ولم يحسن السياسة في وعظي وصيانتي عن توبيخي»، ثم استشاط وأقسم أن لا يصلي خلفه الجمعة أبداً، فقال له الحكم: «وما الذي يمنعك عن عزل منذر بن سعيد والاستبدال به؟»، فزجره وانتهره، وقال: «أمثل منذر بن سعيد في فضله وورعه وعمله وحلمه لا أمّ لك، يعزل في إرضاء نفس ناكبة عن الرشد سالكة غير القصد، هذا ما لا يكون وإني لأستحي من الله تعالى ألا أجعل بيني وبينه شفيعاً في صلاة الجمعة مثل منذر بن سعيد، ولكنه وقذ نفسي وكاد يذهبها، والله لوددت أن أجد سبيلاً إلى كفارة يميني بملكي، بل يصلي بالناس حياته وحياتنا فما أظننا نعتاض منه أبداً»».

«السعادة» هكذا ينبغي أن تكون حَمَلة الشريعة في الترفع عن المحاباة في الحق والتحاشي عن مجاراة الوجهاء والأعيان ابتغاء مرضاتهم، وهكذا

ينبغي أن يكون أولو الأمر في إطراح الأغراض وعدم الانتصار لها متى خاطبهم العلماء بألسنة تطهرت من المداهنة، وساقوا إليهم النصائح البليغة من سرائر لا تضمر إلا خيراً، أما تزلف العالم فمما يخلد له في وجه خطته وصمة لا ترتفع لها الأنظار إلا بسوء، ومثله تعاصي أولي الأمر عن الرجوع إلى النصائح الشرعية.

ومن أخبار منذر المحفوظة له مع الخليفة الناصر، ما روى «الحجاري» في «المسهب» قال: «إنه دخل عليه مرة وهو في قبة، قد جعل قرمدها من ذهب وفضة، واحتفل فيها احتفالاً ظنَّ أن أحداً من الملوك لم يصل إليه فقام منذر خطيباً، والمجلس قد غصّ بأرباب الدولة، فتلا قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَآ أَن يَكُونَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِٱلرَّحْمَٰنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِّن فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾[الزخرف: ٣٣] الآية، وأتبعها بما يليق بذلك، فوجم الملك وأظهر الكآبة، ولم يسعه إلا الاحتمال لعظم قدر منذر في علمه ودينه»، وحضر معه يوماً في «الزهراء» فقام الرئيس «أبو عثمان بن إدريس» فأنشد للناصر قصيدة منها:

سيشهدُ ما أَبقيتَ أنك لم تكن ... مضيتَ وقد مكنتَ للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى ... وبالزهرةِ الزهراء للملك والعليا

فاهتز الناصر وابتهج، وأطرق منذر بن سعيد ساعة، ثم قام منشداً:

يا بانيَ الزهراء مستغرقاً ... أوقاته فيها أما تمهلُ
لله ما أحسنها رونقاً ... لو لم تكن زهرتها تذبلُ

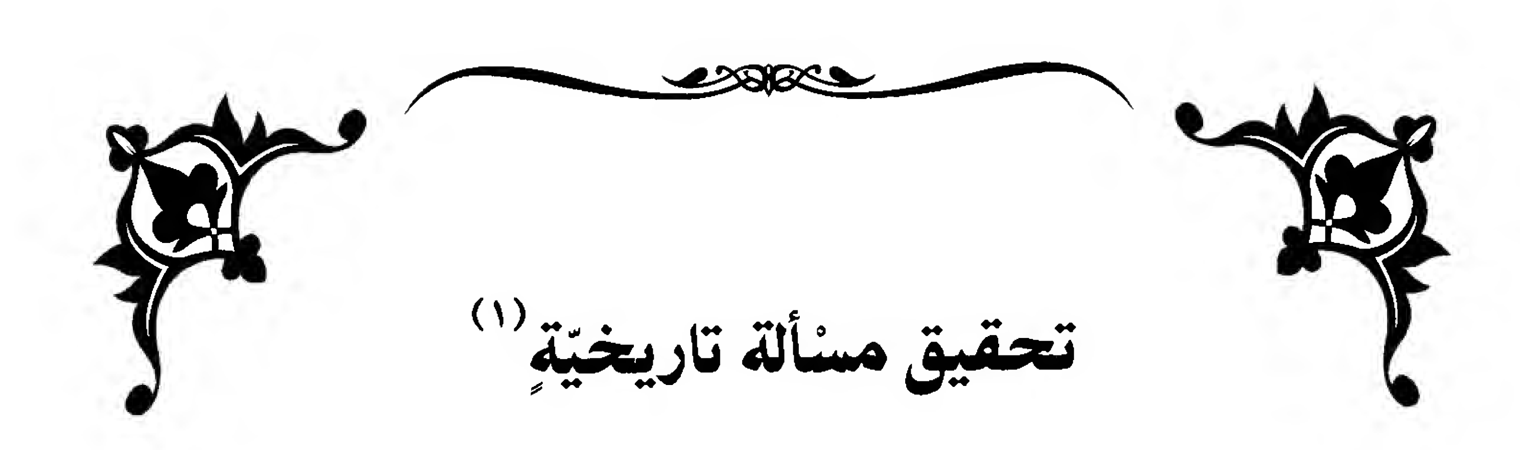
فقال الناصر: «إذا هب عليها نسيم التذكار والحنين، وسقتها مدامع

الخشوع يا أبا الحكم فلا تذبل إن شاء الله تعالى»، فقال منذر: «اللهم اشهد أني قد بثثت ما عندي ولم آل نصحاً».

وقال «المقري»: «كان منذر خطيباً، بليغاً، عالماً، بالجدل، حاذقاً فيه، شديد العارضة، حاضر الجواب، عتيده، ثابت الحجة، ذا إشارة عجيبة، ومنظر جميل، وخلق حميد، وتواضع لأهل الطلب وانحطاط إليهم، وإقبال عليهم، وكان مع وقاره التام فيه دعابة مستملحة (من الناس من يتخذ الدعابة وسيلة لإذاية مجالسيه، فلا تكون مستملحة وخصوصاً عند ذوي النفوس الأبية والنباهة التي لا تنخدع بالظواهر)»، ثم قال: «وله نوادر مستحسنة، وكانت ولايته القضاء بقرطبة للناصر في شهر ربيع الآخر سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، ولبث قاضياً من ذلك التاريخ للخليفة الناصر إلى وفاته، ثم للخليفة الحكم المستنصر إلى أن توفي رحمه الله تعالى عقب ذي القعدة من سنة خمس وخمسين وثلاثمائة، فكانت ولايته لقضاء الجماعة المعبر عنه في المشرق بقضاء القضاة ستة عشر عاماً كاملة، لم يحفظ عليه فيها جور في قضية، ولا قسم لغير سوية، ولا ميل إلى هوى ولا إصغاء إلى غاية».

ودفن بمقبرة قريش بالربض الغربي من قرطبة ـ أعادها الله تعالى ـ، وفي مسجد «السدة الكبرى» بقرب داره، وله رحمه الله تعالى تآليف مفيدة منها كتاب «أحكام القرآن»، و«الناسخ والمنسوخ»، وغير ذلك.

* * *



تحقيق مسْألة تاريخيّةٍ[1]

ابتُليت بطون بعض التواريخ بأمراض من الأراجيف، وإنها لبلية كبرى على من لم يكن له باع مديد في تمييز الخبيث من الطيِّب، فحذار أيها السائر تحت لواء الحق، إذا أغطشت ليلها أمامك أن تفتتن بها فتوناً، لا سيما ما يعزونه إلى «الخليفة الثالث عثمان بن عفان ﷺ»[2] استناداً إلى روايات تتصل بأقوام يلمزونه بها لحاجة في أنفسهم قضوها:

منها قولهم: أزعج «أبا ذر» من «الشام» حين غيّر على «معاوية» المنكر، وأجلاه إلى «الربذة». قلنا: «ما أتى معاوية منكراً يغير عليه، وإنما كان أبو ذر على طريقة من الزهد لا تمكن لجميع الخلق، وكان يقرع عمال عثمان ويتلو عليهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ﴾[التوبة: ٣٤] الآية، ويراهم يتسعون في المراكب والملابس فينكر ذلك عليهم، ويدعوهم إلى تفريقه في وجوه البر وهو غير لازم لهم، لأن ما أُديت زكاته ليس بكنز، فخشي معاوية من أن تثور من العامة فتنة، إذ كان أبو ذر يأمرهم من الزهد بما لا يحتمله الناس كلهم، وإنما يقوى عليه بعضهم، ورفع الأمر إلى عثمان فاسترده إلى

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢.

(٢) للإمام بحث تحت عنوان «نظرة في ناحية من خلافة عثمان ﷺ» في كتابه «تراجم الرجال».

مجاورته بالمدينة، فاجتمع إليه الناس، وجعل يسلك بهم ذلك الطريق، فقال له عثمان: «لو اعتزلت». معناه أن من كان على هذا المذهب فحاله ينبغي أن ينفرد بنفسه، أو يخالط ويُسلم لكل أحد حاله مما ليس بحرام من الشريعة، فخرج إلى «الربذة» زاهداً فاضلاً وترك أجلَّة فضلاء»، وكلٌّ أوتي حكماً وعلماً، وهذه كلها مصالح لا تقدح في الدين.

ومنها قولهم: «ضرب «عماراً» و«ابن مسعود» ومنعه عطاءه، قلنا: «هذا باطل سنداً ومتناً، ولا يلتجأ إلى الاعتذار عنه وإن تشاغل به بعضهم، لأن الروايات المختلقة ليس لها حد تنتهي إليه، فالاشتغال بتأويلاتها لا يسعه العمر الذي له أجل مسمى».

ومنها قولهم: ردَّ «الحكم» بعد أن نفاه رسول الله ﷺ، قلنا: «كان قال: «لأبي بكر» و«عمر» إني سألت رسول الله ﷺ في رده فسمح به ثم مات، فطلبا منه الشهادة معه فلم يجدها، فلما ولي قضى بعلمه، وقضاء الحاكم بعلمه له أصل في الشريعة، وإنما تردد فيه الناس من بعد لما حدث من التهمة، قالوا: وصله بمال الله، قلنا: وصله بماله، وكان من أغنياء الصحابة وذلك مستحب».

ومنها قولهم: عزل «عمرو بن العاص» وولى «عبدالله بن أبي سرح»، قلنا: «الولاية موكول أمرها إلى الاجتهاد، وقد عزل «عمر بن الخطاب» «سعد ابن أبي وقاص» وقدَّم أقل منه درجة، وكان «عبدالله بن أبي سرح» ممن يناط بعهدته مقاليد الأمور، ولهذا فتح الفتوح في بحر المغرب وبرِّه، ورضي عنه من معه من أبناء الصحابة وأطاعوه».

ومنها قولهم: ابتدع في جمع القرآن فأحرق المصاحف، قلنا: «هذه

من الأيادي التي أثقل به كواهل المسلمين، اختلف الناس في القراءة، فأدركهم بالرد إلى مصحف جمعه «أبو بكر الصديق» ﷺ، وأحرق غيره من المصاحف حسماً لمنشأ الاختلاف في الكتاب العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه».

ومنها قولهم: زاد في الحمى، قلنا: «شرع الحمى للحاجة الداعية إليه، فزاد فيه لزيادتها»،

ومنها قولهم: كتب مع غلامه إلى «عبدالله بن أبي سرح» يأمره بقتل من ذكر في الكتاب، قلنا: «قد يكتب على لسان الرجل، وينقش على خاتمه، ويرسم على خطه»، ولقد قال لهم عثمان: «إما أن تقيموا شاهدين على ذلك وإلا فيميني أني ما كتبت ولا أمرت».

قالوا لم يسلِّم إليهم «مروان» حين طلبوا ذلك منه، قلنا: «لو سلَّمه لكان ظالماً، وإنما عليهم أن يطلبوا حقهم عنده على مروان».

ومنها قولهم: ولّى مروان، ولم يكن من أهل الولاية، قلنا: «مروان رجل عدل من كبار الأمة عند الصحابة والتابعين وغيرهم، أما الصحابة فإن «سهل بن سعد الساعدي» روى عنه، وأما التابعون فروى عنه «عروة بن الزبير» و«علي بن الحسن»، أثبت ذلك «ابن عبد البر» في «الاستيعاب»، وأما فقهاء الأمصار فإنهم يعظمونه ويعتبرون إمارته وينقادون إلى روايته، قال «أبو بكر ابن العربي» في «العواصم»: «وأما السفهاء من المؤرخين والأدباء فيقولون على أقدارهم».

ومنها قولهم: عزل «أبا موسى» عن «البصرة» وولي «عبدالله بن عامر»، ابن خالة عثمان، قلنا: «إنَّ عزله لأبي موسى لاختلاف الجند عليه جند البصرة

والكوفة، وولى عبدالله لأنه ابن عمة رسول الله ﷺ واسمها «أم حكيم»، وأي حرج على الحاكم أن يولي أخاه أو قريبه ولاية هو لها أهل، وإنما ينكر من ذلك ما كان عن غير أهلية»، قال «ابن عبد البر»: «لم يختلفوا أن «عبدالله بن عامر» افتتح أطراف «فارس» كلها و«عامة خراسان» و«أصبهان» و«حلوان» و«كرمان»، وهو الذي شق نهر البصرة».

ومنها قولهم: كان عمر يضرب بالدرة وضرب هو بالعصا، وأعطى لمروان خمس «أفريقية»، قلنا: «هذه دعاوي باطلة ينسجها الحَسَدَةُ على منوال أغراضهم، فاضرب أيها المستبرئ لدينه عن سماعها صفحاً»، وأما ما يضعونه في قصة قتله من تلويث جانب الصحابة بدمه، فقد قال فيه «صاحب العواصم»: «قد انتدب المردة الجهلة إلى أن يقولوا: «أن كل فاضل من الصحابة كان عليه شاغباً، وبما جرى عليه راضياً، واخترعوا كتاباً فيه فصاحة وأمثال كتب «عثمان» بها إلى «علي» مستصرخاً، وذلك كله مصنوع ليوغروا قلوب المسلمين على السلف الماضين والخلفاء الراشدين، وإن الصحابة براء من دمه بأجمعهم»، وقال في «العارضة»: «ولقد قُتل عثمان، وطالبوه أربعة آلاف، وفي المدينة أربعون ألفاً كلهم لا يريد قتله ويريد نصره، لكنه استسلم للأمر ولم يرض أن يراق بسببه دم، ورضي أن يكون عند الله المظلوم ولا يكون عند الله الظالم» اهـ.

وجاء «زيد بن ثابت» فقال له: «إن هؤلاء الأنصار بالباب، يقولون: إن شئت كنَّا أنصار الله مرتين»، قال: «لا حاجة لي في ذلك»، فسلموا له رأيه في إسلام نفسه. فاربأ أيها العاقل بنفسك الزكية من أن يعلق بها ما يلصقه المؤرخون بالصحابة، مما يثلم شيئاً من عدالتهم، وجنِّبْ اعتقاداتك الصحيحة

من أن تختلط بغثِّه، فإنَّا لم نجد من ذلك النوع ما رواه عدل ضابط عن مثله، ولولا خشية الاغترار بما سُودت به الصحائف التي لا تمحص الصحيح من المريض، لما عرَّجنا على الخوض في مثل هذا، وما توفيقي إلا بالله.



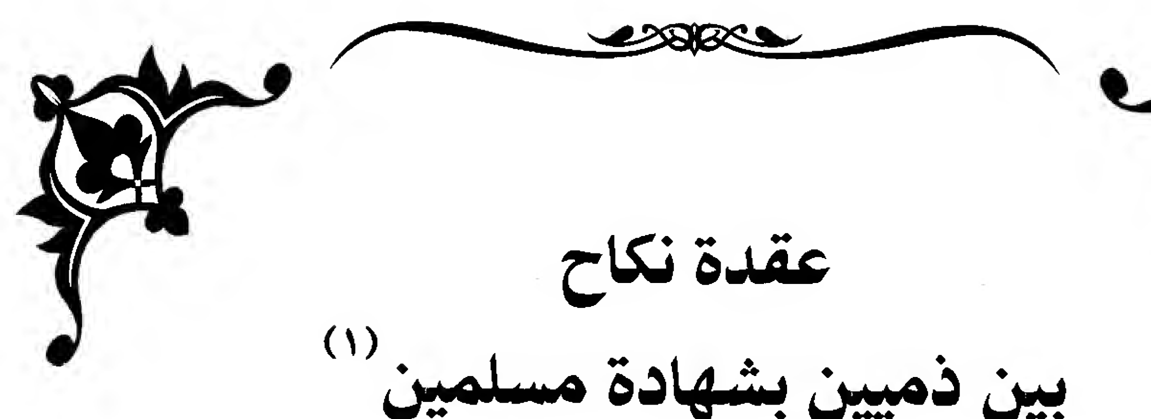
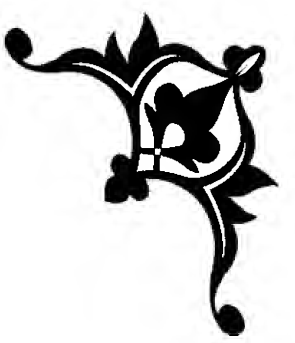




الأسئلة والأجوبة

- عقدة نكاح بين ذميِّن بشهادة مسلمين.
- كتابة القرآن بلفظه العربي بالأحرف الفرنسية.
- أحاديث فضل ليلة النصف من شعبان.
- هل صوت المرأة عورة؟
- جواز الاقتباس من القرآن في المقالات.
- قصة رتن الهندي.
- تقديم الإنسان اسمه على اسم المكتوب إليه.
- الطب النبوي.
- تلقين الميت لا إله إلا الله.
- الاستخارة بالقرآن.
- فتوى ابن العربي.
- وصول ثواب الذِّكر للميت.
- الخطبة الثانية في الجمعة.
- دخول ولد الزِّنى للجنَّة.
- كيف التخلص من البدع؟
- الرؤيا والحكم الشرعي.
- جوائز التفوق في المسائل العلمية.
- إجزاء إخراج القيمة من الزكاة.
- حكم الرجل يقول لزوجته أنت طالق ليلة القدر.
- الصوم بخبر السلك البرقي.



عقدة نكاح
بين ذميين بشهادة مسلمين[1]

سؤال:

ورد إلينا سؤال من بعض الفضلاء وهو: اطلعت في «تاريخ الدولتين» «للزركشي» على ما نصه: شوور «القاضي أبو علي» في عقدة نكاح بين ذميَّيْن بشهادة المسلمين فأباحه، فسمع قاضي الجماعة فأنكره، فوجه قاضي الأنكحة هذا لعدول «تونس»، وأمرهم بالشهادة فيه، وألَّف كتاباً في إباحة الحكم بينهم والشهادة عليهم وفي أنكحتهم، وسمّاه «إدراك الصواب في أنكحة أهل الكتاب» وألَّف قاضي الجماعة كتاباً على صحة قوله، ذكر ذلك «ابن عبد السلام» عنهما، قال «ابن عرفة»: «قلت لابن عبد السلام ما الصواب عندك؟» قال: «المنع، لأنهم لا يتحفظون في أنكحتهم». قال ابن عرفة: «والصواب عندي الجواز، لأنا لا نطالبهم بما يجوز عندنا شرعاً ولا تضرنا مخالفتهم في ذلك، نقله السلاوي» اهـ.

المطلوب بيان ما يتحرر لديكم في المسألة من كتب أهل المذهب.

جواب:

أنكحة أهل الذِّمة إذا استوفت شروط النكاح المقررة في شريعتنا، كانت

---

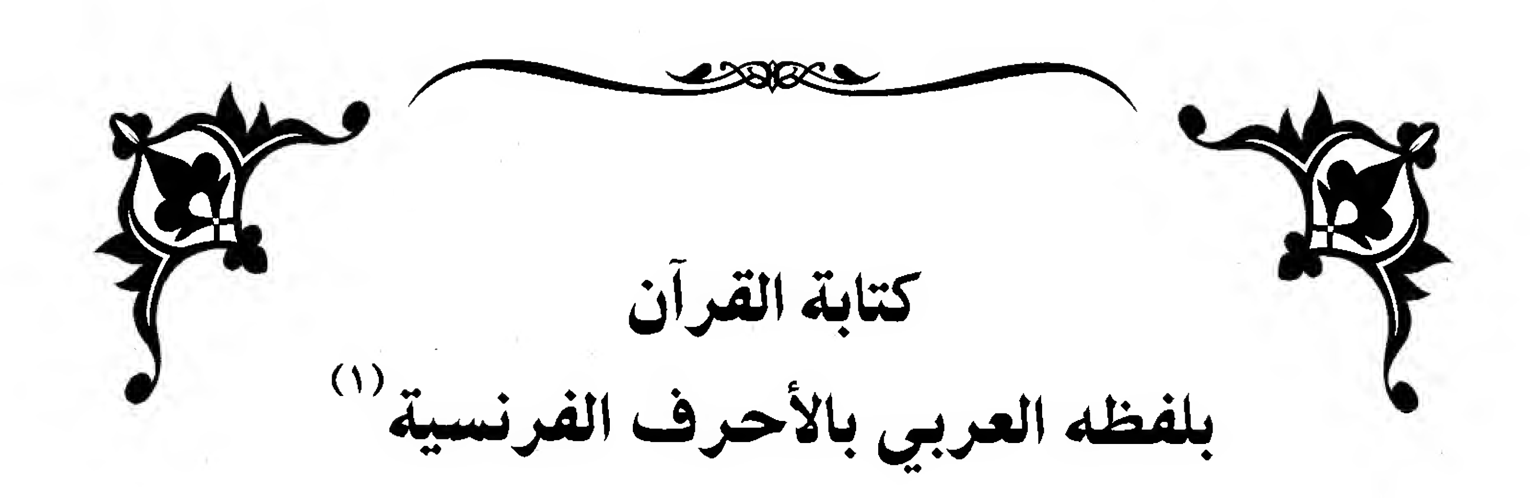
(١) العدد السابع ـ الصادر في غرة ربيع الثاني ١٣٢٢

صحيحة على ما ذهب إليه القرافي، واعتمده المحققون من أهل المذهب، وعليه فإذا تحقق المسلم استكمالها لشروطها الشرعية جازت شهادته عليها، ومدرك الجواز هو أن هذه الشهادة تدفع عنهم ضرراً وتحفظ لهم حقاً من حقوقهم، ومثل ذلك مما يزيدهم شعوراً بكمال الدين، ويغرس في صدرهم حرمته ومودته، وعسى أن يثمر ذلك استمالتهم إلى جميع أحكامه العالية، ويمنع الذهاب معهم إلى ديارهم وفاقاً لما قاله «البرزلي» احتياطاً للعزّة وسد لذرائع الإهانة إذ في التردد على الديار خفض لشيء من جناح الذل.

وأما إذا صدرت أنكحتهم عن غير الأوضاع الشرعية، كانت غير صحيحة عندنا، فيتعين وقتئذ المنع من الشهادة عليها للقاعدة المقررة، وهو أنه لا يسوغ لأحد أن يشهد إلا بما يجوز في مذهبه، ولذلك يعاقب شاهدي نكاح السر.

وسرُّ هذا الأصل أن الشهادة على العقدة إعانة على إيجاد آثارها المترتبة عليها، وفساد العقدة يستلزم بطلان آثارها، ولا يستباح للإنسان أن يعين على شيء يعتقد أنه باطل، لقاعدة أن «إيقاع السبب بمنزلة إيقاع المسبِّب».

* * *



كتابة القرآن
بلفظه العربي بالأحرف الفرنسية(١)

سؤال:

طلب مني بعض الأوروباويين ممن لا يحسنون القراءة والنطق باللغة العربية، ودخل في الديانة السمحاء، أن أكتب له بعض سور من كلام الله تعالى بلفظها العربي والأحرف الفرنساوية «لاتينية»، ليمكن له حفظها وقراءتها وقت أدائه فريضة الصلاة، حيث يعسر عليه الاجتماع بمن يلقنه ذلك مشافهة، وبما كنّا نجهل الحكم في ذلك، نرجو من كمالكم إرشادنا لما تقتضيه أحكام الشريعة الإسلامية من الجواز والمنع، والله يحرسكم ويُكثِر من أمثالكم.

جواب:

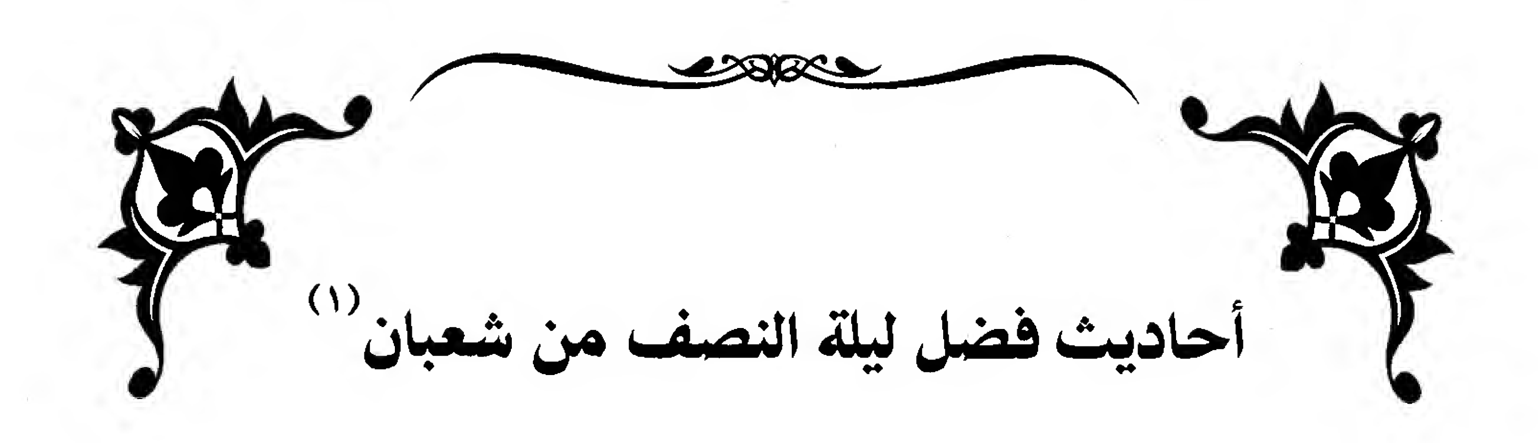
إن القرآن يشتمل على أحرف لا يوجد في القلم الفرنسوي أشكال تدل عليها، مثل «ح خ ذ ث ط ض ص ع غ ق»، فالآيات التي تضمنت بعض هذه الأحرف تمتنع كتابتها بالقلم الفرنسوي قطعاً، لأن الكاتب إما أن يترك تلك الأحرف أصلاً، أو يرسمها بأشكال أحرف أخرى، كوضع الهاء موضع الحاء، أو السين موضع الصاد، والأول نقص والثاني تبديل، وما كان لنا أن نحذف منه ولا أن نبدّله من تلقاء أنفسنا.

---

(١) العدد الثامن ـ الصادر في ١٦ ربيع الثاني ١٣٢٢

نعم. لو أمكن وضع أشكال باصطلاح جديد، تدل على معاني الأحرف التي سردناها، بحيث يتوصل من كتبت له إلى معرفتها وكيفية النطق بها على أصلها، لم يمتنع مراعاة للضرورة التي تضمنها السؤال، كما أنه لو فرض وجود آية وجميع أحرفها له أشكال فرنسوية بأن تكون خالية من الأحرف المسرودة أولاً، لجازت كتابتها بها، وتكون تلك الأشكال المصطلح عليها وأشكال الأحرف الفرنسوية تفسيراً، أي علامات على ما هو القرآن، وُيلوِّح إلى ذلك قول القرافي: «فلو كتب بالعجمي جاز مسّه للمحدث لأنه تفسير للقرآن لا قرآن».

* * *



أحاديث فضل ليلة النصف من شعبان[1]

سؤال:

أورد بعض الفقهاء أحاديث في صلاة ليلة النصف من شعبان وفضلها، ونَسَبها بعضهم إلى الضعف، فنطلب الجواب بما يصح عندكم في ذلك.

جواب:

أحاديث فضل ليلة النصف من شعبان منها ما أخرجه «البيهقي» في «شعب الإيمان»، ومنها ما أخرجه «أحمد» في «مسنده»، قال الحفّاظ: «وأمثل ما ورد فيها الحديث الذي يتضمن أن الله يغفر فيها لأكثر من عدد شعر غنم بني كلب»، فقد أخرجه «ابن ماجه» في «سننه»، و«ابن حبان» في «صحيحه»، ولكن ضعفه «الإمام البخاري»، قال «ابن العربي» في «العارضة»: «وطعن فيه البخاري من وجهين، أحدهما أنه مقطوع في موضعين من سنده، والثاني أن «الحجاج» الذي هو أحد رواته ليس بحجة، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يساوي سماع هذا الحديث» اهـ.

وقال في «الأحكام» عند قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾[الدخان: ٣]: ومنهم من قال: إنها ليلة النصف من شعبان وهو

---

(١) العدد العاشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الأولى ١٣٢٢.

باطل، إن الله قال في كتابه الصادق القاطع ﴿شَهۡرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلۡقُرۡءَانُ﴾[البقرة: ١٨٥]، فنص على أن ميقات نزوله رمضان، ثم عيَّن من زمانه الليل ههنا بقوله: ﴿فِي لَيۡلَةٖ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ فمن زعم أنه في غيره فقد أعظم الفرية على الله، وليس في ليلة النصف من شعبان حديث يُعوَّل عليه لا في فضلها ولا في نسخ الآجال فيها فلا تتعدى إليها» اهـ.

وأما أحاديث فضل الصلاة فيها، فمنها الحديث الوارد في فضل صلاة مائة ركعة، وقال في حقه «ابن الجوزي»: «جمهور رواته مجاهيل وفيهم ضعفاء»، ومنها الحديث الوارد في فضل أربعة عشر ركعة وفيه قال «السيوطي»: «أخرجه البيهقي في الشعب، ويشبه أن يكون موضوعاً»، ومنها الحديث الوارد في فضل اثنتي عشرة ركعة وقال «ابن الجوزي»: «في رواته مجاهيل أيضاً»، وقال «الحافظ ابن الجزري»: «وأما صلاة الرغائب أول خميس من رجب، وصلاة ليلة النصف من شعبان، وصلاة ليلة القدر من رمضان، فلا تصح وسندها موضوع» اهـ.

هذا وممن بالغ في إنكار هذه الصلوات «أبو بكر الطرطوشي» و«أبو بكر بن العربي» من المالكية، و«النووي» و«ابن عبد السلام» من الشافعية، وقال النووي: «لا يغتر بذكرها في الأحياء والقوت فالعلم حجّة».

* * *



هل صوت المرأة عورة؟[1]

سؤال:

حضرة الأستاذ النحرير دام كماله، بعد أداء التحية اللائقة بجنابكم، فإني أسترشد حضرتكم فيما يختلج في ضميري من المسائل التي فيها شيء من الالتباس معتمداً على مكارم أخلاقكم واتساع دائرة نطاقكم، فأقول:

«قد تقرر في كتب الفقه، أن صوت المرأة عورة، وعليه فلا يمكن لها أن تسمعه لغير المحرم لها، وقد ورد أن النبي ﷺ قال: «خُذوا نِصف دِينكم عَن هاتِهِ الحُميراء» وعنى بذلك «السيدة عائشة رضي الله عنها»، كما ورد أيضاً من أنه عليه الصلاة والسلام، لما قَدِمَ «ليثرب» ومرَّ على بنات النجار حيينه بألحان وأناشيد منها قولهنَّ «أقبل البدرُ علينا» إلخ. ولم ينكر عليهن ذلك، وأقرهنَّ عليه مع أن الأناشيد لا تكون إلا بصوت عال، وأيضاً فكيف للنسوة إسماع العدول فيما تدعُ إليه الحاجة من المعاملات؟» نرجو الجواب أدام الله مقامكم العلمي محفوفاً بالإجلال، وأيد سعادتكم مقرونة بكل كمال.

جواب:

إسماع المرأة صوتها للأجنبي وسماعه منها إن ترتبت عنه مصلحة،

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢.

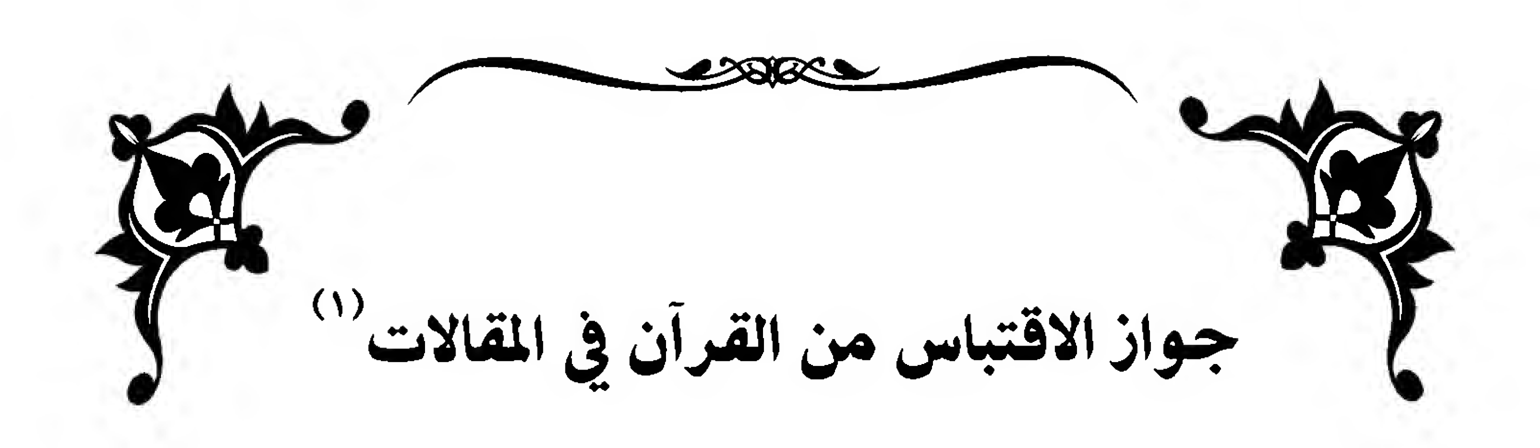
كالتعليم والشهادة والإشهاد والبيع والشراء وسائر المعاملات الشرعية، جاز بلا خلاف، ومن أدلته خطاب النساء الأجنبيات واسترشادهن للنبي ﷺ بمحضر الصحابة، ورواية الصحابة عن أمهات المؤمنين وغيرهن، وإن كان مما ينشأ عنه مفسدة في الأغلب، كالغناء والتكلم بما فيه تعريض بالفواحش أو تمطيط وتكسير وتشويق، حُرم قطعاً إذ لا مرية أنه مما يُهيِّج النفوس، ويثير هواها ويحرك الساكن من شهواتها الزائغة، ومن القواعد التي بنيت عليها أحكام الشريعة المطهرة، قطع الوسائل التي تجر إلى المفاسد في الغالب بمنع سائر المكلفين من التلبس بها، وقال تعالى: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ﴾[الأحزاب: ٣٢] أي ليكن قولكنَّ جزلاً وكلامكنَّ فصلاً ولا يكن على وجه يحدث في القلب علاقة بما يظهر عليه من اللين المطمع للسامع.

ولا يرد على هذا حديث الجاريتين المغنيتين في بيت رسول الله ﷺ وأقرهما على ذلك، لأن غناءهما ليس من النوع الذي أشرنا إليه، المقول فيه الغناء رقية الزنى، ألا يرى إلى قول «عائشة رضي الله عنها» وليستا بمغنيتين، أي ليستا ممن يحسن الغناء الذي فيه التمطيط والتكسير، وإنما سمَّت ما صدر منهما غناء على عادة العرب في تسميتها لرفع الصوت غناء، ولو لم يكن بترنم، كما أنه لم يكن في التشبيب بأهل الجمال، وإنما كان في الحرب والشجاعة والتفاخر بالظهور الذي يبث في جأش سامعه قوة وإقداماً مع أمن الافتتان بهما وقتئذ، ومثله حديث بنات النجار الذي تضمنه السؤال، على أن الوارد فيه عن «عائشة رضي الله عنها»، لما قدم رسول الله ﷺ المدينة جعل النساء والصبيان والولائد يقلن: «طلع البدر علينا». . . إلخ.

نعم يكره للمرأة رفع صوتها في المواطن التي يستغنى فيها عن ذلك،

ولا تدعوها إليه حاجة خشية الفتنة، ولندورها هنا وضعفها عما يهيجه الغناء المحرم والكلام المرخم المتكسر فيه لم يبلغ به إلى التحريم على ما اعتمده في الشامل، ورفع المرأة صوتها لاسيما مع تكرره مما ينخرق به حجاب الحياء الذي هو شعار الصيانة ودثارها، وقد فُسِّر القول المعروف في قوله تعالى: ﴿وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[الأحزاب: ٣٢] بالكَلامِ المُنْخَفِض، قال «ابن العربي» في «الأحكام»: «قيل القول المعروف هو المفسِّر بأن المرأة مأمورة بحفظ الكلام»، فتلخص: أن معنى قول الفقهاء صوت المرأة عورة، أنها مطالبة بستره إلا لحاجة تدعو إليه خشية الافتتان.

* * *



جواز الاقتباس من القرآن في المقالات[1]

سؤال:

رأيناكم كثيراً ما تقتبسون من القرآن في مقالاتكم فهل يجوز ذلك؟

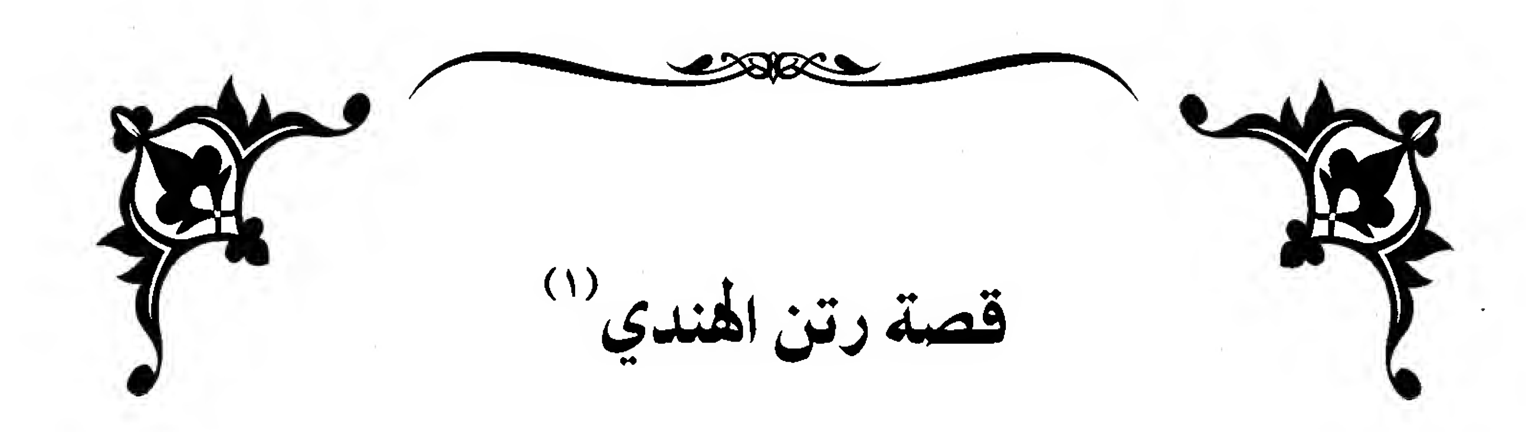
جواب:

نعم، ودليله قوله ﷺ: «الله أكبر خربت خيبر إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين» وقد ألَّف في جوازه قديماً «أبو عبيد القاسم ابن سلام» كتاباً، جمع فيه للصحابة والتابعين من ذلك بالأسانيد المتصلة إليهم، وألَّف فيه من المتأخرين «الشيخ داود الشاذلي» كراسة قال فيها: «لا خلاف بين الشافعية والمالكية في جوازه»، ونقله عن «عياض» و«الباقلاني»، وقال: «كفى بهما حجة»، غير أنهم كرهوه في الشعر خاصة، وروى «الخطيب البغدادي» وغيره بالإسناد عن «مالك» أنه كان يستعمله فما ينقله بعضهم من أن مذهب مالك تحريمه غير صحيح، نعم هو محرَّم في المجون والخلاعة وهزل الفساق وشَرَبة الخمر ولا ينبغي أن يختلف في ذلك.

* * *

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢.



قصة رتن الهندي[1]

سؤال:

ذكر بعضهم قصة «رتن الهندي» التي تتضمن صحبته وطول عمره، فهل ما ذكره هذا البعض صحيح أم لا؟

جواب:

المحققون على أنها باطلة غير صحيحة، قال «الذهبي» في «الميزان»: «رتن الهندي وما أدراك مارتَّن؟ شيخ دجال بلا ريب، ظهر بعد الستمائة فادعى الصحبة، والصحابة لا يكذبون، وقد ألّفت في أمره جزءاً، وقد قيل: إنه مات سنة اثنين وثلاثين وستمائة، ومع كونه كذاباً فقد كذبوا عليه جملة كثيرة من أسمج الكذب والمحال». قال «ابن حجر» في «اللسان»: «قد وقفت على الجزء الذي ألَّفه الذهبي، ومما نقله منه قوله: أن هم الناس ودواعيهم متوفرة على نوادر الأخبار، فأين كان الهندي في هذه الستمائة سنة، أما كان من قرب بلدة، إنه يتسامع به ويرحل إليه، أين كان لما فتح «محمود بن سبكتكين» «الهند» في المائة الرابعة»

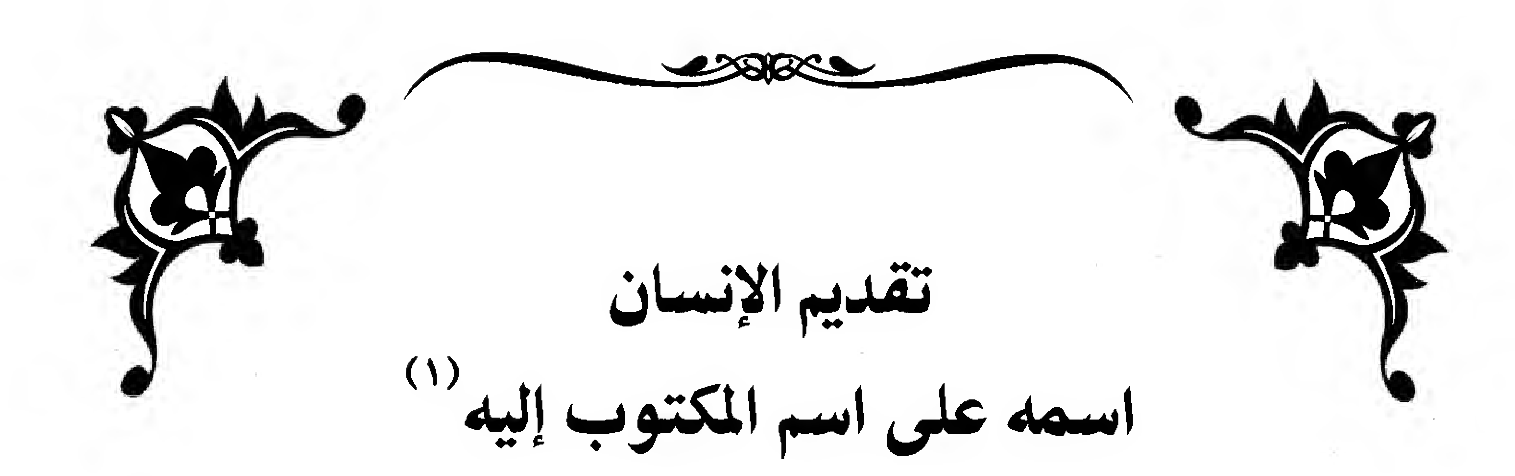
وقد صنفوا سيرته وفتوحه، ولم يتعرض أحد من أهل ذلك العصر لذكر

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

هذا الهندي، ثم اتسعت الفتوح والهندي ولم يسمع له بذكر في الرابعة ولا فيما بعدها، بل تطاولت الأعمار إلى عام ستمائة، ولم تنطق بذكره رسالة ولا عرَّج على أحواله تاريخ، ولا نقل وجوده جوّال ولا رحّال ولا تاجر سفّار، ولعمري ما يصدق بصحبة رتن إلا من يؤمن برجعة عليّ أو بوجود «محمد بن الحسن» في «السودان»، وهؤلاء لا يؤثر فيهم علاج، وقد اتفق أهل الحديث على أن آخر من رأى النبي ﷺ مرَّة «أبو الطفل عامر بن واثلة»، وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال قبل موته بشهر أو نحوه «أَرأَيتُكمْ لَيْلتكم هذهِ فإن على رأْس مائة سنَةَ مِنْها لا يَبْقى على وجهِ الأَرض ممَّنْ هوَ اليَوم علَيْها أَحدٌ»، فانقطع المقال، وماذا بعد الحق إلا الضلال.

وممَّن ذكر قصته «الصلاح الصفدي» في «تذكرته»، ثم قواها وأنكر على من ينكرها، وعوَّل في ذلك على الإمكان العقلي، وردَّ عليه «القاضي برهان الدِّين ابن جماعة»، بأن المعول في ذلك إنما هو النقل، وليس كل ما يجوِّزه العقل يستلزم الوقوع، ثم قال «ابن حجر»: «والذي يظهر أنه كان طال عمره فادعى ما ادعى، وتمادى على ذلك حتى اشتهر، ولو كان صادقاً لاشتهر في المائة الثانية أو الثالثة أو الرابعة أو الخامسة، ولكنه لم ينقل عنه شيء إلا في أواخر المائة السادسة ثم في أوائل المائة السابعة قبيل وفاته».

* * *



تقديم الإنسان اسمه على اسم المكتوب إليه[1]

سؤال:

هل ورد شيء في تقديم الإنسان اسمه على اسم المكتوب إليه؟

جواب:

كان النبي ﷺ يقدم على اسـم المكتوب إليه، فمن فعل ذلك بقصد الاقتداء فنعما هو، وكنت اطلعت على كلام «لابن رشـد» في «جامع البيـان والتحصيل» ينطبق على ما هو الجاري الآن في المكاتبات، وهو: قال «القاضي أبو الوليد»: «أنكر مالك الحديث الذي ذُكر له أنه جاء في أن يبدأ الرجل إذا كتب إلى أخيه باسمه قبل اسم أخيه، ورأى أن التزام ذلك على كل حال كان أخوه أصغر منه أو أكبر ليس على ما ينبغي، والاختيار عنده إذا كاتب إلى أخيه وهو أصغر منه أن يبدأ في الكتاب فيقول في الكتاب إليه، من فلان بن فلان، فإذا قدمه على نفسه لكونه أهلاً لذلك لدينه أو لفضله لا لغرض من أغراض الدنيا فلا بأس بذلك».

وفيه وإن كتب الرجل إلى من هو دونه في السن والفضل، فبدأه على نفسه تواضعاً لله ومخافة أن يكون عند الله أفضل منه فقد أحسن، وفي موضع

---

(١) العدد الحادي عشر ـ الصادر في غرة جمادى الثانية ١٣٢٢.

5992

آخر قال: «حدَّثني مالك أن رجلاً أتى عائشة رضي الله عنها، فسألها الكتاب إلى زياد، فكتبت إليه وبدأت باسمها، فسألها الرجل أن تبتدئ باسم زياد فإنه أقضى للحاجة، ففعلت وبدأت باسمه».

* * *



الطب النبوي[1]

سؤال:

جوابكم الشافي في مسألة الطب أهي من المشروعيات أم من العاديات؛ لأن النبي ﷺ إنما بعث ليعلمنا الشرائع، ولم يُبعث لتعريف الطب ولا غيره من العاديات على ما قاله بعض العلماء، ودليلهم قوله ﷺ في واقعة تلقيح النخيل: «أَنْتمْ أَعلَمُ بأُمور دُنْياكمْ» وهذا يدلُّ صراحة على أنه ﷺ إنما أُرسل ليعلم الناس الشرائع كما تقدم.

وقد وردت أحاديث صحيحة تدل على أنه ﷺ أمر عدَّة أنفار من الصحابة رضي الله عنهم بالتَّداوي بأدوية مخصوصة، كأمره المبطون أكل العسل وغير ذلك، وهاته الأدوية ليست مركبة على قواعد طبيعية على ما قاله الأطباء.

جواب:

كان للعرب معرفة بشيء من علم الطب غير مبنية على علوم الطبيعة التي يقررها حكماء الفلاسفة، بل مأخوذة من تجاريب الأُميِّين، والأحاديث التي جاءت في التعريف ببعض الأدوية واردة على هذا المساق، وهي صادقة مطابقة لقواعد حفظ الصحة عند من يحقق النظر في فهمها بتقييدها وتخصيصها، وفي

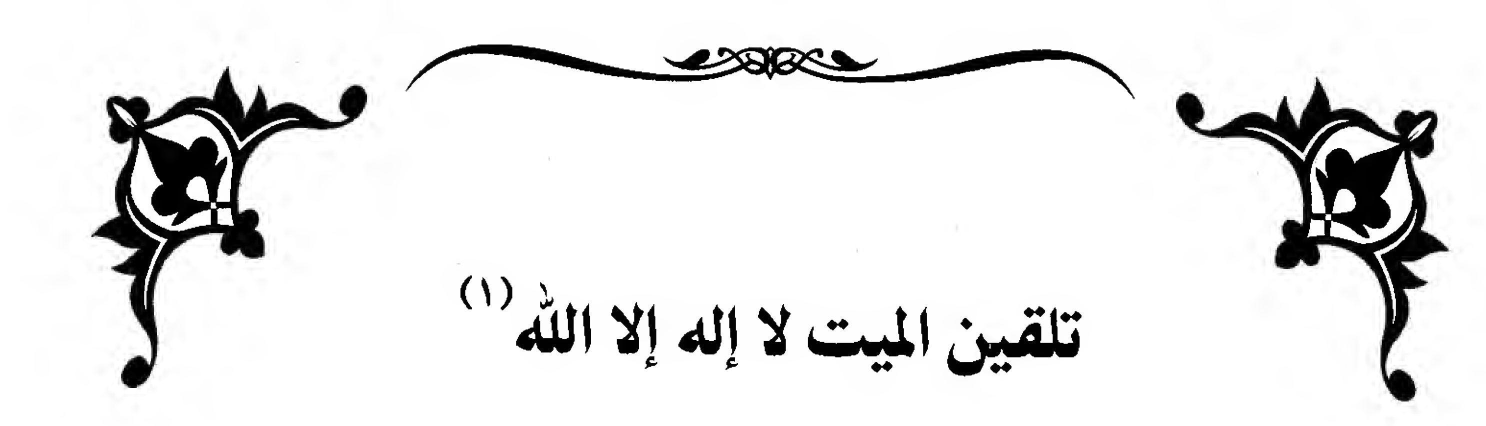
---

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

تطبيقها على الأمراض بحسب الاختلاف في السن والزمان والعادة والهوى، فإن الأطباء مجمعون على أن العلة المعينة يختلف علاجها بحسب الاختلاف في ذلك، ويكفي في صدقها تحقق الشفاء بها في الجملة، فالنبي عليه الصلاة والسلام بُعث لتعليم الشرائع، ولكنه إن صدر منه في غيرها قول كأحاديث الطب، كان بمنزلة الشرعيات عندنا لا نرتاب في صحته وإن ارتاب المبطلون.

أما واقعة تلقيح النخل، فقد بيَّن عليه الصلاة والسلام من أول الأمر أن قوله: «لو لمْ تَفعلُوا لصلحَ» إنما هو بمقتضى الظن بقوله: «ما أظن ذلك يغني شيئاً»، فهو بمثابة قوله «أظن أنكم لو لم تفعلوا لصلح»، لأن اعتقاد سببية أمر لحصول آخر يكون بإعلام من الشارع ولم يقع هنا أو بالتجربة، وهو ﷺ لم يمارس الفلاحة لاستغراقه فيما هو أشرف مكانة وأعم فائدة للأمة، فرجع إلى ما هو الأصل، وهو أن لا تأثير إلا لله، وعندما تبين له بالتجربة أن التلقيح سبب في صلاح الثمر، قال لهم: «أَنْتم أَعلمُ بأَمرِ دُنياكم» فالأمر في هذه الجملة يصرف إلى الأمور التي لم يتكلم فيها بصورة جزم كواقعة التلقيح، فتخرج أحاديث الطب فإنها أوامر وأخبار لم تعلق بظن، فلا يسعنا إلا التصديق بصحتها تصديقاً لا ينقض ميثاقه تشكيكات المتطببين، فإنهم يختلفون اختلافاً كثيراً.

* * *



تلقين الميت لا إله إلا الله[1]

سؤال:

اطلعت في الجزء الثالث من «نفح الطيب» على ما نصه: «شهدت مجلساً آخر عند هذا السلطان «ابن تاشفين عبد الرحمن بن أبي حم» قُرِئ فيه على «أبي زيد الإمام» حديث «لَقِنوا مَوْتاكم لا إله إلا الله» في صحيح مسلم»، فقال له الأستاذ «أبو إسحاق ابن حكم السلاي»: «هذا الملقن محتضر حقيقة ميت مجازاً، فما وجه ترك محتضريكم إلى موتاكم والأصل الحقيقة؟!» فأجابه «أبو زيد» بجواب لم يقنعه»، وكنت قرأت على الأستاذ بعض التنقيح: فقلت: «زعم القرافي أن المشتق إنما يكون حقيقة في الحال مجاز في الاستقبال مختلفاً فيه في الماضي إذا كان محكوماً به، أما إذا كان متعلق الحكم فهو حقيقة مطلقاً إجماعاً، وعلى هذا التقرير لا مجاز فلا سؤال»، فالمراد منكم بيان أن هذا الجواب صحيح أم لا؟

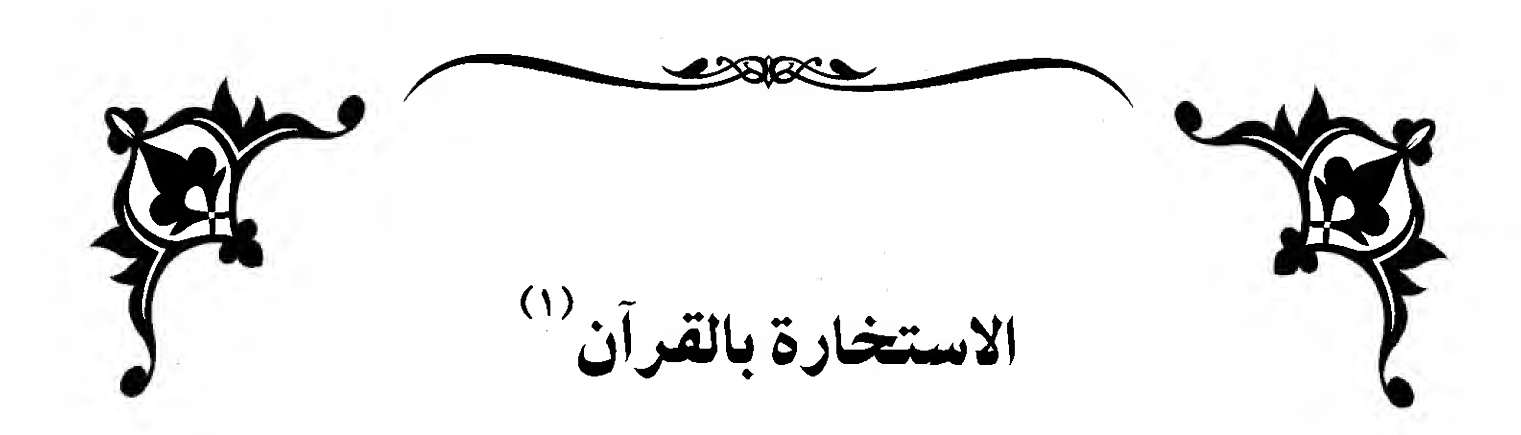
جواب:

كلام «القرافي» لا يصح تطبيقه على الحديث الشريف، وإيضاح ذلك أن قول القرافي «أما إذا كان متعلق الحكم فهوحقيقةٌ مطلقاً» معناه أنه لا يشترط

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.

في إطلاق اللفظ المشتق على الذات حصول معناه فيها عند النطق وهو زمن الحكم، ولكن لابد من شـرطية حصول معنى المشتق عند تعلق الحكم به، فنحو أكرمْ العالم، يصدق على من سيكون عالماً في المستقبل حقيقة، ولكن لابد من حصول العلم فيه عند تعلق الحكم به وهو الإكرام، ولو أبقينا كلامه على إطلاقه للزم عليه أن قول القائل: أكرمْ القائم مثلاً يقتضي إكرام الجالس الذي سيقوم لأنه يقال فيه قائم حقيقة وهو باطل بالضرورة، وإذا أجرينا الحديث على هذا التحقيق، يتضح لنا أن التلقين الذي هو الحكم لا يقع إلا إذا حصل المعنى الذي يقوم بمتعلقه وهو الموت، ومن ثم جاء الإشكال فيتعين الحمل على المجـاز، وله نكتتان: إحداهمـا ما قررهـا المقري بعد، وهي الإشارة إلى أن التلقين يكون عند ظهور العلامات التي يعقبها الموت، لأن التلقين قبل ذلك يُدهش ويُوحش. ثانيها أن ذلك من الإيماء إلى علة الحكم، والإشارة إلى وقت نفع تلك الكلمة النفع التام وهو الموت عليها، أي لقنوهم إياها ليموتوا عليها.

* * *



الاستخارة بالقرآن[1]

سؤال:

هل تجوز الاستخارة بالقرآن أو لا؟

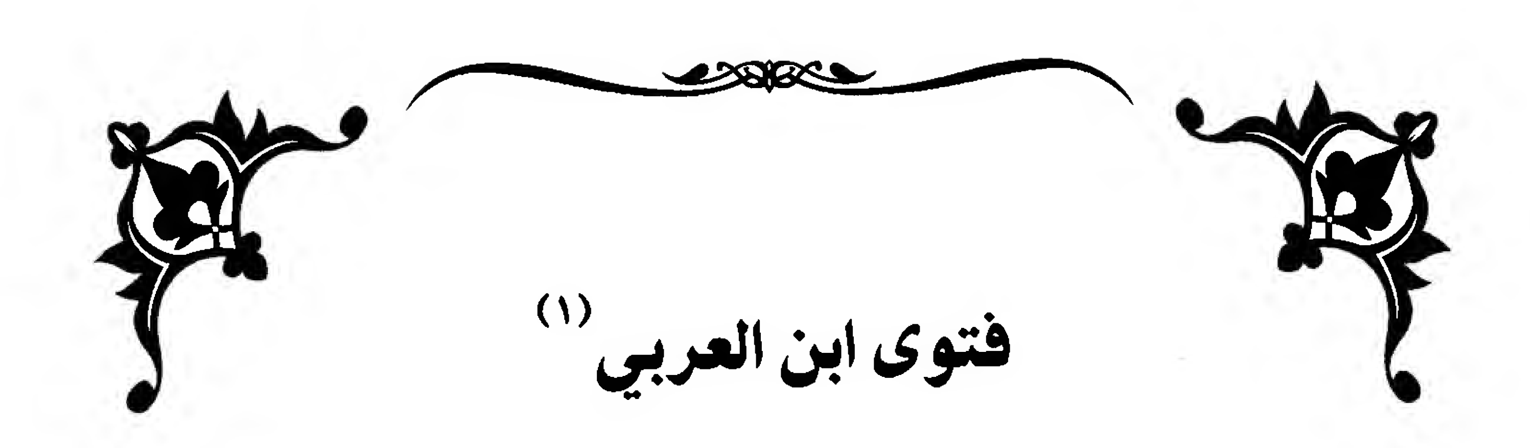
جواب:

الاستخارة من القرآن والاستفتاح به بدعة لم ينقل فعلها عن السلف، والأثر الذي ينسبونه إلى «سيدنا علي بن أبي طالب» غير صحيح، وقد صرح «أبو بكر الطرطوشي» بالمنع، ورأى أنه من الأزلام، وجزم بذلك المنع تلميذه «أبو بكر بن العربي» وأشار إلى وجه المنع في الأحكام بقوله: «إنّ المصحف لم يُبيَّن ليعلم بـه الغيب إنما بُيِّنت آياته ورُسـمت كلماته ليُمنَع عن الغيب، فلا تشـتغلوا به ولا يتعرض أحدكم له»، ولقد أغنانا الله تعالى بالاستخارة النبوية عن سائر الاستخارات التي لم يثبت فعلها عن الصدر الأول.

* * *

---

(١) العدد الثاني عشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الثانية ١٣٢٢.



فتوى ابن العربي[1]

سؤال:

المرجو من أستاذنا الشيخ صاحب السعادة، أن يفصح لنا عن رأيه في فتوى الإمام «أبي بكر بن العربي» بجواز أكل ما يخنقه الكتابي أو يحطم رأسه من الحيوان بنية الذكاة، ورجاؤنا أن يكون جوابكم مقصوراً على البحث في المسألة من جهة أدلتها الأصولية رداً أو تأييداً.

جواب:

ما يذكيه الكتابي بالخنق وحطم الرأس، أفتى «ابن العربي» بإباحة أكله، ونص هاته الفتوى من «الأحكام»: «ولقد سئلت عن النصراني يفتل عنق الدجاجة ثم يطبخها، هل تؤكل معه أو تؤخذ منه طعاماً؟ فقلت تؤكل لأنها طعامه وطعام أحباره ورهبانه، وإن لم تكن هذه ذكاة عندنا، ولكن الله أباح طعامهم مطلقاً، وكل ما يرونه في دينهم فإنه حلال إلا ما كذبهم الله فيه، ولقد قال علماؤنا: إنهم يعطوننا أولادهم ونساءهم ملكاً في الصلح فيحل لنا وطؤهم، فكيف لا نأكل ذبائحهم والأكل دون الوطء في الحل والحرمة؟» اهـ.

وقال قبل هذا ما نصه: «فإن قيل: فما أكلوه على غير وجه الذكاة كالخنق

---

(١) العدد الثالث عشر ـ الصادر في غرة رجب الأصب ١٣٢٢

وحطم الرأس، فالجواب إن هذه ميتة وهي حرام بالنص، فإن أكلوها لا نأكلها نحن، كالخنزير والميتة فإنه حلال لهم ومن طعامهم وهو حرام علينا فهذا مثله» اهـ.

فانعقد بين كلاميه تعارض بحسب الظاهر، وجمع بينهما «ابن عرفة» بأن الأول فيما إذا نوى بذلك الذكاة، والثاني فيما إذا لم ينو ذلك، وأيّد هذه الفتوى «أبو عبدالله الحفار» بما خلاصته: «ولا يشترط أن تكون ذكاتهم كذكاتنا في ذلك الحيوان المذكى وذلك رخصة من الله، وإذا كانت الذكاة تختلف في شريعتنا فتكون ذبحاً في بعض الحيوانات ونحراً في بعض وقطع رأس وشبهه كما هي ذكاة الجراد أو وضع في ماء حار، فكذلك قد يكون شرع في غير ملتنا سلّ عنق الحيوان على وجه الذكاة، ولا يلزمنا أن نبحث عن شريعتهم في ذلك بل إذا رأينا ذوي دينهم يستحلون ذلك أكلنا» اهـ.

ونقلها جماعة من فقهائنا، ولم يتصرفوا فيها بشيء، وقامت في وجهها طائفة بالإنكار وإن لم يطعنوا في نحرها بما يزحزحها عن موقف التمكن بحسب الدليل سوى «الشيخ ابن عرفة»، ونص ما في التفسير المنسوب إليه عند الآية المصدر بها، «أخذ من هذا «ابن العربي» جواز أكل المسلم من الدجاجة التي فكَّ النصراني عنقها إذا طبخها لنفسه وأطعمه معه لأنها من طعامه، وردّه «ابن عرفة»» بأنه ليس من طعامكم الفعلي الوجودي، بل طعامهم الذي أباحه شرعهم لهم، وهو إذاً في شرعهم محرم عليهم» اهـ. وقريب منه كلام «ابن عبد السلام»، ورد «ابن ناجي» كلام الشيخين «بأنه مبني على أنه وقع التبديل في شرعهم وليس كذلك» اهـ.

وكأني بك لأن كنت لا ترضى إلا بالنفوذ في أعماق الاستدلالات، تورد

على قول الإمام، وهو إذاً في شرعهم محرم عليهم إن هذا عبارة أو في مما بنيت عليه، لأن قصارى ما يقتضيه التبديل التوقف في أفعالهم لا الحكم عليها بأنها محرمة، وسيأتيك أن اقتضاء التبديل للتوقف غير كاف في الرد، ثم نلتفت إلى قول «ابن ناجي» «وليس كذلك» فنقول له: «كلا بل إن ذلك كان كذلك»، وقد كشف الغشاوة عن ذلك الوقوع صاحب «إظهار الحق» و«الشيخ الألوسي» في «تفسيره».

هذا وممن رام إماطة مدرك هاته الفتوى عن طريق الاعتماد «أبو عبدالله الرهوني»، ففوّق لها من كنانته سهمين، ولكنهما لم ينبعثا لها على خط مستقيم، ويكاد **أولهما** يتحد بما رماها به الشيخان، ونصه بعد نقل الفتوى وتأييدها قوله: «إنه يقبل قول أحبارهم ورهبانهم أنَّ ذلك حلال عندهم ويصدقون فيه»، إذ كيف يقبل قولهم بعد إخبار الله تعالى عنهم بأنهم حرّفوا وبدلوا حسبما أفصحت بذلك الآيات القرآنية والأحاديث المتواترة النبوية، وقد ثبت في أصح الصحيح كذبهم بحضرة النبي ﷺ غير ما مرة، وتوقعهم تكذيب الله إياهم بإعلامه نبيه بذلك، فلم يخشوا الفضيحة مع وقوع تكذيبهم ثم يعترفون، فكيف بغير النبي ﷺ، وفي أصح الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «لا تُصَدِقوا أَهْلَ الكِتَابِ ولا تُكَذِبوهمْ» الحديث، فتصديقهم فيما ذكر مخالف للأدلة والقواعد، **الثاني** على تسليم تصديقهم تسليماً جدلياً فلا وجه لتصديقهم في أن المنخنقة والمسلولة العنق حلال عندهم، وعدم تصديقهم في أن الميتة والخنزير حلال عندهم، وما فُرق به من أن الله كذَّبهم في حليتها فليس في الآيات ولا في الأحاديث شيء من ذلك، وإن عنى أن الله كذَّبهم بقوله: ﴿حُرِّمَتْ﴾[المائدة: ٣] الآية، فهذه مصادرة لأن الله كذَّبهم فيما زعم أنهم

مصدقون فيه لأنها منخنقة أو موقودة، وقد ذكر الله حرمة كل منهما في الآية نفسها، وقد قال «ابن العربي» نفسه في «الأحكام»: «والمنخنقة هي التي تخنق بحبل قصداً أو بغير قصد أو بغير حبل».

فأما أن يحمل «ابن العربي» قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[المائدة: ٥] على ظاهره فيدخل فيه الميتة والخنزير وما ذكر معهما، وإما أن يقصر على غير ذلك كله، وقصره على بعض دون بعض عمل باليد ودعوى لا دليل عليها، ولعلك لم تزل متذكراً ما فاتحك به الاستدراك في قولنا: «ولكنهما لم ينبعث إلخ»، فنقول: «يمكن رد الوجه الأول بأن وقوع التبديل والتحريف لا يقضي بتكذيبهم في غير ما لم يكذبهم فيه الوحي، كما هو صريح قوله ﷺ: «لا تُصَدِقوا أَهْلَ الكِتَابِ ولا تُكَذِبُوهمْ» وعليه فنتوقف في تناول ما ذكي بغير ذكاتنا، إلا أن الشارع لما أباح طعامهم مطلقاً بشبهة ما معهم من الكتاب وهو أعلم بما يفعلون، اندرج فيه ذلك فيكون هذا العموم متضمناً لتصديقهم في حلية ما يأكلونه فيباح لنا، إلا ما نص على تحريمه علينا بالخصوص كالخنزير والميتة».

ويرد قوله في الوجه الثاني «ولا وجه لتصديقهم في أن المنخنقة والموقوذة حلال عندهم وعدم تصديقهم في أن الميتة والخنزير حلال عندهم» بأن «ابن العربي» صرَّح بأنهم مصدّقون بأن الميتة والخنزير حلال عندهم أيضاً، حيث قال: «كالخنزير والميتة فإنه حلال لهم ومن طعامهم»، وقوله: «وما فُرِّق به من أن الله كذَّبهم في حليتها فليس في الأحاديث ولا في الآيات شيء من ذلك» مردود بأنه لم يعن بما كذَّبهم الله فيه الميتة والخنزير، إذ هو خلاف قوله: «كالميتة والخنزير فإنه حلال لهم»، بل أراد بذلك الربا ونحوه، كاليهودي

يستحل الربا قال تعالى: ﴿وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ﴾[النساء: ١٦١]. وقوله: «وقد قال ابن العربي نفسه في الأحكام، والمنخنقة هي التي تخنق بحبل قصداً» إلخ. يجاب عنه بأن يحمل ذلك على ما خنقت بقصد إزهاق روحها، فلا يشمل تعريفه ما خنقت على وجه الذكاة، وقوله: «فأما أن يحمل ابن العربي وطعام الذين أوتوا الكتاب على ظاهره فيدخل فيه الميتة» إلخ. يدفع بأن الميتة والخنزير قد حرَّمهما الله بالخصوص، فلا ترتفع الحرمة عنها إلاّ بنص خاص.

وأما ما خنق أو حطم رأسه بنية الذكاة فليس بمحرَّم، إذ ليس هو من مشمولات آية والمنخنقة والموقوذة عند ابن العربي، ولكن يقال له: بأي دليل لم تره داخلاً في قوله والمنخنقة والموقوذة وأدرجته تحت عموم وطعام الذين... الآية، ومن هنا نتخلص إلى منزع أصولي:

وهو أن ما ذكاه أهل الكتاب بالخنق وحطم الرأس أحلَّه قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾[المائدة: ٥] وحرَّمه قوله: ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾[المائدة: ٣] لما بين الآيتين من العموم والخصوص الوجهي، فذلك المذكى هو محل الاجتماع، وتنفرد الأولى بالذبائح والثانية بما لم تقصد ذكاته، والمرجع عند تعارض مثل هذين الأصلين إلى ما يرجح أحدهما عن الآخر بالنسبة لما وقع فيه التعارض، ولنا في ذلك لفتتان،

أولاهما إلى طريق العموم من حيث الدلالة، فيترجح مذهب «ابن العربي» بناء على ما للإمام في المحصول من أن الإضافة أدل على العموم من اللام، وإما على ما نص عليه جماعة من التسوية بينهما فلا ترجيح.

وأما الترجيح بدليل آخر وهو اللفتة الثانية فللنظر فيه شعب، منهما أن

العموم في آية ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ﴾[المائدة: ٥] مخصوص بالميتة والدم ولحم الخنزير قطعاً، بخلاف عموم آية ﴿وَٱلْمُنْخَنِقَةُ وَٱلْمَوْقُوذَةُ﴾[المائدة: ٣] فإنا لا نعلم له مخصصاً، والعام الذي لم يدخله تخصيص أقوى في الدلالة مما دخله التخصيص، وعليه فيترجح القول بالتحريم هذا على ما لجمهور الأصوليين، وأما على رأي «ابن السبكي» من أن المخصوص أقوى فيترجح مذهب «ابن العربي»،

ثانيها أن الآية الأولى للإباحة والثانية للحظر ودليل الحظر مقدم على دليل الإباحة، وهو مذهب «الأبهري» من أصحابنا، وعزاه «التفتزاني» في «حواشيه على ابن الحاجب» إلى الجمهور، ووجهه بأن مخالفة المحظور توجب الإثم بخلاف المباح فكان أولى للاحتياط، وأيد بقوله ﷺ: «دَعْ مَا يُرِيبُكَ إلى مَا لا يُرِيبُكَ».

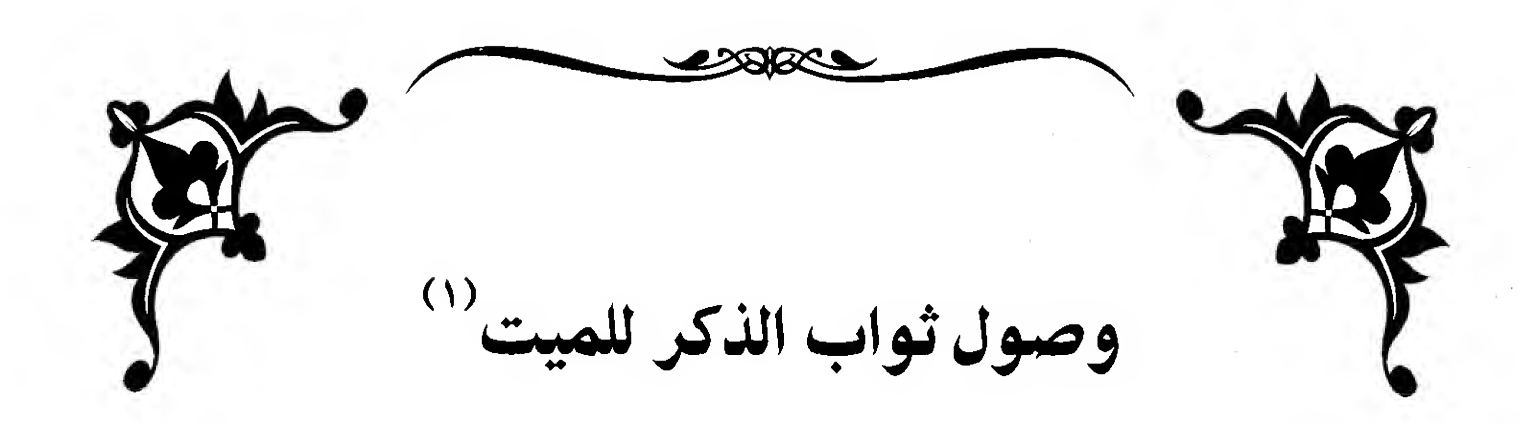
ووجَّهه غيره بأن النهي يعتمد درء المفسدة، وقد قُدِّم على الأمر المتضمن لجلب المصلحة، فلأن يقدم على ما عرى عن ذلك أولى.

نعم يترجح مذهب «ابن العربي» بناء على ما ذهب إليه «أبو الفرج» وغيره من تقديم دليل الإباحة، وأما على ما رجّحه في «المستصفى» وصحّحه «الباجي» في «المنهاج» من التسوية بينهما فلا ترجيح، ولكن مذهب «الأبهري» أقوى مدركاً وأعلى نظراً، ومما يدعم أصل الحرمة دليل الخطاب في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾[المائدة: ٣] على أن الاستثناء منقطع، فإن مفهومه أن ما ذكّاه غيرنا كالكتابي لا يباح، لكن ما كانت ذكاته موافقة لذكاتنا قد قام الدليل على إباحته، فيبقى ما عداه ممنوعاً بدلالة هذا المفهوم، ويعضده أيضاً قوله تعالى: ﴿وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ﴾[المائدة: ٥] على أن الآية بيان لنا لا لهم

على رأي «السدي» وغيره، والمعنى كما قال «الآلوسي» «طعامهم حلٌّ لكم» إذا كان هو الطعام الذي أحللته لكم، ولذلك لو أطعمونـا خنزيـراً أو نحوه وقالوا هو حلال في شريعتنا وقد أباح الله تعالى لكم طعامنا كذَّبناهم، وقلنا: «إن الطعام الذي يحل لكم هو الذي يحلُّ لنا لا غيره».

ولقائل أن يقول: «إن هذا المعنى إنما تفيده الآيـة لو اشـتملت على طريق من طرق القصر»، فإن قيل: يؤيد أصل الحرمة أيضاً، أن الذكاة شُرعت لإخراج الفضلات، وبالخنق وحطم الرأس لا يتحقق ما شرعت لأجله، قلت: صحيح ذلك على القول به، إلا أن الراجح في المذهب أنها شرعت لإزهاق الروح بسرعة، وأما قياس «ابن العربي» أكل ذبائحهم على وطء نسـائهم، فلا يُعدُّ من فرائد بدائعه، وقد كفانا المحقق «الرهوني» مؤونته الخفيفة، فقد اتضح لك أيها الناقد البصير أن القول بالحرمة أقرب إلى الصواب وأرجح من جهة النظر.

* * *



وصول ثواب الذكر للميت(١)

سؤال:

سيدي الفاضل صاحب السعادة. هل ينتفع الميت بثواب الذكر والتسبيح والصلاة على النبي ﷺ إذا أهدي ثواب ذلك إليه؟ أو هو حبس على صاحبه لا يصل للميت منه شيء، كما يشهد لذلك قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم: ٣٩] الآية؟.

جواب:

انتفاع الميت بما ذكر في السؤال يجري فيه اختلاف الأئمة في وصول ثواب قراءة القرآن، وقد ذهبوا في ذلك مذاهب شتى وإليك خلاصتها:

فذهب «مالك» و«الشافعي» إلى أنه لا يحصل شيء من ذلك للميت، وقال «أبو حنيفة» و«أحمد بن حنبل» يصل ثواب القراءة للميت.

قال «القرافي» في «فروقه»: «فمالك والشافعي رضي الله عنهما يحتجان بالقياس على الصلاة ونحوها مما هو فعل بدني، والأصل في الأفعال البدنية أن لا ينوب فيها أحد عن الآخر ولظاهر قوله تعالى: ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم: ٣٩]، ولقوله عليه السلام: «إذا مَاتَ ابنُ آدَمَ انْقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ

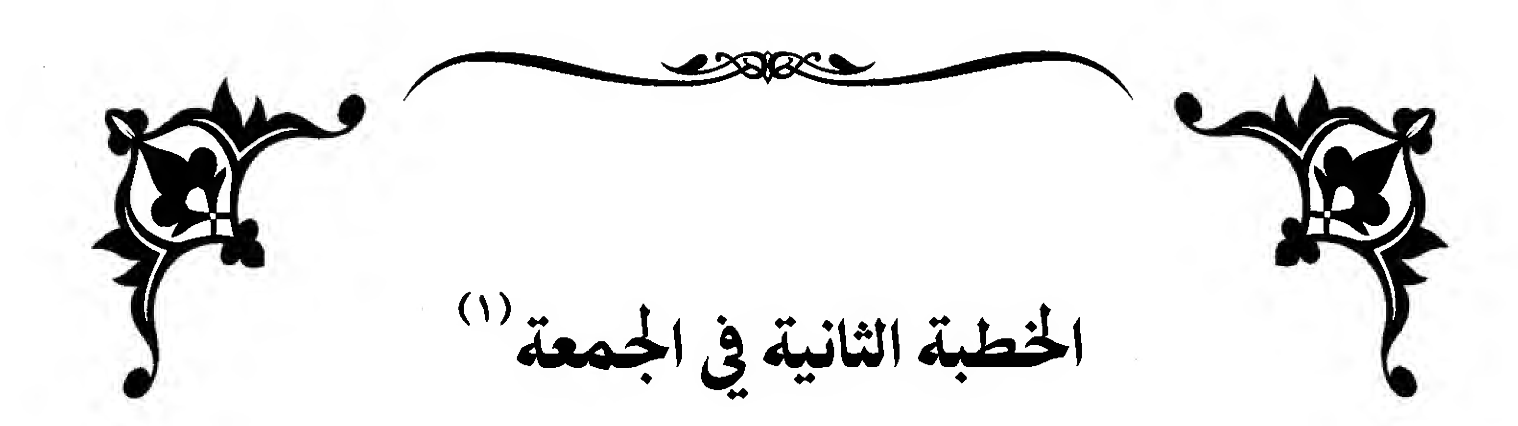
(١) العدد الخامس عشر ـ الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢.

مِنْ ثَلاثٌ: عِلْمٌ يُنْتَفعُ بِهِ وَصَـدقَةٌ جَارِيَةٍ وَوَلَدٌ صَالِحٌ يَدْعو لَهُ»، ثمَّ قـال: «وهذه المسألة وإن كان مختلفاً فيها فينبغي للإنسان أن لا يهملها، فلعل الحق هو الوصول إلى الموتى، فإن هذه أمور مغيبة عنَّا، وليس الخلاف في حكم شرعي إنما هو في واقع هل هو كذلك أم لا؟ وكذلك التهليل الذي عادة الناس يعملونه اليوم، ينبغي أن يعمل ويعتمد في ذلك على فضل الله ويُلتمس فضل الله بكل سبب ممكن».

ونصَّ «ابن رشد» في «الأجوبة»، و«ابن العربي» في «الأحكام»، على أن الميت ينتفع بالقراءة التي يُوهب له ثوابها قرئت على القبر، أو في البيت، أو في بلاد إلى بلاد، وقال «ابن الحاج» في «المدخل»: «من أراد وصول قراءته بلا خلاف، فليجعل ذلك دعاء بأن يقول: (اللهم أوصل ثواب ما أقرأ إلى فلان)، فإن الدعاء متَّفق عليه». وقال «الأبيّ»: «رأيت لبعضهم أن القارئ للغير، إن صرَّح أو نوى قبل قراءته للغير كان ثوابها للغير، وإن كان إنما نوى الثواب بعد القراءة فإنه لا ينتقل، لأن الثواب حصل للقارئ والثواب إذا حصل لا ينتقل»، وهذا المذهب الذي كان يختار الشيخ «أبيُّ ابن عرفة».

أما آية ﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَـٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾[النجم: ٣٩] فأجيب عنها، بأن الغير لمّا نوى ذلك الفعل له صار بمنزلة الوكيل عنه القائم مقامه، فكأنه بسعيه، وأجيبُ أيضاً بأن سعي غيره لما لم ينفعه إلا مبنياً على سعي نفسه من الإيمان فكأنه سعيه.

وقول الأبيُّ إنَّ الثـواب إذا حصـل لا ينتقل غير ظاهر، والظاهر الذي نعتمده ونعول عليه هو الوصول والانتفاع مطلقاً، كما هو مذهب جماعة من المحققِّين.



الخطبة الثانية في الجمعة[1]

سؤال:

هل التزام الخطبة الثانية بعينها في كل جمعة له وجه أم لا؟

جواب:

إجراؤها مجرى الخطبة الأولى في إيرادها على حسب ما يقتضيه الحال، ويحتاج إليه في ذلك الوقت هو الأفيد للأمة والأقرب من السنة، قال الشيخ «كنون» في «حواشي المختصر» قال «ابن عاشر»: «انظر من أين اخذ خطباء فاس التفريق بين الخطبة الأولى والثانية في كيفية الجهر بهما، حتى إنَّ بعضهم ربما أسرَّ في الثانية. وقال بعضهم بإسرار الخطباء بأول الخطبة الثانية حتى لا يكاد الخطيب يسمع لا أصل له فهو بدعة، وكذا التزامهم للثانية لفظاً واحداً دائماً، وكذا إخلاؤها من الموعظة، فإن الجميع خارج عن عمل الماضين من السلف الصالح».

* * *

(١) العدد الخامس عشر ـ الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢.



دخول ولد الزنى للجنة[1]

سؤال:

هل يدخل الجنة ولد الزنى أو كيف الحال؟

جواب:

ولد الزنى كغيره، إن أحسن جُوزي، وإن أساء عُوقب كما «قال ابن عباس»، وحديث «لا يدخل الجنة ولد زانية» رواه «النسائي» و«ابن حبّان» و«أبو نعيم» في «الحلية»، وأعلَّه «الدارقطني» بأنه ورد من رواية «مجاهد» عن «أبي هريرة» ولم يسمع «مجاهد» منه، وأيضاً يعارضه ما رواه «الحاكم» وصححه مرفوعاً «ولدُ الزِّنى ليسَ عليه من وزر أبويه شيء»، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَزِرُ﴾[الأنعام: ١٦٤] الآية. وقال «ابن حجر»: «واتفق العلماء على أن حديث «لا يدخلُ الجنَّة» إلخ أنه لا يُحمل على ظاهره، وفسَّروه على تقدير صحته بأن معناه إذا عَمِل بعمل والديه، أو المراد من يواظب عليه، كما يقال للشهود بنو الصحف، وللشجعان بنو الحرب».

نعم، أخرج «الإمام أحمد» و«أبو داود» و«البيهقي» و«الحاكم» بإسناد حسن، عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «ولدُ الزِّنى شرُّ الثلاثة» أي

(١) العدد الخامس عشر ـ الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢

هو وأبواه، وهذا إنما قاله عليه الصلاة والسلام في رجل بعينه كان يؤذيه، وبذلك فسَّرته عائشة رضي الله عنها لما بلغها ما حدَّث به أبو هريرة.

روى «الحاكم» في «المستدرك» من طريق عروة أن عائشة بلغها حديث أبي هريرة فقالت: رحم الله أبا هريرة، أساء سمعاً فأساء إجابة، لم يكن الحديث هكذا، إنما كان رجل من المنافقين يؤذي رسول الله ﷺ، فقال: من يعذرني من فلان، فقيل: يا رسول الله إنه مع ما به ولد زنى، فقال «هو شرُّ الثلاثة» والله تعالى يقول: ﴿وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾[الأنعام: ١٦٤]».

وروى «ابن ماجه» في كتاب «العتق من سننه» بلفظ: سئل رسول الله ﷺ عن ولد الزنى فقال: «نعلان أُجاهدُ بهما خير من أن أعتق ولد الزنى»، وهو مؤول أيضاً بالحمل على من كثر منه الزنى حتى نسب إليه، كقولهم لمن كثر منه السفر ابن السبيل، حتى لا يصادم آية ﴿وَلَا تَزِرُ﴾ فتبقى مطردة في سبيل عمومها.

* * *



كيف التخلص من البدع؟[1]

أسئلة متعددة:

هل يخلص العبد في توحيده ومتابعته للحق وهو جاهل؟

وهل يخلص ظنّه بالله ويحسن، وهو مخلط مسيء ومتمن مغرور؟

وهل يمنح الفضل والهداية واليقين والتوفيق، وهو متلبس بالبدع المضلة؟

وهل يكون ميسر العمل البر، مشروح الصدر، كريم النفس، مع الكبر والحسد؟ وهل يحب الحق ويكره الباطل ويواسي في الله ويعادي فيه، وهو مخالط لأهل المنكر والضلال؟ وهل يصدّق ويصدُق في الحق ويعطي فرقاناً، وهو آكل حراماً أو ما فيه شبهة؟ وهل يعتقد الحق ويعمل به، وهو مع المؤولين المتعصبين المدعين الدجالين؟ وهل تيسر له التوبة النصوح، مع الإصرار والتمرد والنفاق والمداهنة؟ وهل يكون من أهل الصراط المستقيم المخبتين الخائفين الراجين المحبين أهل السبق والبشارة، وهو راكس في هواه وعوائده الطبيعية والبلدية والمذهبية والعشيرية؟ وهل يكون مختاراً مجتبى تنفعه الذكرى، ويخشى الله ويتقيه، ومتوكلاً عليه منور القلب فيُيسر للخير ويُرحم وينصح ويأمر وينهي، ويُعطي ويمنع وهو متلبس بأنواع من الفساد الظاهر والباطن، وتضييع أكثر الواجب، وارتكاب كل ما يقدر من المخالفات من كل

---

(١) العدد الخامس عشر ـ الصادر في غرة شعبان الأكرم ١٣٢٢

ما يغضب الله ويسخطه ويكرهه؟ وهل يتصور إسلام، مع نبذ الشرع والعهود والاعتداء على حدود الله، وما لا يعد ولا يحصى من التكلم بالباطل، وبكلام المردة الذي ينقض عرى الإسلام عروة عروة من حيث لا يدري، وذكر أهل المخالفة للشرع والميل إليهم، واستحسان ما هم عليه والدعوة إليه؟ وهل من سبيل إلى النجاة من هذه الأحوال؟

جواب:

سبيل النجاة من تلك الأحوال بالنسبة للملتبس بها، هو الرجوع إلى التمسك بالكتاب والسّنة، والاقتداء بسيرة السلف الصالح، وكل ذلك لم يزل محفوظاً مذكوراً.

أما المشاهد لها، فلا يضره من ضلَّ، إذا اهتدى للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ما وجد لذلك سبيلاً، وإن البدع وإن انتشرت بيننا انتشار السنن في الصدر الأول، فباضت وفرّخت في كل ناد، وهبّت عواصفها في كل واد، لا يعسر اقتلاعها من حيث نبتت، وطيها من حيث نشرت، لو يقوم السادة العلماء يداً واحدة يستقصون آثارها، ويقرطسون فيها سهام الرد والإنكار بألسنتهم وأقلامهم الشديدة العارضة، من غير التفات إلى تفنيد وتثريب ﴿وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرۡضُوهُ﴾[التوبة: ٦٢]، وقد جمعنا في الأسبوع الفارط محفل مبارك مع بعض المدرسين المحققين، فوقعت عينه على بعض محدثات مكروهة شرعاً، فأمر بإزالتها في الحال، فبادر أهل ذلك المجمع إلى امتثال ما أمر به الأستاذ مع هيبة واحترام، ومثل هذا مما ينبئك على ما قذفه الله في القلوب من الانقياد والتعظيم للعلماء العاملين، وأنهم القدوة والمثال الذي ولع الناس بتقليده.



الرؤيا والحكم الشرعي[1]

سؤال:

من رأى النبي ﷺ في المنام، وأمره بفعل شيء، هل يلزمه فعل ذلك الشيء، لقوله: «من رآني فقد رآني حقاً فإن الشيطان لا يتمثل بي»، أم لا؟

جواب:

الحكمة البالغة تقتضي أن تكون طرق معرفة الأحكام مضبوطة جلية، تسع مداركها كل من يحاول الوصول إليها من المكلفين لا يختص بها واحد دون آخر، ولهذا لم يعدّ الأصوليون من دلائل الفقه الإلهام ولا المرائي المنامية، وأما ما يذكره بعض العلماء من الاستدلال بالمرائي فإنما هو من باب الاستئناس والتأييد للأدلة الظاهرة.

فرؤيته عليه الصلاة والسلام مناماً، وإن كانت حقاً لا يقرّر بها حكم شرعي على جهة الاستقلال، لأننا نخشى أن نرى رجلاً يعمل عملاً على خلاف ما يقتضيه ظاهر الشريعة، فإذا كُلِّم في ذلك قال: «إن النبي ﷺ أمرني بذلك مناماً». هذا مع عدم تحقق ضبطه للرؤيا واحتمال تأويلها على خلاف ما فهمه منها، ولذلك قال «القرافي»: «لو قال النبي ﷺ لرائيه في المنام امرأتك

---

(١) العدد السادس عشر ـ الصادر في ١٦ شعبان الأكرم ١٣٢٢.

طالق ثلاثاً هل يلزمه الطلاق ثلاثاً لأنه ﷺ لا يقول إلا حقاً أو لا يلزمه شيء، هو الأظهر، لأن إخباره ﷺ في اليقظة مقدم على إخباره في النوم، ولأن احتمال الغلط في ضبط المثال في النوم أرجح من الغلط في ضبط عدم الطلاق لأن هذا لا يختل إلا على النادر من الناس، وأما لمثال في النوم فلا يضبطه إلا الأفراد من الحفاظ لصفته ﷺ، والعمل بالراجح واجب».

* * *



جوائز التفوق في المسائل العلمية[1]

سؤال:

هل يجوز للرجل أن يُعيِّن جانباً من المال ليأخذه من فاق غيره في تحقيق مسألة علمية؟

جواب:

ورد في الشريعة جواز المسابقة على الخيل بعوض من غير المتسابقين تدريباً على الحروب وترغيباً في الأخذ بالاستعداد لها عند الحاجة، وهذه العلة يصح إجراؤها في مسألتنا، بل الترغيب في العلم والتنافس فيه أكيد، ولاسيما عند ضعف الهمم في طلبه وقلة الاعتناء به من حيث أنه فضيلة، وعليه فما يقع الآن من المناظرات لإحراز مرتب التدريس والامتحانات للفوز بجوائزها سائغة لا بأس بها.

* * *

(١) العدد السادس عشر ـ الصادر في ١٦ شعبان الأكرم ١٣٢٢.



إجزاء إخراج القيمة من الزكاة[1]

سؤال:

نطلب منكم أن تبينوا لنا ما هو المعتمد عليه في المذهب من إجزاء إخراج القيمة في الزكاة وعدمه.

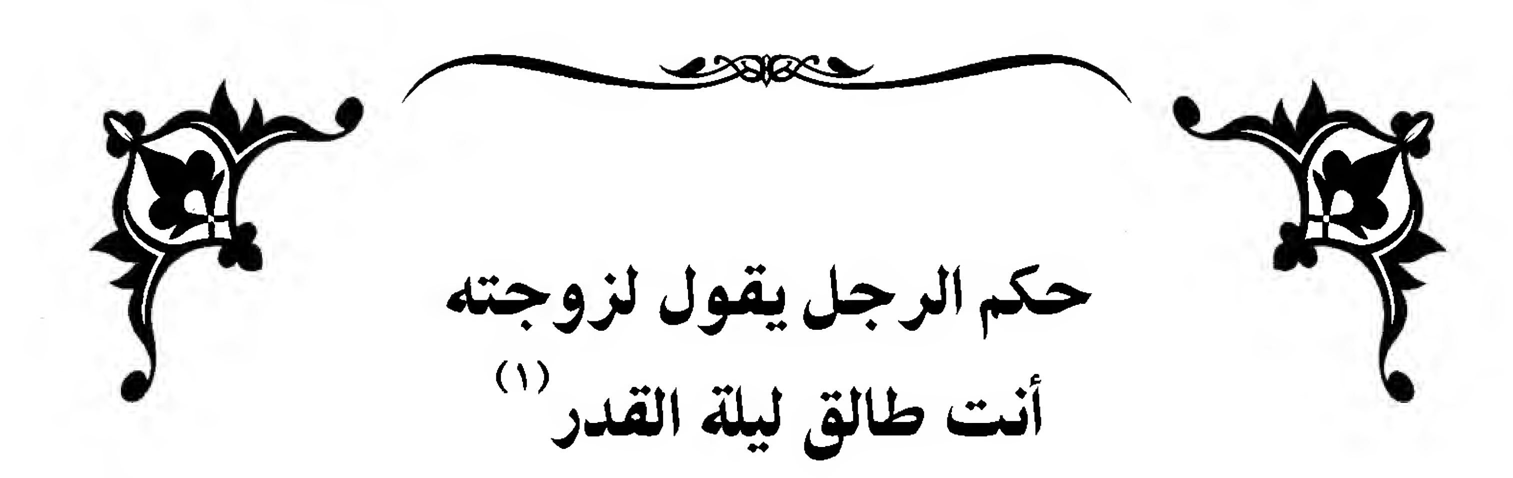
جواب:

مشـهور المذهب كما نص عليه «القاضي عبد الوهاب» في «التلقين» و«أبو الوليد» في «المنتقى» وغيرهما، وبه قال الشافعية، إنه لا يجزئ إخراج القيم بدلاً عن الأعيان المنصوص عليها في الزكاة، لأن الزكاة عبادة وإذا أتي بالعبادة على غير الجهة المأمور بها فهي فاسدة، وقال بعض فقهائنا بالإجزاء، وبه قال الحنفية بناء على أن الزكاة حق للمساكين، فلا فرق بين العين والقيمة، وقال أصحاب القول الأول: «لنا أن نقول، وإن سـلَّمنا أنه حق للمساكين، أن الشارع إنما علق الحق بالعين قصداً منه لتشريك الفقراء مع الأغنياء في أعيان الأموال»، وقال القائلون بالإجزاء: «إنما خصت بالذكر أعيان الأموال تسهيلاً على أربابها، لأن كل ذي مال إنما يسهل عليه الإخراج من نوع المال الذي بين يديه».

(١) العدد السادس عشر ـ الصادر في ١٦ شعبان الأكرم ١٣٢٢.

ومشهور المذهب مقيد بما إذا لم يجبره المصدق على دفع القيمة وإلا أجزاه لأنه حاكم، وحكم الحاكم يرفع الخلاف، ونص المدونة ومن أجبره المصدق على أن أدى في صدقته ثمناً رجوت أن يجزئه إن كانت للحول وكانت وفاء لقيمة ما وجب عليه.

* * *



حكم الرجل يقول لزوجته أنت طالق ليلة القدر[1]

سؤال:

ما حكم الرجل يقول لزوجته أنت طالق ليلة القدر؟

جواب:

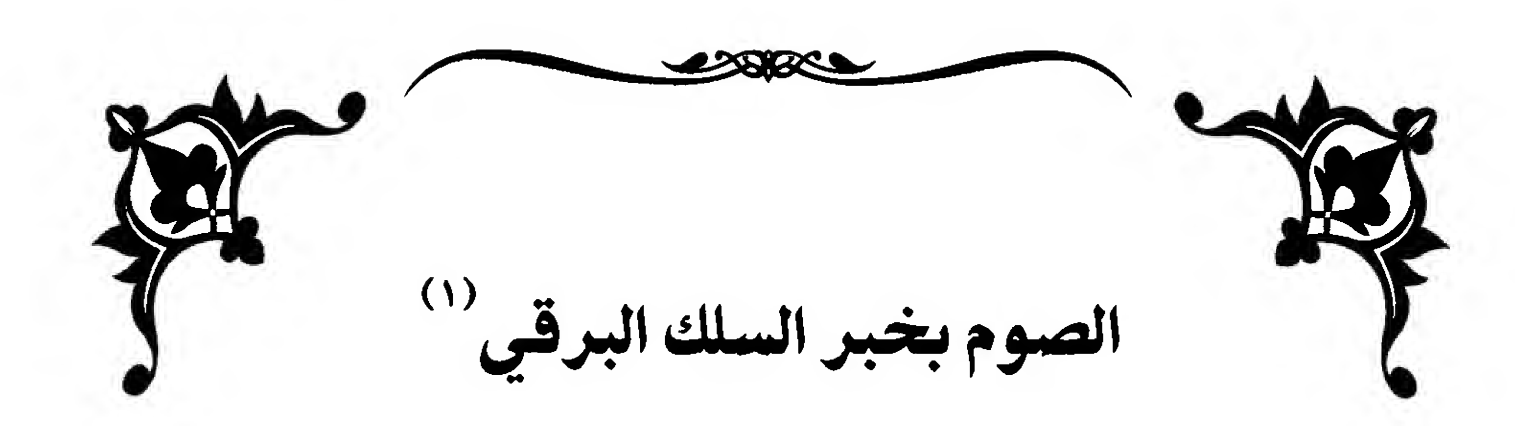
رأي بعض الأئمة أنها لا تطلق حتى تتم عاماً من يوم يمينه، لأنها تكون ليلة في العام ويحتمل أن تكون آخر ليلة من تلك السنة، ولا تطلق عليه لاحتمال أن تكون الليلة القابلة إذ لا يبطل يقين النكاح بشك الطلاق.

وقال بعضهم «إذا كان آخر ليلة من شهر رمضان طلقت»، لما ثبت من الآثار أنها في رمضان وبانقضاء ليلة تسع وعشرين تعين حصولها.

ومذهب «مالك» أنها تطلق في الحال، وهكذا الحكم في كل طلاق عُلِّق على أجل آت لا محالة، وكان مما يبلغه عمر الزوجين عادة لأن الفرج لا يقبل تأقيت الوطء، ولذلك أبطل العلماء نكاح المتعة، وليس مبنياً على الطلاق بالشك كما توهمه بعض الفقهاء، فإن مالكاً لم يُطلِّق بشك قط، ولا يُرفع اليقين عنده بالشك أصلاً.

* * *

(١) العدد السادس عشر ـ الصادر في ١٦ شعبان الأكرم ١٣٢٢.



الصوم بخبر السلك البرقي[1]

سؤال:

هل يجوز الصوم بخبر «التلغراف» أو «التلفون»، إذا لم يكن لأهل بلد رؤية الهلال، وثبت في بلد آخر واستفدنا منهم ذلك على طريق «التلغراف» أو «التلفون»، أو كيف الحال نرجوا منكم الجواب أثابكم الله؟

جواب:

سمعت أهل العلم يقرر وجوب العمل بأخبار «السلك البرقي» رعاية لعدم إخبار المستخدمين فيه بخلاف الواقع منذ حدث، وخالفه بعضهم مستنداً لفقد شروط عدل الشهادة شرعاً، ولا تثبت الأحكام إلا عند توفرها، فلو فرض أنك عاشرت إنساناً السنين المتطاولة، ولم تعثر له على كذب قط، لا يجوز لك العمل على مقتضى روايته، إذا لم تتوفر فيه شروط العدالة.

ثم إن المباشر لاستخدام «السلك البرقي»، وإن كان هو في نفسه متحرياً للصدق ليس من شأنه البحث عن الذي أتاه بالخبر، هل هو الممضي باسمه ذلك الخبر أو غيره؟ فمن المحتمل أن يأتيه إنسان غير صادق بخبر ثبوت الشهر بعد أن يمضيه باسم غيره من الثقات، فإن السفهاء الذين يتجرؤون بالعبث

---

(١) العدد السابع عشر ـ الصادر في غرة رمضان المعظم ١٣٢٢ .

في أمور الدين كثيرون، وعدم وقوع مثل هذا في الماضي لا يقتضي عدم وقوعه في المستقبل.

وبالجملة فإنَّا لا نرى العمل بأخبار هذا «السلك البرقي»، إلا في صورة وهي أن تتفق مع رجل عَدْلٍ على أن يخبرك بثبوت الشهر عندهم، ويقع التوافق بينكما على وضع أمارة خفية يتضمنها ذلك الخبر، كأن تقول له: «إن ثبت عندكم الشهر فاكتب لي مع ذلك الخبر لفظة كذا»، أعني كلمة تعنيها له، فمثل هذا مما يفيد ظناً قوياً يجب العمل بمقتضاه، وأما «التلفون»، فإنه يدرك في صوت المخابر فيه نوع تغير يوجب ريبة في الخبر، فلو كان ذلك الخبر مصحوباً بكلام خاص بينك وبين مخاطبك العدل مثلما اشترطناه للعمل بالتلغراف، لزالت تلك الريبة ووجب العمل بمقتضى المخابرة فيه.

❐ ❐ ❐



المستدرك من «السعادة العظمى»[1]

* **استدراك[2]:**

من مقاصد هاته المجلة ـ «السعادة العظمى» ـ: التعرُّضُ لما تتداوله الألسنة، وتتناقله الأقلام من الأحاديث الموضوعة.

قال أبو بكر بنُ العربي: إن ناقلها عن غير ثقة من غير أن يبين وضعها، يشمله وعيدُ قوله ـ عليه الصلاة والسلام ـ: «من كذب عليَّ...» الحديث، وما توفيقي إلا بالله.

* **التمدن[3]:**

هذه اللفظة مأخوذة من «المدينة»، و«المدينة» اضطرب فيها صاحب «القاموس»؛ فجعلها مرةً مِنْ «دان»، وعليه فتكون ميمُها زائدةً، ومرَّةً من

---

(١) رجعنا إلى أعداد مجلة «السعادة العظمى» للإمام محمد الخضر حسين، فوجدنا بعض البحوث والتعاليق للإمام لم تَرِد في الكتاب الذي طبعناه بتاريخ سنة (١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م)؛ لذا استدركنا ذلك في هذه «الموسوعة الكاملة» لأعمال الإمام رضوان الله عليه.

(٢) العدد الأول ـ الصادر في ١٦ محرم ١٣٢٢هـ.

(٣) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢هـ.

«مَدَن» بمعنى: أقام، فتكون ميمُها أصليةً، وهو الصحيح؛ إذ لو كانت الميم زائدة، لم يجز جمعُها على «مُدُن».

وأما معناها، فقد شاع استعمالها في استجماع كلِّ ما يلزمُ لأهل المدينة من اللوازم البدنية؛ من الملابس والمراكب والمآكل، والعقلية، وهي المعارف، وقد يخطئ بعض المنتمين إلى هذا القبيل، فيخرجون بتلك اللوازم عن حدِّ الاعتدال، بل ربما فهموا من هذه اللفظة غير المراد منها، وحاولوا التلبس بشعارها، فيفضي بهم سوء الفهم إلى التقدم، ولكن في الهمجية لا المدنية، وسنزيد هذا المطلب بسطة في بعض المقالات الافتتاحية.

*** وفاء ذمة[1]:**

قد كُنَّا عزمنا أنْ نصدِرَ هاته المجلةَ في غُرَّة محرم، حتى لا تكون سَنَتُها بتراءَ، ولكنَّ بُطْءَ المقدمات الأولية لإصدارها، قضى علينا أن لا نصدر العدد الأول إلا في نصف محرم، مع بذل كل حَزْم؛ فأصدرنا ذلك العدد، واعتبرناه عددين، ونحن ننوي قضاء ذلك العدد المعتبر، وكنا نرصُد الفُرصَةَ لذلك، حتى تكرَّرَ علينا من بعض المشتركين الكرام، الاشتراطُ بأنهم لا يعتبرون السَّنة إلا من نصف محرم إلى نصف محرم ١٣٢٣هـ؛ اعتبار لوقت صدور المجلة، وهو الحق؛ إلا أن هذا يشوِّشُ نظامَنا، ويجعلُ سَنةَ مجلتنا كالسَّنة المنسأة؛ ولذلك بادرْنا إلى قضاء ما في ذمتنا من صحائفِ العدد الأول، بإصدار أربعِ ورقاتٍ منها في العدد الرابع، وأخرى في الذي يليه، وبهذا تكون السنة منتهية إلى حيث أنهاها الله.

---

(١) العدد الرابع ـ الصادر في ١٦ صفر ١٣٢٢هـ.

*** تعليق[(١)]:**

أيها الصديق الأعز! إن الشعر هو الكلام الموزون بحسب الحالة التي يورده المتكلم عليها، وجنابُكم خبيرٌ بأنَّ النـونَ في الآية مفتوحـةٌ، وهكذا نقرؤها، شأن كلِّ نونٍ وقعت إثْرَ واو الجمع، وتغييره بالسكون إنما هو أمرٌ عارِضٌ من أجلِ الوقف. والأحوالُ العارضة في بعض الأحيان لا ينبني عليها حكمٌ مستمر؛ كالوصف بالشعرية. وهذا بخلاف البيت المستشهَد به، فإنه موزون بحسب الحال التي ورد عليها أولاً؛ لأن الشاعر نفسَه سكّن نونه لإقامة الوزن، ولو تلفظ بها محركة، لم يكن من الشعر في شيء، وإنْ سَكَّناها نحن في حال الوقف.

وتحرير مقصدنا: أن المعتبر في الحكم على التركيب بأنه شعر، إنما هو الحالة الأصلية، وهي ما ينسج عليه المتكلم هيئة كلامه.

---

(١) العدد الخامس ـ الصادر في غرة ربيع الأنور ١٣٢٢هـ.

* تعليق الإمام محمد الخضر حسين على مقال العلامة المحقق الشيخ محمد النخلي أحد أعيان المدرسين بالجامع الأعظم الذي قال فيه: «أما ما ورد من الآي الكريم مما جاء على الأوزان الشعرية، فقد قام بتحرير جوابها صاحب هاته المجلة الغراء مستوفي البيان. ولكن الجواب بالقصد الأول لا محيص عنه في بعض الآيات؛ كقوله تعالى: ﴿لَن تَنَالُوا۟ ٱلْبِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا۟ مِمَّا تُحِبُّونَ﴾[آل عمران: ٩٢]؛ فإنه موزون، ولو بزيادة النون؛ إذ هو من مجزوء الرمَل المسبغ الضرب، وبيته:

يا (خَليليَّ اربَعَـا واستَخْبِـرا ربْعاً بعُسْـفانْ)

وهذا الموضوع الذي وفقنا الله لخوض عُبابه يتشعب إلى أغراض كثيرة لا نضيع البحث عنها كلما سنحت فرصة، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم».

* وفاة عالم جليل[1]:

ليلة التاسع والعشرين من ربيع الثاني، استلمت يدُ المنية روحَ العلامة المحقق الأستاذ الشيخ سيدي مصطفى رضوان[2]، فتفَطَّرت لوفاته الأكباد تأسُّفاً، وتصدَّعت لها الأحشاء حسرة وانفعالاً. والفقيد ـ تغمده الله برضاه ـ تضلع من العلوم الدينية، وبراعة فائقة في الفنون الأدبية، وخبرة تامة بالعلوم الرياضية. وله نثرٌ فصيح، ونظمٌ بليغ، وخطٌّ جيد.

وكان ـ رحمه الله ـ متجملاً بالسكينة الممزوجة بالتواضع وعلوِّ النفْس، لا تمنعه رفعةُ مكانته في العلم من الانبساط لمحاورة جلسائه، ولا يصدُّه قربُ الصلة عن الوقوف مع الحقوق التي تُناط بعُهدته. أما دروسُه، فكانت مفيدة جداً، يقررها بعبارات عربية حسنة السبك، في صوت لا يَجهر به ولا يُخافت، واسترسالٍ لا تتخلله فتراتٌ إلا وقت المباحثة، وعليها من التوادّة طلاوةٌ تعين الفهم على الثبات والرسوخ، ولا يُعَرِّج فيها على المناقشات اللفظية، أو ينتقل من موضوع إلى آخر بدعوى المناسبة، وإن فعله بعض الكاتبين.

لازمتُ الحضورَ بدرسه «جمع الجوامع» بشرح الجلال المحلي من بدايته إلى نهايته في مدة تناهز ثلاثين شهراً، وما رأيته يفيض الكلام إلا في المباحث المهمة.

خلّف نجلين فاضلين: **أحدهما**: من نخبة المدرسيّن بالجامع الأعظم، **والثاني**: من أعيان المتطوعين به.

---

(١) العدد العاشر ـ الصادر في ١٦ جمادى الأولى ١٣٢٢هـ.

(٢) من كبار شيوخ الإمام محمد الخضر حسين في جامع الزيتونة.

أما آثـاره الفكرية، فإنما هو عِلْمٌ بثّه في صـدور الرجـال. واجهه الله بالرضوان، وعوّض المسلمين منه خيراً.

*** إحياء سنّة[1]:**

كنا كتبنا جملاً في شأن الخطبة الثانية من يوم الجمعة، وبينّا صراحة أن الأفيد للأمة، والأقربَ من السنّة، عدمُ التزام الخطيب خطبة واحدة يعيدها في كل جمعة؛ فإن الخطب لم تشرع للتعبد المحض.

وقد لمعت بوارق هذه السنّة المحمدية، وعسى أن يتنفس صُبْحُها على جميع المنابر. شـهدنا صلاة الجمعة الماضية في بعض الجوامع، فأسـمعنا خطيبه من الخطبة الثانية مواعظ بالغة، زيادة عَمَّا تعودنا سماعَه في كل جمعة، فنشكر لهذا الخطيب صنعه، ونحمد الله على إحياء هذه السنّة.

❐ ❐ ❐

(١) العدد الحادي والعشرون ـ الصادر في غزة ذي القعدة ١٣٢٢هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٣
* مقدمة الإمام محمد الخضر حسين	٧
* التقاريض	٢٤
* المباحث العلمية	٥٣
- الاعتصام بالشريعة	٥٥
- الأخذ بالقول الراجح	٥٧
- براءة القرآن من الشعر	٦١
- العمل والبطالة	٦٤
- حياة الأمة	٦٨
- التربية	٧٢
- التقدم بالكتابة	٧٥
- مدنية الإسلام والعلوم العصرية	٧٩
- مدنية الإسلام والخطابة	٨٣
- كبر الهمة	٨٨
- التعاون والتعاضد	٩٢
- الديانة والحرية المطلقة	٩٧

الموضوع	الصفحة
ـ البدعة	١٠٢
ـ الزمان والتربية	١٠٤
ـ الصيام	١٠٨
ـ الأحاديث الموضوعة	١١٢
* المباحث الأدبية	١١٧
ـ تقسيم الكلام بحسب أغراضه	١١٩
ـ الإبداع في فنون الكلام	١٢٢
ـ الفصيح من الكلام	١٢٤
ـ طرق الترقي في الكتابة	١٢٧
ـ الشعر العصري	١٣٠
ـ الكلام الجامع	١٣٢
ـ الأخلاق	١٣٥
ـ الحياء	١٣٧
ـ أبو بكر بن العربي	١٣٩
ـ ترجمة القاضي أبي الوليد الباجي الأندلسي	١٤٨
ـ منذر بن سعيد	١٥٧
ـ تحقيق مسألة تاريخية	١٦٤
* الأسئلة والأجوبة	١٦٩
ـ عقدة نكاح بين ذميِّيْن بشهادة مسلمين	١٧١
ـ كتابة القرآن بلفظه العربي بالأحرف الفرنسية	١٧٣
ـ أحاديث فضل ليلة النصف من شعبان	١٧٥
ـ هل صوت المرأة عورة؟	١٧٧

6027

الموضوع	الصفحة
ـ جواز الاقتباس من القرآن في المقالات	١٨٠
ـ قصة رتن الهندي	١٨١
ـ تقديم الإنسان اسمه على اسم المكتوب إليه	١٨٣
ـ الطب النبوي	١٨٥
ـ تلقين الميت لا إله إلا الله	١٨٧
ـ الاستخارة بالقرآن	١٨٩
ـ فتوى ابن العربي	١٩٠
ـ وصول ثواب الذِّكر للميت	١٩٧
ـ الخطبة الثانية في الجمعة	١٩٩
ـ دخول ولد الزِّنى للجنَّة	٢٠٠
ـ كيف التخلص من البدع؟	٢٠٢
ـ الرؤيا والحكم الشرعي	٢٠٤
ـ جوائز التفوق في المسائل العلمية	٢٠٦
ـ إجزاء إخراج القيمة من الزكاة	٢٠٧
ـ حكم الرجل يقول لزوجته أنت طالق ليلة القدر	٢٠٩
ـ الصوم بخبر السلك البرقي	٢١٠
* **المستدرك من «السعادة العظمى»**	٢١٢
* **فهرس الموضوعات**	٢١٧

